مجلة علمية مُحَكّمة تصدر عن مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان

أديان

الإصدار ١٠ مايو ٢٠١٧

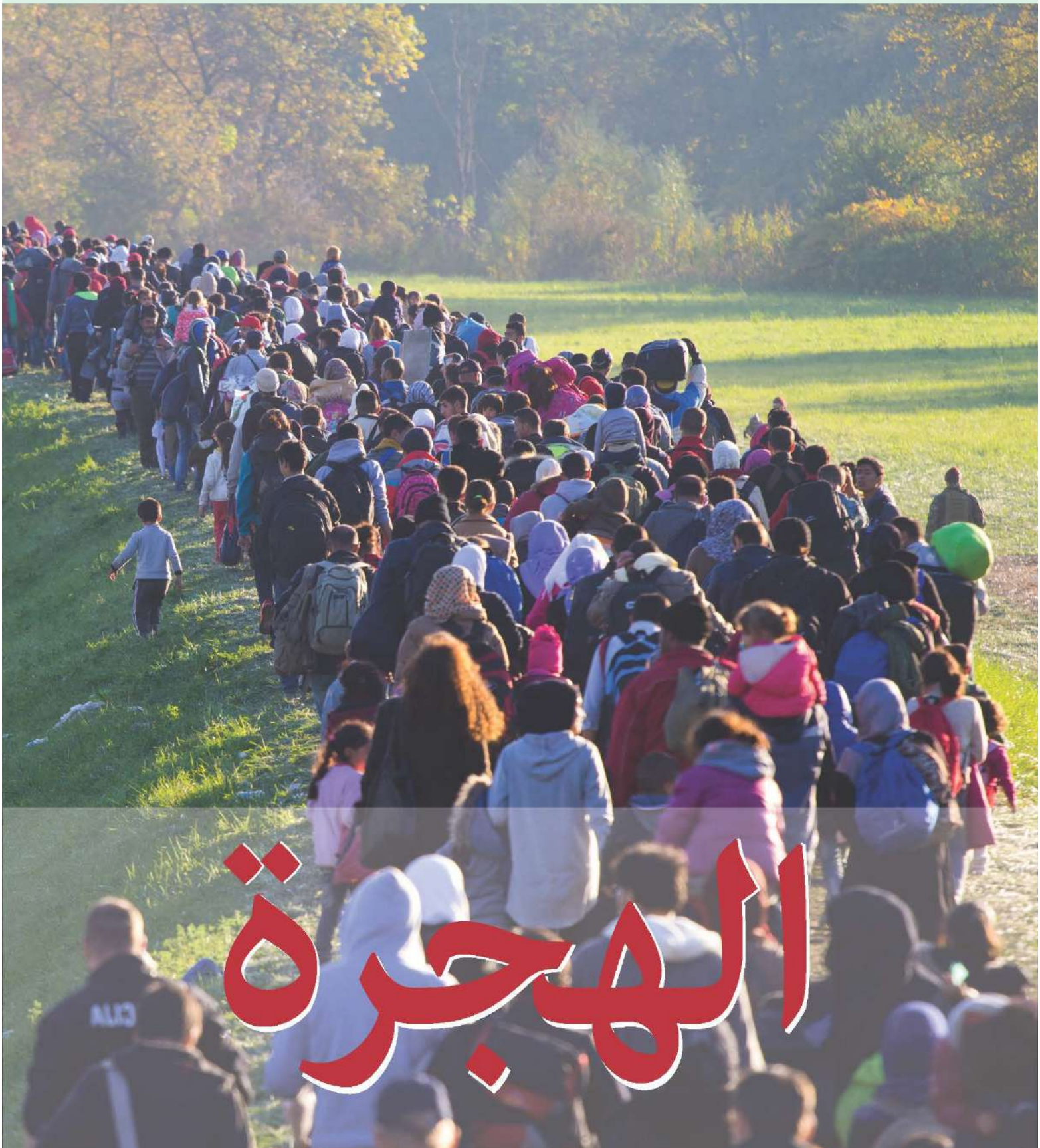

الهجرة

ISSN: 2218 - 7480
Price :$10/QR30

Published by the Doha International Center for Interfaith Dialogue
P.O. BOX: 19309 Doha, Qatar

http://www.dicid.org/journals.php
dicid.admin@dicid.org
dicid.news@dicid.org
http://www.qscience.com/loi/rels

Tel : +974 44864666
44864666
Fax: +974 44863222
44869900

GEORGETOWN UNIVERSITY
School of Foreign Service in Qatar

DICID
مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان
Doha International Center for Interfaith Dialogue

Religions-Adyan Journal

Editorial Board

- Dr. Ibrahim Saleh Al-Naimi, Chairman, Doha International center for interfaith Dialogue
- Dr. Akintunde Akinade, Editor in chief, Georgetown University
- Dr. Mahamade Ali Mahamade, English Editor, Senior Researcher, Doha International Center for Interfaith Dialogue
- Dr. Senad Mrahorovic, English Editor, Researcher
- Dr. Ahmad Abderahim, Arabic Editor, Senior Researcher, Doha International Center for Interfaith Dialogue

International advisory Board

- Dr. Rodney Blackhirst, Philosophy and Religious studies, La Trobe University, Bendigo, Australia
- Dr. David Bakewell Burrell, C.S.C., Hesburgh chair of Theology&Philosophy, Notre Dame University, United States of America
- Dr. James Cutsinger, Professor of Religious studies, University of South Carolina, Unites States of America
- Dr. Eric Geoffroy, Professor Arabic and Islamic studies, University of Strasbourg II, France
- Dr. Aicha al-Mannai, Director of the Centre for Muslim Contributions to Civilization
- Dr. Ibrahim Kalin, International Scholar of Islamic Studies
- Dr. Oliver Leaman,, professor of Philosophy and Judaic Studies, University of Kentucckly, United States of America
- Dr. Rusmir Mahmutcehajic, Professor University of Sarajevo, Bosnia-Herzegovina
- Dr. Kenneth Oldmeadow, Professor of Philosophy and Religious Studies, La Trobe University, Bendigo, Australia
- Dr. Seyyed Hossein Nasr, Professor of Islamic Studies, George Washington University, United States of America
- Dr. Jacob Neusner, Professor, Bard College, New York, United States of America
- Dr. Eliezer Segal, professor, Department of Religious Studies, University of Calgary, Canada
- Dr. Reza Shah-Kazemi, Researcher, The institute of Ismaili Studies, London, United Kingdom
- Dr. Arvind Sharma, Birks Chair of comparative Religion, McGill University, Montreal, Canada
- Dr. Ali Ben Mbarek, Researcher, Police Academy, Doha, Qatar

Directed by

- Massoud Abdelhady

مجلة أديان (دورية علمية محكّمة)

هيئة التحرير

- د. إبراهيم صالح النعيمي، رئيس مجلس إدارة مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان
- د. أكينادا أكينتوندي، رئيس التحرير، جامعة جورجتاون
- د. محمادي علي محمادي، محرر اللغة الإنجليزية، باحث بمركز الدوحة الدولي لحوار الأديان
- د. سناد مراهوروفيتش، محرر اللغة الإنجليزية، باحث بمركز الدوحة الدولي لحوار الأديان
- د. أحمد عبد الرحيم، محرر اللغة العربية، باحث بمركز الدوحة الدولي لحوار الأديان

الهيئة الاستشارية الدولية

- د. رودني بلاكشيرت، قسم الدراسات الدينية والفلسفية، جامعة لاتروب، بنديغو، أستراليا
- د. ديفيد بيكويل، رئيس قسم اللاهوت والفلسفة، جامعة نوتردام، الولايات المتحدة الأمريكية
- د.جيمس كاستنغر، أستاذ الدراسات الدينية، جامعة ساوث كارولاينا، الولايات المتحدة الأمريكية
- د. إريك جيفري، أستاذ اللغة العربية والدراسات الإسلامية، جامعة ستراسبورغ ٢، فرنسا
- د. عائشة المناعي، مدير مركز محمد بن حمد آل ثاني لإسهامات المسلمين في الحضارة كلية الدراسات الإسلامية، جامعة حمد بن خليفة
- د. إبراهيم كالين، أستاذ الدراسات الدينية، دكتوراه جامعة جورج واشنطن، الولايات المتحدة الأمريكية
- د. أوليفر ليمان، أستاذ الفلسفة والدراسات اليهودية، جامعة كنتاكي، الولايات المتحدة الأمريكية
- د. روزمير ماهموتسيهاجيتش، أستاذ بجامعة سرايفو، البوسنة والهرسك
- د. كنت أولدميدو، قسم الفلسفة والدراسات الدينية، جامعة لاتروب، بنديغو، أستراليا
- د. سيد حسين نصر، أستاذ الدراسات الإسلامية، جامعة جورج واشنطن، الولايات المتحدة الأمريكية
- د. جاكوب نيوزنر، أستاذ بارد كوليدج، نيويورك ، الولايات المتحدة الأمريكية
- د. إليزر سيغال، أستاذ بقسم الدراسات الدينية، جامعة كالغاري، كندا
- د. رضا شاه كاظمي، باحث، معهد الدراسات الإسماعيلية، لندن، المملكة المتحدة
- د. أرفيند شارما، رئيس قسم الأديان المقارنة، جامعة ماكغيل، مونتريال، كندا
- د. علي بن مبارك، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعي تونسي

إخراج

- مسعود عبد الهادي

ISSN 2218 - 7480
ثمن النسخة: ٣٠ ريال/ ١٠ دولار
تصدر عن مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان
ص. ب. ١٩٣٠٩ الدوحة – قطر

http://www.dicid.org/journals.php
dicid.admin@dicid.org
dicid.news@dicid.org
http://www.qscience.com/loi/rels

مباشر:
+٩٧٤-٤٤٨٦٤٦٦٦
+٩٧٤-٤٤٨٦٥٥٥٤

فاكس:
+٩٧٤-٤٤٨٦٣٢٢٢
+٩٧٤-٤٤٨٦٩٩٠٠

GEORGETOWN UNIVERSITY
School of Foreign Service in Qatar

DICID
مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان
Doha International Center for Interfaith Dialogue

أديان

مجلة علمية يصدرها مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان

مجلة نصف سنوية حول الدراسات الدينية تصدر باللغتين العربية والإنجليزية عن مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان. والمجلة تركز على الحوار بين الأديان، والعلاقات بين الإسلام والديانات الأخرى.

في عالم يتخلله سوء التفاهم الديني، وممارسات العنف، واختطاف التعاليم الدينية من قبل الأيديولوجيات السياسية، تأمل مجلة أديان أن توفر فضاء للتلاقي والتفاكر حول المشتركات العامة والمقاصد المشتركة للأديان الكبرى في العالم. وعنوان المجلة يوحي بحقيقة الوحدة الروحية في التنوع الديني التي يمكن أن توفر مفتاحاً لتعمق الفرد في معتقده الديني، وكذلك مجالاً للانفتاح على المعتقدات الأخرى. فالقرآن يوحي بوحدة الإيمان، والسعي للحقيقة في إطار التنوع الديني:

«... لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى لله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون.» (المائدة: ٤٨)

بما أن مجلة أديان مجلة دولية متخصصة ومرتبطة بمركز الدوحة الدولي لحوار الأديان فإنها تجد إلهامها في الرسالة العالمية للإيمان بإلهٍ واحد، في معناها الواسع، كما أنها تسعي لمشاركة مختلف الديانات التي لها مبادىء وقيم مشتركة في داخل هذا الإطار المفهومي الواسع.

وتشجع المجلة الدراسات المقارنة والتبادلات بين الأديان بروح الحوار والاغتناء المشترك. وهدفها هو الترويج للتفاهم بين المؤمنين بمختلف الأديان، وبدراسة واكتشاف الأسس الدينية والروحية المشتركة بينهم، وعلاقاتهم البناءة المتبادلة في الماضي، والحاضر وفي المستقبل، ودراسة وتفهم أفضل لأسباب الصراعات بينهم، والتحديات التي يواجهونها عند الالتقاء بالمجتمعات العلمانية والغنوصية الملحدة.

وبالإضافة إلي ذلك، تود المجلة أن تحيي الأفق العالمي للإسلام وتؤكد عليه، وذلك برعاية دراسات في العلاقاتبين الإسلام والديانات والحضارات الأخرى في مجالات التاريخ، والفنون، والدراسات الدينية. وفي هذا أيضاً مسعى لتفعيل الخطاب الفكري في الإسلام، وذلك في إطار ارتباط تفاعلي ومثمر بين الإسلام والديانات الأخرى.

والمقالات المنشورة في مجلة أديان هي على مسئولية كتابها بصورة كاملة، ولا تعبر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان. وهي تُنشر في إطار حوار مستمر حول الأديان، ولا تُؤخذ بأنها تعبر عن مواقف أي منظمة راعية للمجلة.

محتويات

افتتاحية العدد: أكينادا أكينتوندي ٤

حوار العدد: مع السيد أيمن رياض مفلح (الأمين العام للهيئة الخيرية الأردنية) ٥

الهجرة من لجوء القهر إلى إرادة الحياة: محمد حبش ١١

الهجرة في الأديان: من الممارسة التاريخيّة إلى التوظيف الرمزيّ: صلاح العامري ٢١

الهجرة: من الإنسانية إلى السياسية: محمد السماك ٣١

الهجرة وقيم الفطرة: مختار خواجه ٣٩

نحو مقاربة ثقافية لظاهرة الهجرة: جميلة تِلوت ٤٨

الهجرة والتهجير من منظور ديانات التوحيد: علي بن مبارك ٦٠

الهجرة وتحدياتها الثقافية على هُوية الأقليات المسلمة في البلدان الغربية: محمد محمود كوار ٦٩

هجرة المسلمين إلى الحبشة والعدل وحرية العقيدة: أحمد عبد الرحيم ٨٠

نماذج معاصرة من الهجرة ٨٥

الهجرة السرية: «الحَرْقَةُ» مصطلحٌ جديدٌ للموت: فله بن غربية ٨٥

الهجرة القسرية والمسلمون البوشناق في السنجق: أنور غيسيتش ٩٣

السيرة الذاتية للكتاب ١٠٠

الافتتاحيّة

يتَّسم العالم المعاصر ببروز ظاهرة الهجرة، بصفة لم يسبق لها مثيل؛ حيث أخذت أشكالًا متعددةً، سواءً كانت هجرةً طوعيةً أو قسرية، كما أن تأثيرات العولمة والاقتصاد العابر للحدود قد ساهما في تعزيز عملية تنقُّل المجموعات البشرية وتحركها في جميع أنحاءالعالم. من ناحيةٍ أخرى أفرزت تلك الظاهرة نماذجَ جديدةً ضمن تكوين الفكر الديني. ويمكن تعريف الهجرة بأنها عملية حركة جماعية من مكان للاستقرار في مكانٍ آخر، وقد تكون تلك التحركات مؤقتةً في بعض الحالات أو دائمةً في حالاتٍ أخرى. لكن من المؤكد أنه كان لتلك العملية تأثيراتٌ عميقةٌ على الساحة الفكرية الدينية؛ بأن أثْرَتها بمفاهيمَ جديدةٍ تلبيةً لتغيُّرات المرحلة.

وهذا العدد من مجلة أديان العلمية يركِّز على دراسة مختلف أنواع طرق الهجرة، وكذلك النماذج الجديدة التي فرضتها هذه الظاهرة على النمط الفكري للتقاليد الدينية المختلفة، والتي انتشرت عبر العالم، بفعل عملية الهجرة، مضيفةً على الواقع الديني أبعادًا جديدة عبر تمددها الجغرافي؛ لتنتج أُطرًا فريدةً في القرن الحادي والعشرين تتفاعل من خلالها التقاليدُ الدينية. ويمكن التأكيد على أن التقاليد الدينية ليست ثابتة، بل هي في تحوُّلٍ دائم، عبر ديناميكة متغيرة، تنحصر في بعض المناطق، وتتكثَّف في مناطقَ أخرى.

يشهد عالمنا اليوم تحوُّلاتٍ جِذْريّةً بسبب محنة اللاجئين، تتمحور حول ما نشاهده صباح مساء من صور الأطفال والنساء والشيوخ المُشرَّدين، والتي يأتي في مُقدِّمَتها اللاجئون السوريون؛ لترسم للعالم مأساةً إنسانيةً حقيقية، ورغم ذلك يبقى الأمل حاضراً؛ لبناء مستقبلٍ يتعايش فيه الجميع بأمنٍ وسلام، ويغدو فيه التنوع مصدرَ مودةٍ وتكامل، ولا يمكن أن يتحقق ذلك الغدُ إلَّا من خلال بناء جسور التفاهم وتوحيد الجهود؛ كي نتمكَّن من إعادة بناء عالمنا الهش والمُربِك في الكثير من الأحيان. فعلينا أن نؤمن أنَّ التقاليد الدينية كفيلةً باحتواء الأزمات التي تحيط بنا؛ وذلك من خلال قوتها الروحية الدافعة للأمل والإيمان لمواجهة التحديات التي تعوق مسيرتنا، ويعقب ذلك السعي بلورة استراتيجية تأصِّل لحوار بنَّاء وخلاق، يمكن للبشر من خلالها أن يتخطوا ما وصفه غاندي بـ «جنون العنف»، وبَدء التفكير في برامجَ وسياساتٍ جديدةٍ تُسهم في إيجاد إطارٍ تنمويٍّ صالحٍ لإعداد مجتمعٍ سلمي يحمي أفراده بروح الأخوة والتراحم والتكامل.

ومركز الدوحة الدولي لحوار الأديان يتبنى هذة النظرة الإنسانية، ضمن رؤيته الشاملة؛ لذلك جاء هذا العدد العاشر من مجلة أديان مركِّزا على البحث عن الوسائل والسبل التي تحكم العلاقة الحالية بين الدين والهجرة والهُوية؛ وذلك بهدف تنوير صانعي السياسات والمفكرين في العالم؛ سعيًا من المركز لتقديم دراسات حول الوسائل والطرق المختلفة للتعامل والاستفادة من التنوع الديني والثقافي.

أكينادا أكينتوندي- رئيس تحرير

حوار مجلة أديان
مع السيد أيمن رياض مفلح
الأمين العام للهيئة الخيرية الأردنية

- نعلم أن المؤسسات الخيرية والهيئات الإغاثية كثيرة، سواء كانت دولية أو وطنية، وأصبحت الحاجة إليها تزداد خاصة في هذه الآونة التي تتفاقم فيها قضية اللجوء. نود أن نلقي الضوء على الهيئة الخيرية الأردنية الهاشمية، وموقعها بين هذه المؤسسات والهيئات؟

جاء تأسيس الهيئة الخيرية الأردنية الهاشمية للإغاثة والتنمية والتعاون العربي والاسلامي في الثالث من شهر جمادي الآخر سنة ١٤١٠هـ الموافق للعاشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٩٠م؛ لتكون مؤسسة وطنية لعمل الخير، ذات نشاط متعدد الجوانب، تسعى لتحريك الفعاليات الخيرية التطوعية والتعاون معها داخل الأردن وخارجه، ولترجمة مشاعر المحسنين ودعمهم للمشروعات وبرامج ترسخ معاني الخير، وتعمق مفاهيم العدالة والتكافؤ على المستويات الوطنية والعربية والإسلامية والدولية، كما تتمتع الهيئة بشبكة متنامية من المؤسسات والمنظمات غير الحكومية، الدولية والعربية والمانحة، كما تنسق وتنفذ العديد من الأنشطة مع المنظمات والمؤسسات غير الربحية والتي تهدف إلى مساعدة المناطق المنكوبة واللاجئين على مستوى العالم؛ كما تقوم بتلبية احتياجات المواطنين قدر الإمكان في فلسطين وقطاع غزة، ومن جانب آخر تمتلك الهيئة القدرة على إنشاء وإدارة مخيمات اللاجئين، وإقامة مدارس ومراكز صحية بالتنسيق مع الجهات المانحة والممولة للبرنامج المراد تنفيذها.

- لا يخفى اليوم أن أكبر قضايا اللاجئين صارت عربية وتحديدًا سوريا وما يحدث فيها، فقد فاق اللجوء الذي أُجبر عليه السوريون نسبة لعله لم يشهدها العالم مع ما مرَّ به من أزمات وكوارث. فما دور الهيئة الخيرية الأردنية الهاشمية في دعم ومتابعة شؤون اللاجئين السوريين وما التحديات التي تواجهها؟

يتمحور دور المؤسسات الخيرية في تقديم المساعدات العينية والنقدية والطبية، وغيرها من المساعدات لصالح اللاجئين السوريين في المخيمات وخارجها، بالإضافة إلى برامج تنمية مستدامة ودمج اللاجئين بالمجتمع المستضيف المحلي، بالاضافة إلى التنسيق حول إنشاء المخيمات وتجهيز البنية التحتية لها

أجرى الحوار: د/ محمادي علي محمادي

بالتعاون مع المنظمات الأممية والسلطات المحلية، وتزويدها باحتياجات اللاجئين المقيمين فيها، مثل: المدارس والمستشفيات والمواد الغذائية و المسكن وكوبونات شرائية.

أما بالنسبة للتحديات التي تواجهها الهيئة:

صعوبة الحصول على التمويل.

استمرار تنقل اللاجئين خارج المخيمات وعدم تحديث مكان الاقامة.

تسجيل اللاجئين السوريين في عدة جمعيات ومنظمات وبالتالي ازدواجية المساعدات.

عدم وجود قاعدة بيانات موحدة ومحدثة عن اللاجئين السوريين.

تقاطع اختصاص المنظمات والجمعيات الخيرية.

- كيف تعاملت الهيئات الخيرية والسلطات المحلية الأردنية مع تدفق اللاجئين الفارين من الصراع في سوريا؟ وهل هناك استراتيجية محددة في جمع الموارد المطلوبة لسد احتياجات اللاجئين العديدة؟

تم التعامل مع تدفق اللاجئين بالتعاون مع القوات المسلحة الأردنية – الجيش العربي من خلال حرس الحدود والعمل على نظام بصمة العين من خلال وزارة الداخلية الاردنية – إدارة شؤون اللاجئين والتسجيل في منظمة الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين UNHCR وتحديد أماكن إقامتهم وإنشاء المخيمات.

أما من حيث جمع الموارد فتتم من خلال عدة طرق، من أهمها :

١. من خلال حضور الاجتماعات الدورية للمنظمات الدولية العاملة في الاردن و التي يتم فيها الاعلان عن الاحتياجات.

٢. من خلال متابعة الشبكة العنكبوتية الخاصة بالمنظمات الدولية والاممية والجهات المانحة.

٣. من خلال اجراء مسوحات ميدانية للوقوف على

احتياجات اللاجئين السوريين ورفع مقترحات المشاريع للجهات المانحة.

- لعل الأطفال تحديدا أكثر من يعاني من اللجوء خاصة الوضع الصحي لهم والتعليمي، فكيف تعاملت الهيئة الخيرية الأردنية الهاشمية مع ذلك؟ ونريد ان نتعرف على جهود الهيئة في هذا المجال بالنسبة للاجئين بصورة عامة؟

هناك تنسيق بين المؤسسات الخيرية ووزارتي الصحة والتربية والتعليم لمعرفة الاحتياجات، كما يتم تقديم مقترحات مشاريع صحية وتعليمية للجهات المانحة بناءً على احتياجات الصحية والتعليمية الخاصة باللاجئين السوريين، وكذلك يتم بناء مدارس وعيادات طبية لخدمة اللاجئين السوريين داخل وخارج المخيمات وتحت إشراف وزارتي الصحة والتربية والتعليم كل ضمن اختصاصه. ومن بين هذه المدارس والمراكز الصحية: المدرسة البحرينية، المستشفى الإماراتي، ويتم الإشراف عليها من قبل السلطات الحكومية المختصة.

وعلى سبيل المثال قامت الهيئة الخيرية الأردنية الهاشمية وبناءً على دراسة احتياجات من وزارة التربية والتعليم بتقديم مقترح بناء مدرسة تخدم اللاجئين السوريين والمجتمع المحلي في مدينة إربد، وبتمويل من المؤسسة الملكية البحرينية فقد تم إنشاء مدرسة للاجئين السوريين بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم الأردنية.

- هل يوجد تعاون بين الهيئة الخيرية الأردنية الهاشمية والمؤسسات التابعة للأمم المتحدة المتخصصة باللاجئين؟

التنسيق في أعلى مستوياته في الأردن؛ وذلك من خلال عرض UNHCR للإحصائيات والاحتياجات الخاصة باللاجئين السوريين، وهناك اجتماعات دورية خاصة بكل قطاع خدماتي لصالح اللاجئين السوريين، وهناك تمثيل لهذه القطاعات من المنظمات والجمعيات الخيرية بالاضافة إلى أنه يتم عرض المعلومات والنتائج على الشبكة العنكبوتية والمتاح الدخول لها وعرض المعلومات المتوفرة منها للجمعيات.

- هل هناك معايير خاصة بالجمعيات الخيرية لتصنيف وتنظيم المساعدات وتوزيعها على فئات اللاجئين؟

نعم هناك معايير تنظم توزيع المساعدات، ونلخصها في ما يلي:

١. شريطة الحصول على بطاقة المفوضية السامية لشؤون اللاجئين.
٢. شريطة الحصول على البطاقة الممغنطة (بطاقة وزارة الداخلية).
٣. التنسيق مع الهيئة الخيرية الأردنية الهاشمية بخصوص قوائم المستفيدين.
٤. التوزيع من خلال جمعيات خيرية محلية معتمدة وذات كفاءة ومسجلة لدى وزارة التنمية الاجتماعية.
٥. اختيار قوائم المستفيدين من خلال نظام الحجز المسبق للاجئين السوريين يعتمد على عدم تكرار المساعدات من خلال نظام رايس.
٦. أحيانا يتم اعتماد نماذج استبيان معينة وحسب طبيعة الخدمة/ المساعدات المقدمة.

- بالتأكيد لا يتوقف عمل المؤسسات الخيرية على تقديم المساعدات، وإنما هناك بدائل أو وسائل أخرى لتقديم يد العون إلى اللاجئين، ومن أهمها توفير فرص عمل لهم. نود الاقتراب والتعرف على استراتيجية الهيئة الخيرية الأردنية الهاشمية في مجال خلق فرص عمل للاجئين؟

الاستراتيجية المتبعة في هذا المجال تقوم على النقاط التالية:

١. التنسيق مع وزارة العمل الأردنية بخصوص

مجالات العمل المفتوحة للاجئين السوريين.
٢. دعم مشاريع صغيرة مدرة للدخل.
٣. عقود تطوع، وخاصة داخل المخيمات حيث لا تخضع لقوانين وتصاريح العمل.

- هل لدى المؤسسات الخيرية برامج خاصة في إدراج متطوعين لدعم الأنشطة الخيرية؟ وما ذلك الدور الذي يمكن أن يلعبه التطوع في تطوير وإثراء العمل الخيري؟

هناك العديد من البرامج التي تعتمد في تنفيذها على المتطوعين وذلك نظراً إلى:
١.هنالك العديد من الوظائف المغلقة للاجئين السوريين و بالتالي يتم استبدال الموظف بمتطوع.
٢.نظرا لضعف التمويل وقلته فيتم استخدام المتطوعين وخاصة اللاجئين السوريين لملء بعض الشواغر لتجنب الرواتب العالية.
٣.في كثير من البرامج وخاصة تلك التي تخدم السوريين يتم استخدام المتطوعين وذلك لتشابههم في العادات والتقاليد والثقافة.

- ذكرتَ لنا التحديات التي واجهتكم في استقبال تلك الأعداد الكبيرة من اللاجئين، وكيفية مواجهتكم لها، فما هي التحديات التي تواجه اللاجئين أنفسهم، وخاصة أن النسبة الأكبر منهم من العائلات والنساء والأطفال؟

يتمثل التحدي الاكبر بالنسبة للاجئين السوريين في الحصول على التمويل المناسب في الوقت المناسب، وخاصة أنه هناك ضعف في التمويل نتيجة إعياء المتبرعين في استدامة التمويل وتقديم المشاريع الإغاثية، والتحدي الآخر أن جزءًا كبيرًا من السوريين الموجودين في الأردن ما زال على قوائم الانتظار لدى المفوضية لتسجيلهم كلاجئين، وجزءًا منهم لم يُسجل لدى المفوضية طواعية، وهذا يحرمهم من استلام المساعدات كونهم غير حاصلين على بطاقات لجوء لدى المفوضية.

- هناك استراتيجية متبعة في المنظمات الخيرية الدولية خاصة بتأهيل اللاجئين نفسيًّا، فهل هذا موجود بالهيئة الخيرية الأردنية، خاصة وأنهم قد خرجوا أو ما زالوا في صدمة الأهوال التي عانوها من الحروب وضياع الأوطان وفقدان كل شيء، كما أن الكثيرين من أطفال اللاجئين هم أيتام؟

هناك مشاريع عديدة لدى الهيئة، و بالشراكة مع العديد من المنظمات الدولية و على سبيل المثال لا الحصر «مشروع ترابط» بالشراكة مع المجلس الدنماركي لشؤون اللاجئين DRC والذي يتضمن أقسام إحالة إلى المنظمات المختصة، وبالشراكة مع الهيئة الخيرية الأردنية الهاشمية، وهناك قسم الدعم النفسي والاجتماعي الذي يعمل على معالجة وتأهيل متلقي الخدمة من اللاجئين السوريين والذين تعرضوا لصدمات نفسية نتيجة خروجهم من بلدهم أاو فقدانهم لأحد أعضاء أسرتهم بالإضافة إلى محاضرات نظرية وتوعية للاندماج في المجتمع والتغلب على المشاكل الاجتماعية التي تأثروا بها نتيجة اللجوء.

- الأردن ولا شك تعد من أكبر الدول العربية استقبالا للاجئين، وهذا بالطبع بلدا حدودية مع سوريا تحديدا والتي هي أكبر الدول التي يضطر أهلها للجوء. هل لديكم إحصائيات حول عدد المهاجرين قبل الحرب في العراق وسوريا وبعدها ؟ وما هي التغيرات التي حدثت في تعاملكم مع هذه القضية؛ خاصة بعد تفاقم الأوضاع المأساوية في سوريا تحديدا؟وهل هنا برنامج لعودة المهاجرين الذين يقررون العودة إلى بلدانهم؟ وما توقعاتكم لأمكانية حدوث ذلك؟

حسب آخِر إحضائية وردتنا من إدارة شؤون اللاجئين التابعة لوزارة الداخلية الأردنية فإن عدد السوريين

المتواجدين على أرض المملكة الأردنية الهاشمية هو (١٣٧٧٦١٤)، مع الإشارة لأن نصف العدد المذكور هم موجودين على أرض المملكة قبل اندلاع الأزمة السورية بحكم الجوار واللغة و العادات والتقاليد. أما بخصوص العودة إلى بلدانهم فإن السلطات الاردنية لا تمانع من مغادرة أي لاجئ إلى بلدانهم وفي أي وقت، وهناك حالات فردية من الرجوع و العودة الطوعية من قبل اللاجئين.

- نشاهد الآن الكثيرين من اللاجئين يسيطر عليهم أمل اللجوء إلى أوربا عن اللجوء للبلاد العربية رغم المخاطر، من وجهة نظركم ما السبب الرئيسي لهذا التوجه عند اللاجئين؟ وهل باستطاعتنا أن نقول إن المؤسسات الخيرية العربية لم تستطع أن تقدم للاجئين ما يقدمه الغرب لهم؟

اعتقد ان اللاجئين السوريين هاجسهم الاول هو الحصول على الحماية و الامن بالدرجة الاولى و من ثم السعي على الحصول على متطلبات المعيشة اليومية و للاسف فان دول الجوار السوري باستثناء الاردن تشهد مشاكل امنية على المستوى الوطني لتلك الدول بين الحين و الاخر بالاضافة الى ذلك فان عدد اللجوء السوري كبير جدا وللاسف فان الغالبية من هذا العدد تتمركز في تركيا، الاردن، لبنان، مصر و العراق وهناك قيود تفرضها بعض الدول العربية للحد من دخول اللاجئين السوريين وهذا ما دفع بعض اللاجئين السوريين لطلب اللجوء الى الدول الاوروبية بالاضافة الى ذلك فان معظم الدول العربية وخاصة المستقبلة العدد الاكبر من اللاجئين السوريين تشهد ركود وتباطؤ في النمو الاقتصادي مما يعني للاجئين السوريين ان هذه الدول ليست الملجأ الذي يطمحوا للوصول إليه.

- أخيرا تعلمون أن مجلة أديان معنية بالمقام الأول بالحوار بين الأديان وتحقيق التفاهم الديني بين معتنقيها وتعميق الوحدة الإنسانية لمواجهة كل ما نتعرض له في هذا الوقت تحديدا من أزمات فكرية واضطهاد ديني وعنصري.

السؤال: فيما يخص اللاجئين، ما أثر الاختلاف الديني والطائفي بين اللاجئين في التعايش بينهم، وكيف تتعامل الهيئة الخيرية الأردنية مع ذلك، ومجهوداتها في التوعية لمواجهة التعصب الذي قد يكون انتقل مع البعض من بلد الصراع إلى مخيمات اللاجئين؟

الهيئة الخيرية الاردنية الهاشمية هي جمعية غير حكومية غير ربحية تهدف الى تقديم المساعدات الاغاثية من وجهة نظر انسانية بغض النظر عن اي عامل اخر سواء كان الدين او اللغة او العرق او..الخ، ولا يتم التطرق في أي حال من الاحوال عند تقديم المساعدات الى دين او معتقد المستفيد ولا يتم الاشارة بذلك الى اي وثيقة مع ترك كامل الحرية للاجئين المستفيدين باداء شعائرهم الدينية وفق معتقداتهم دون اي تاخير على الاخرين وقد قامت الهيئة بتنفيذ مشاريع بالشراكة مع العديد من المنظمات الاسلامية والمسيحية على حد سواء و على سبيل المثال لا الحصر «الجمعية الاثودكسية المسيحية العالمية IOCC « و«الاتحاد اللوثري العالمي LWF» ولم يتم الاشارة عند تقديم المساعدات الى ديانة المستفيدين وليس هناك اي خلفية لدى هذه الجهات او الهيئة عن ديانة المستفيدين او نسبة المستفيدين حسب معتقداتهم وهناك مثال اخر نود الاشارة اليه انه عند لجوء العائلات العراقية المسيحية الى الاردن وايوائهم لدى جمعية كاريتاس كانت الهيئة الخيرية الاردنية الهاشمية وبالشراكة مع جمعية المركز الاسلامي من الاوائل في تقديم المساعدات الغذائية والاغاثية بالاضافة الى البيوت الجاهزة لهؤلاء اللاجئين، وقد كانت هذه المساعدات افضل مثال على التعايش الديني في الاردن بشكل عام وبين المنظمات الخيرية واللاجئين بشكل خاص و بغض النظر عن معتقدات اي طرف.

THE BAND WITH THREE STRIPS

الهجرة من لجوء القهر إلى إرادة الحياة
الهدي النبوي ورسالته في بناء ثقافة هجرة إيجابية

الدكتور محمد حبش

يشهد عالمنا المعاصر موجات نزوح رهيبة غير مسبوقة، وهي مختلفة في دوافعها وخصائصها، وقد باتت مع السنوات الأخيرة تشكل أرقاً وهماً حاضراً للمجتمع الإنساني برمته وبشكل خاص للدول التي تحتضن اللاجئين وتخلق تداعيات خطيرة متقابلة في الدول النابذة والجاذبة على السواء. وبات من الواجب القول إن معظم تلك الدول النابذة هي من دول العالم الثالث التي تعاني الحروب والقهر، وفي السنوات الأخيرة كان اللجوء في معظمه عربياً إسلامياً، تسببت به بشكل خاص الحروب الطاحنة في العراق وليبيا وسوريا واليمن.

ويتركز سؤال هذه الدراسة على معالجة إشكالية الهجرة وتحول التعامل معها من كارثة ينبغي احتواؤها إلى طاقة يتعين استثمارها وتوجيهها.

إن الفرضيات المتاحة للجواب على هذه الإشكالية هي: العمل على الحد من الهجرة، وإصدار القوانين التي تمنع الهجرة، ومراقبة المهاجرين والتضييق عليهم ودفعهم للعودة إلى أوطانهم، وبالجملة فالهجرة كارثة وطنية يجب مقاومتها بكل سبيل. ولكن هذه الدراسة تطرح جانباً آخر في الوعي بظاهرة الهجرة، انطلاقاً من موقف الفقه الإسلامي، وتراهن على إمكانية استثارة الهجرة كطاقة خلاقة حيوية، تغتني

بها وتغنيها الدول النابذة والجاذبة على السواء، وأنها في التطور الديموغرافي ضرورة حيوية ومغنم اجتماعي، ورصيد للأمة الناهضة.

وقد اخترت دراسة هذه الظاهرة باستخدام مصطلح الترانس إيريا (Trans area) الذي صار تعبيراً دقيقاً في ظاهرة التفاعل الفيلولوجي وتداعياته الناشئة من الهجرة واللجوء، والعمل على تحويل اللجوء والهجرة إلى ظاهرة تبادل ثقافي واجتماعي وديني أكثر مما هي محض كارثة إنسانية[١].

ويمكن تعريف الترانس إيريا بأنه تعبير ديمغرافي يهدف الى دراسة التجمعات البشرية التي تنشأ فجأة في غير سياق تاريخي منضبط، وتقوم عادة في أعقاب حروب طاحنة أو موجات نزوح ولجوء، وتتميز إقامة الوافدين إليها بأنها غير مستقرة، وأنها إقامة عبور، أو على الأقل تساكن المقيمين فيها نزعة العبور والانتقال.

وقد ظهرت دراسات كثيرة في الترانس إيريا تركز على مناطق التفاعل الثقافي والحضاري التي تنشأ حين تفرض الحروب والكوارث هجرات واسعة للشعوب، وبالتحديد تلك المنعطفات التاريخية الدقيقة التي تنهض فيها الحضارات بشكل مفاجئ في مكان ما فيرحل إليه الطامحون، وفي الحالتين ينشأ صدام وتفاعل ثقافي وحضاري، يتطلب إدارة حكيمة وجهوداً وطنية وإنسانية لتحويل هذا الصدام إلى واقع تفاعل إيجابي.

تتطلع هذه الورقة إلى العمل على تحويل ظاهرة اللجوء الإسلامي في بلاد الهجرة إلى جسر ثقافي يشكل طريق حرير جديداً يسمح بتداول الثقافات والخبرات، وحمل قيم اسلامية وعربية جديدة الى العالم، وبالتالي فإنه مورد لكثير من القيم الحضارية التي يحتاجها المجتمع الإسلامي أو يساهم فيها.

قراءة مختصرة في المعالجة الإسلامية لظاهرة اللجوء والهجرة:

اللجوء تفاعل قسري بين الأمم ولكن هذه الكارثة الإنسانية يمكنها أيضاً أن تولد مشهداً فريداً من التفاعل الحضاري والإخاء الإنساني. وقد نجح الإسلام في تحويل الهجرة إلى تفاعل إيجابي وطاقة متجددة، ويحمل المسلمون عامة مشاعر إيجابية تجاه الهجرة، ترتبط بهجرة الرسول الكريم والسابقين الأولين من الصحابة، وقد تم اعتبار يوم الهجرة مبدأ التاريخ الإسلامي في إشارة واضحة إلى القراءة الإيجابية للهجرة في الإسلام، كما تم اختيار اسم المهاجرين وليس النازحين أو اللاجئين أو الهاربين، وفي هذا الاختيار معاني موحية واضحة، فالنزوح واللجوء اضطرار وقهر، أما الهجرة فهي قرار يتخذه المهاجر بحكمة ويقين، والنزوح اعتياش من الآخر أما الهجرة فقد كانت تشاركاً مع الآخر، وقد ظهرت هذه المعاني بوضوح في علاقات المهاجرين بالأنصار وبشكل خاص بالإخاء الذي نظمه الرسول الكريم بين المهاجرين والأنصار وحقق آفاقاً فريدة من الإدماج وتحقيق المسؤولية المجتمعية لا زالت إلى اليوم مضرب الأمثال.

وفي أعقاب يوم النضير عرض الرسول الكريم على الأنصار أن يعطيهم سائر الغنائم مقابل ان يستمروا في ايواء المهاجرين او يدفع المال للمهاجرين ليتحولوا عن بيوت الانصار، فكان جواب الأنصار على لسان سعد بن معاذ: كلا يا رسول الله بل تدفع اليهم الغنائم بشرط أن لا يتحولوا من بيوتنا فقد والله وجدنا البركة والخير حين نزلوا بديارنا.

وفي الواقع فإن هذا الخير الذي أشار إليه سعد لم يكن مجرد إيمان ميتافيزيقي، ولا مجرد طاعة وتسليم، لقد كان في الواقع إشارة إلى ظاهرة التنمية الهائلة التي

١ عقدت جامعة روستوك مؤتمرا خاصا في حزيران ٢٠١٦ تحت عنوان دراسات الترانس ايريا، وقد توجهت عناية الباحثين والدارسين في المؤتمر إلى العمل على تحويل الهجرة من ظاهرة عائلة إلى كتلة عاملة، ومن مشكلة الى ثروة، وقد قدم المؤلف ورقة هامة في هذا المؤتمر.

شهدتها المدينة المنورة بوصول المهاجرين إليها، وكانت نتيجة مباشرة للإدارة الحكيمة للهجرة واللجوء في يثرب التي قادها الرسول الكريم[٢]. وتم اعتبار الهجرة عنواناً مباشراً على السبق والأفضلية، وصار يوم الهجرة هو ميقات الإسلام وبدء التقويم القمري الذي اعتمده الرسول الكريم، وقال الرسول الكريم: لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار[٣]، وأثنى القرآن الكريم في آيات كثيرة على المهاجرين وإسهامهم في بناء المجتمعات الجديدة على الرغم من حاجتهم وفقرهم وشرادهم في الأرض.

ويتجاوز القرآن الكريم فكرة الهجرة على أنها قهر إنساني واضطرار اجتماعي إلى اعتبارها مطلباً دينياً وضرورة اجتماعية: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا} (سورة النساء: ٩٧).

{وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} (سورة النساء: ١٠٠).

ويثني القرآن الكريم على المهاجرين والأنصار بصورة بالغة في سورة الحشر ويشير إلى رسالة التكامل بين المهاجرين والأنصار في بناء مجتمعهم الراشد: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} (سورة الحشر:٨ -٩). وتكرر ذكر الهجرة والنصرة في القرآن الكريم بالثناء والحمد، وأصبح تعبير المهاجرين والأنصار رمزاً للنجاح الاجتماعي وثقافة التواصل الحضاري: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (سورة التوبة: ١٠٠). وقد أصبح هذا المصطلح ذا حمولة إيجابية بالمطلق على الرغم من الجانب الاضطراري والقهري فيه، وذلك بعد نجاح الهجرة الأولى في بناء مجتمع متضامن مستقر، واليوم فهناك في ضمير أكثر من مليار مسلم وعي واحد بالهجرة النبوية يمتلئ بالإيجابية والحبور، ويعلم كل مسلم أنه لولا الهجرة لما كان للإسلام أن يبلغ مكانه في التاريخ، وأن هجرة النبي الكريم والصحابة من بعده هي التي وطّأت لقيام الحضارة الإسلامية الشاملة.

الهجرة عبر الفتح الإسلامي ظاهرة تثاقف وتواصل حضاري:

وفي إشارة ضرورية لتجربة أخرى من تجارب الهجرة التي تحظى باحترام المجتمعات الإسلامية، فقد انطلقت في القرن السابع الميلادي بعد موت الرسول الكريم هجرات مهمة لا يزال لها أكبر التأثير في العقل الاتباعي العربي، وذلك في سياق تحرير البلدان العربية التي كانت ترزح تحت احتلال أجنبي، رومي في الشام وفارسي في العراق، وقد نتج عنها هجرة عشرات الآلاف من سكان الجزيرة العربية إلى الشام والعراق، وبدأت رحلة هجرة جديدة أنتجت ظروفاً اجتماعية وفيلولوجية كبيرة وطافحة بالمتغيرات.

لقد كان الفتح الإسلامي كله للشام والعراق لوناً من التواصل الحضاري، ومع أن الشام والعراق كانت أرض حضارة وكان المهاجرون أبناء صحراء، ولكن الأرض الحضارية المخصبة أصبحت أكثر خصباً وعطاء بأبناء الصحراء، وقد ازدهرت الشام بمشاريعهم الخلاقة وقد نجحوا في تحويل بردى وهو نهر واحد إلى سبعة أنهار، وضاعفوا رقعة غوطتها، وعاش البعير مع الغنم،

٢ شيخ الأرض، مروان، السيرة النبوية الأسس الحضارية والدعوية، ص ٢١٣، ط دار غار حراء، دمشق، ٢٠٠٥

٣ رواه البخاري والنسائي وأحمد، وهو في صحيح البخاري ج ٥ ص ٣١، طبع دار الرسالة بيروت ١٩٨٥

والنخيل مع الكرز، والسهل مع الجبل، واصبحت الحياة أجمل وأغنى.

في تاريخ الشام على سبيل المثال رجال كبار، مروا بالشام عابرين ولكنها منحتهم فرصة الإنجاز والإعجاز، وهل كان الوليد والرشيد وصلاح الدين ونور الدين وبيبرس وقطز والفارابي والكندي والغزالي إلا ظاهرة تواصل حضاري ومع أنهم جاؤوا غرباء مهاجرين ولكن المجتمع الإسلامي استطاع أن يرعاهم ويستخرج أجود ما فيهم، وأنتجت بلاد الهجرة في الشام والعراق بهم مجداً ثقافيا وعرفانياً وحضارياً لا تزال شواهده موجودة يتلقاها جيل عن جيل وترسم صورة مجتمع سعيد لا يغلق نوافذه عن نسائم الأمم ويغتني بها ويغنيها ويغني معها. في جبل قاسيون في دمشق عاشت تجارب المهاجرين تترى وتتكامل في كل عصر، ورسمت الترانس إيريا موزاييك رائعة الجمال، حيث تجاورت هجرات الأمم إلى هذا الجبل المجيد وقامت في الجبل حارة المقادسة ثم حارة الأكراد ثم حارة الشركس والأرمن والأديغة والتركمان والداغستان، وقامت دمشق تدعو كل أمة بكتابها ونشاطها وعطائها وسجل التاريخ ما يكتبون، وأصبح تراثهم وعطاؤهم في سجل التاريخ جزءاً من غنى الشام وتفرده. وفي عواصم الحضارة الإسلامية كان ينزل الموصلي والبغدادي والبصروي والمصري والطرابلسي والاسكندراني والطنطاوي والمكي والمدني والجزائري والمغربي والتونسي والرازي والكرمنشاهي والشيرازي والنيسابوري والقزويني والاسكندراني والاستامبولي والأنقروي، وأمم شتى لا يحصيها إلا الله، وفي النهاية كانت هذه الجنسيات تتحول إلى لوحة فسيفساء رائعة، تغتني بالقيم الجديدة وتصبح بالتحول الجديد أكثر تفتحاً وإشراقاً.

وربما كان اوضح وعي بدراسات إبداع المهاجرين في التاريخ الاسلامي هو ما قدمه العلامة ابن عساكر في تاريخ دمشق، حيث أرخ لها وترجم لرجالها ونسائها بصفتها مركز تفاعل حضاري، وحيث كتب عن أعلام دمشق فإنه أرخ لأبناء دمشق والوافدين إليها والعابرين فيها والكاتبين عنها والناظرين إليها بإحسان[٤]. وفي كتابه هذا أرخ ابن عساكر لنحو سبعين رازياً وعشرات من الشيرازيين والنيسابوريين والروم والفرس وغيرهم من أعلام الشعوب بوصفهم جزءاً عزيزاً من تاريخ دمشق، مع أن كثيراً منهم لم يكن له في دمشق إلا العبور أو كتابة بضعة سطور أو الارتحال منها وإليها، وهذه التفاعلات كلها اعتبرها ابن عساكر نشاطاً يؤسس لتاريخ دمشق واعتبره ملكاً لذاكرتها وتاريخها ورجالها.

هل نمارس النرجسية والأنانية حين نروي هذه الحقائق عن التاريخ الإسلامي؟ قطعاً لا.. فهذا هو شكل العالم، وهذا هو قيامه وعثاره في كل أرض أطلقت حضارات متوثبة رائدة، حيث كانت هذه الحضارات تغتني بالهجرة إليها وتغني بالهجرة منها. والحقيقة أن ما نرويه من نجاح الهجرات التي اتخذت طابعاً إيجابياً بدءاً من هجرة الرسول الكريم إلى هجرة الشعوب الإسلامية إلى عواصم الخلافة هو شكل التطور الحضاري الإنساني في كل التاريخ عندما تنجح الشعوب المستضيفة في توفير الأمن الفكري والاجتماعي والاقتصادي للشعوب المهاجرة وتبوئها فرصاً مناسبة للتفوق والعطاء.

إن اختيار سوريا للحديث عن الهجرة منها وإليها والاستعانة بالتاريخ في قراءة واعية يساعدنا على فهم أفضل لأكبر كارثة لجوء شهدها العالم في القرن الجديد وهي المتمثلة في هجرة السوريين عن وطنهم حيث تجاوز عدد المرتحلين عن منازلهم في الداخل والخارج عشرة ملايين وهو رقم يعادل نصف الشعب السوري تقريباً، ويشير تقرير الأمم المتحدة الدوري إلى ٤,٨

٤ علي بن الحسن بن هبة الله، ابن عساكر، تاريخ دمشق، دراسة إحصائية لنصوص الكتاب بمساعدة المكتبة الشاملة طبع دار الفكر – دمشق ١٩٨٥

مليون لاجئ سوري في دول الجوار و٨٠٠ ألف في الدول الأوربية، ويقدر عدد مماثل من النازحين في الداخل السوري[٥].

طبيعة الهجرات خلال التاريخ الإسلامي:

وخلال التاريخ الإسلامي فقد شهدت المجتمعات الاسلامية نموذجين اثنين من موجات الهجرة، سلبية وايجابية.

الأولى: الحروب السياسية التي كانت تنطلق بين الحين والآخر بهدف الانتصارات السياسية والعسكرية وكانت تتطور دوماً إلى معارك طاحنة، ومن المؤسف أنها كانت ترفع رايات دينية مؤثرة مع أنها تتناقض مع جوهر الدين في السلام والحرية. ولا نحتاج هنا إلى سرد الصراع العسكري على شاطئي المتوسط بدءاً من غزوات الاسكندر وانتقال الامبراطورية الرومانية الى بيزنطة ثم الفتح الاسلامي الذي شن حرباً وطنية لإخراج الروم والفرس من جزيرة العرب، ومع أنه قد تم تحرير الارض العربية ولكن ظلت ارتدادات هذه الحروب بين العرب والروم والفرس مستمرة بين الحين والآخر.

وفي تطور خطير شهد العالم الحملات الصليبية الرهيبة التي كانت ترفع شعارات الدين وتكرس القطيعة بين الشرق والغرب وهي حروب رهيبة استمرت مائتي عام وتبعتها حروب الاتراك في اوروبا لمدة مائتي عام آخر، وأخيرا الحروب الاستعمارية الغاشمة التي قاومها المسلمون ببسالة وانتهت بخروج المحتل الاوروبي من ارض العرب.

وهذا اللون من الحرب كان يقدم صورة سلبية لفرص اللقاء والتعاون بين الحضارات وهو ما واجهه عدد من الخلفاء المسلمين أبرزهم عمر بن عبد العزيز، الذي أوقف الحرب وعقد سفارات السلام.

٥ تقرير المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، مكتب تنسيق الشؤون الإنسانية، منظمة الهجرة الدولية- الصادر ١٢/٢٠/ ٢٠١٦.

الثانية: وفي مقابل هذه الموجات الحربية الدامية كانت هناك موجات أخرى من التواصل بين العرب واوربا قائمة على المنافع المتبادلة والمصالح المشتركة، ولم تكن فيها مواجهات حربية او عسكرية ونجحت في تحقيق وفاق كبير في التواصل الحضاري بين أوربا والعرب، وهنا نذكر السفارات المتبادلة بين العباسيين والروم وبين الاندلس والامبراطورية الرومانية والبابا، تلك العلاقات التي بلغت اوجها في عهد البابا سلفستر الثاني والخلافة الاموية في الاندلس، وأسست بالفعل لمشروع تبادل حضاري شارك فيه تالياً آلاف المستشرقين والمستغربين، وسافر بالمقابل جيل كامل من النخب العربية الى اوروبا ونصبت جسور كثيرة للتلاقي والتعاون البناء على شاطئي المتوسط.

إن الهجرات التي حققها المسلمون عبر التاريخ من خلال الفتوح وقيام الخلافة الاسلامية لم تكن تستزطن مناطق خالية بل كانت تستوطن المناطق الحضرية وتضيف إليها الثقافات والقدرات الحضارية المتنوعة وكانت تحقق بذلك أصالة الماضي وتوثب المستقبل[٦].

وبعيداً عن الأمثلة التي تخص المسلمين فإن العالم كله يقوم على حضارات متوثبة ناشئة عن التفاعل والتبادل، واليوم تبدو على سبيل المثال الحضارة الامريكية في مكان الريادة عالمياً وهي في الواقع حصاد نشاط المهاجرين الذين التقوا على الأرض الجديدة تحت شعارات المساواة والحرية والعدالة، ورفض التمييز بين المهاجر والمواطن الأصلي، وبالتأكيد لم يكن لهذا العالم أن يتطور لو أن المواطنين الأصليين في أمريكا منعوا المهاجرين من الحصول على الحقوق والامتيازات والمساواة مع الشعوب الأصلية، وبغض النظر عما إذا حدث ذلك سلماً أو حرباً فإن الحقيقة هي أن المجتمعات الحديثة في أمريكا هي مجتمعات مختلطة تكونت من شعوب مهاجرة وتجاوزت عقدة الدم الأزرق إلى فضاء المساواة الإنسانية.

٦ مجدي أحمد حسين، الاسلام والعروبة ومشروعنا الحضاري، ص ١٤ طبع دار مكتبتنا القاهرة ٢٠١١

جهود الإدماج واكتشاف المهاجرين:

وإذا كانت هذه الحقائق التي نرويها عن الهجرة هي شأن التبادل الحضاري عموماً فإن من المناسب أن نشير بوجه أكثر تفصيلاً إلى الهجرات الحديثة التي نشأت عن الحرب بشكل خاص في نزاعات الشرق الأوسط، حيث تمتاز هذه الموجة من الهجرات واللجوء بعدد من الخصائص تجعلها متميزة في الأثر والقدر والطموح. وتعمل الحكومات الأوروبية الحاضنة للاجئين على تحقيق إدماج اجتماعي للمهاجرين بالمجتمع وهو مطلب حيوي، ولكن يجب القول إن الاندماج ليس بعداً واحداً، ومطالبة اللاجئين بالاندماج في المجتمع فيها لون من التعالي والنرجسية، فالإدماج عملية متبادلة، وهؤلاء المهاجرون لا يصلون إلى أرض الهجرة خاوي الوفاض، إنهم لا يحملون فلوساً كثيرة، ولكنهم يحملون قيماً وفضائل ومواهب تنتظر أن تتفجر. وحين نبدأ حملة تنقيب عن مواهب اللاجئ في أرض اللجوءسنجد دوماً نتائج مدهشة، فهؤلاء المهاجرون المعذبون فيهم العلماء والشعراء والفنانون والعاشقون، وستكون حكاياهم في الدياسبورا الرهيبة ملهمة لفلاسفة العالم وأدبائه، وسيكونون جزءا حيوياً من الحراك الحضاري في كل أرض نزلوا فيها.

هؤلاء اللاجئون ليسوا شروداً غجرياً تائها في أرض الشراد كما رسمتهم صور الإعلام الانفعالي في طريق اللجوء الرهيب، إنهم في الواقع موجات تثاقف إنساني وتبادل حضاري وتشارك معرفي، وستجد المجتمعات الجديدة في جوانحهم من الحب والعلم والعشق والموهبة ما يجعل الحياة أغنى وأجمل وأبهى.

اللاجئون ليسوا مشروع كارثة ينتظر أن تنفجر، اللاجئون في وعي خبراء الفيلولوجيا المتحضرين ليسوا عبئا يثقل المجتمع وخطرا محتملاً، بل هم مشروع قيم وحضارة، إنهم مختلفون ومن حق المجتمعات الحاضنة للاجئين أن تطالبهم بالاندماج وفق قيم دول اللجوء، ولكن الاندماج من طرف واحد هو لون من التعالي لا يمكن تبريره أخلاقياً، والمطلوب هو

الاندماج المتبادل، فاللاجئون ليسوا متسولين تائهين، إنهم أصحاب قيم ومثل وأخلاق وتجارب، لقد نزحوا لأنهم لا يريدون الحرب ولا يرغبون ان يشاركوا بها وهذا وحده عنصر إيجابي بالغ الأهمية، لقد أفرزتهم الحرب عشاق سلام، ومن الواقعي أن يكون في جوانحهم ما يضيف للحضارة ألواناً جديدة من الدفء والحيوية والأمل.

المهاجر في الغالب ليس مشروع متواكل ينتظر المساعدة الاجتماعية، إنه طاقة متوثبة وهو ينتظر الظروف المناسبة ليقوم بممارسة دوره الذي مارسه في بلاده، وفرضت عليه المظالم والحرب أن يتوقف ويغادر مكرهاً غير مختار، ولا شك ان هذا التوقيف القسري لمشروعه الطموح سيخلق فيه إرادة العطاء والبناء لدى أول فرصة تلوح لإثبات الذات.

خصائص الهجرات الأخيرة من الشام والعراق إلى أوروبا:

نستطيع القول إن اللاجئين الذين أفرزنهم الصراعات الجديدة في الشرق الأوسط ثروة وليسوا أزمة، إنهم مسكونون حتى الغاية برغائب السلم، لقد جاؤوا من عصف الحرب وأهوالها وحولتهم هذه الحرب المجنونة إلى عشاق سلام يدركون تماما بؤس العنف ومآتمه وأحزانه ولطمياته، ويتوقون إلى عوالم هادئة ليس فيها قمع ولا قصف ولا ملاجئ ولا رصاص.

اللاجئون ليسوا بالضرورة متسولين بائسين، يطمحون إلى معونة السوشل، إن كثيراً منهم لا يعاني الفقر أصلاً، ولكنهم يعانون الظلم والقهر، ويسكنهم حب الحياة والأمل، وهم ينتظرون فرصتهم ليدهشوا العالم، بعد أن حرمهم الاستبداد من حقهم في الإبداع والتنمية والتفوق.

وقناعتي ان الموجة الأخيرة التي نشهدها من لاجئي العرب وبشكل خاص لاجئي سوريا والعراق مرشحة ان تكون تطورا ايجابيا حقيقياً في حقل العلاقات بين الشرق والغرب وتحويل منطقة الترانس ايريا الى منطقة تفاعل ثقافي وعلمي وحضاري فريد.

ويمكن الاشارة هنا الى هذه الخصائص الاساسية في طبيعة اللجوء الجديد الى اوروبا:

١- انطلقت الهجرة الى اوروبا في اعقاب الحروب الاهلية التي عصفت بلبنان وسوريا والعراق، وهي حروب داخلية محضة ولم تكن تحمل طابع تأثير او كراهية تجاه الأوربي، بخلاف الحروب الاستعمارية، وهنا ينظر المسلمون إلى أوروبا على أنها دار هجرة وليست جيوش استعمار.

٢- إن مواقف الدول الاوربية عموما من مسالة اللاجئين جيدة ومرضية ولا تقارن انسانيا بالموقف المخجل الذي مارسته دول عربية قريبة، وبعض الدول العربية منعت السوريين من الدخول الى اراضيها منعاً قاطعاً، وحتى تلك الدول التي استقبلت اللاجئين مشكورة وهي لبنان والاردن وتركيا فانها لم تستطع توفير الخدمات الاساسية للاجئين من طبابة وسكن وتعليم وأمن، كما هو الحال في اوروبا التي تنص قوانينها على كفالة اللاجئ وحمايته وتامين حياته وسكنه.

٣- ان الحريات العامة التي يوفرها المجتمع الاوروبي لابنائه وللمقيمين على ارضه جيدة ومقبولة، لا تقارن ايضا بالحقوق المقيدة والمنتهكة في البلاد العربية، وحتى في الحريات الدينية الأساسية فإن ما توفره المجتمعات الأوروبية جيد ومناسب.

ويدفعني هذا الاستنتاج إلى التأكيد على أن بوسعنا أن ننظر إلى المهاجرين على أنهم ثروة وليسوا أزمة، وأنهم حدث إيجابي كبير وليسوا كارثة على المنطقة، وأن مسؤوليتنا عظيمة في تقديم الدعم النفسي والمعنوي لهذه الجحافل الهاربة من الموت والقهر لتقدم دورا ايجابيا في الادماج الاحتماعي وتفاعل الحضارات.

في أعقاب الحرب الأمريكية في العراق ٢٠٠٣ نزح إلى سوريا نحو مليوني نازح عراقي واقاموا في ظروف

صعبة ضمن بيوت السوريين ضيوفا او مستاجرين، وانتشر هؤلاء الاخوة العراقيون في الاحياء والبلدات والقرى السورية بشكل كبير، ونشأت عدة مشكلات اقتصادية واجتماعية بسبب هذا التطورالديموغرافي غير المتوقع.

ولكن قناعتي كانت أن هؤلاء اللاجئين ثروة حقيقية في المجتمع، وأن علينا أن نستفيد من وجودهم بيننا، وأسست بالتعاون مع بعض زملائي في البرلمان السوري لجنة خاصة للتنقيب عن علماء العراق وكنا نبحث في أحياء اللجوء وتجمعات العراقيين عن المواهب العراقية التائهة في جحيم الحرب، وتعرفنا بالفعل على المئات من المواهب العراقية النادرة التي كانت تعيش ظروف اللجوء وشراده وعذاباته.

لقد نجح العراقيون على سبيل المثال في تأسيس عدة جامعات في سوريا خلال محنتهم، ووجد الاكاديميون العراقيون الفرصة لعطاء أفضل بعيدا عن ظروف الحرب المشتعلة في بلادهم.

إن اللاجئين الهاربين من الحرب إلى أوروبا ليسوا مجرد ارقام، إنهم كتلة هائلة من المواهب والقدرات العلمية المميزة، وقد أضفت عليهم ظروف اللجوء والشراد إرادة العزيمة والاصرار والصدق، والمهاجر يتنظرالفرص الممكنة ليقدم من خلالها موهبته وقدراته المكنونة.

مخاطر الهجرة الجديدة وتحدياتها:

ومع كل ما أوردناه فإن علينا أن ننتبه إلى عدد من المخاطر الحقيقية في إطار الترانس ايريا التي يتفاعل فيها وجود اللاجئين:

١. تصاعد الفكر التكفيري والارهابي الذي ينشا عادة في الظلم والقهر، وعلينا أن نبقى حذرين فالمظالم المتوحشة التي تشهدها سوريا والعراق لا بد أن تترك أعنف الآثار على من يصيبهم أو يصيب أحبتهم نارها وشرارها من المنكوبين داخل حجيم الحرب، ويتم مواجهة هذا اللون من التفكير بدعم التيارات المتسامحة المؤمنة بالاخاء الانساني وهي تيارات عريضة في المجتمعات الاسلامية، وتوفير برامج ومنابر لهم ليكونوا دون سواهم صوت المسلمين في دار الغربة وأن لا يترك للمتطرفين أن يتصدروا مشهد الخطاب الديني والاجتماعي مستفيدين من الحريات والمساواة التي توفرها القوانين الغربية عموماً.

٢. تسلل العاملين لاجندات خاصة داخل مجتمعات اللجوء سواء لحساب دول او جماعات او تيارات، وهذا التسلل سيسيء بكل تأكيد لتجمعات المهاجرين التي تبحث عن حياة أفضل للجيل الآتي من الأبناء والأحفاد، والتي يفترض أن تكون مجتمعات تؤمن بالمطلق بسيادة القانون وحقوق الإنسان.

٣. تفاقم النظرة السلبية في حياة اللاجئين والاكتفاء ببرامج المعونة الاجتماعية وموت الطموح لدى الشباب الذين يفترض ان ينخرطوا بفاعلية ونشاط في برامج التنمية الوطنية والاجتماعية

٤. انتشار الجريمة والخروج على القانون، حيث تحتضن مجتمعات اللجوء كثيراً من الشباب الذين ينقطعون عن جذورهم، وتقصر المعونات الاجتماعية عن تطلعاتهم فيلتحقون بالعصابات الخارجة على القانون، ويمارسون الجريمة، ومن الواضح أن معدلات الجرائم ترتفع عادة في المجتمعات المهاجرة[٧].

٥. وتفرض هذه التحديات جهوداً كبيرة لمعالجة آثارها والتعامل معها بحكمة وبصيرة، وتأهيل المجتمعات المسلمة المهاجرة للاندماج الايجابي في المحتمعات الغربية، وبالمقابل لتأهيل المجتمع الأوروبي أيضا لبناء نظرة إيجابية إلى القيم الإسلامية، والتعرف على المشترك بين الاسلام والمسيحية، وتمييز ما هو قيم اسلامية صحيحة وما هو سلوكيات تمارسها بعض المحتمعات والافراد في البلاد الاسلامية.

٧ العولمة فرص وتحديات، ص ٥٢ فصل بعنوان: التاثير الثقافي والتكنولوجي للعولمة، كراسات ثقافية تصدر عن المركز المصري لحقوق المرأة.

وأمام هذه التحديات الخطرة لظاهرة اللجوء والهجرة والاحتمالات المتزايدة التي تفرز مخاطر التطرف والإرهاب فإن من مسؤولية المجتمعات الحاضنة للهجرة أن تبقى حذرة على الدوام وأن تطلق باستمرار برامج التأهيل والتوعية والمراقبة بين المهاجرين. وبدون أي مبالغة فإن أفكار التطرف أصبحت لا تحظى بشعبية بين المهاجرين وإن كنا لا ننكر وجودها، ولكنها تنحسر إلى مستويات ضيقة وأصبحت المجتمعات محصنة ومستعدة لمواجهتها ولو دون برنامج حكومي، وفي الأشهر الأخيرة قام المهاجرون أنفسهم في ألمانيا وهولندا والسويد بمساعدة البلاد الحاضنة لهم بتفكيك عدد من شبكات الإرهاب والتطرف، وأصبحت الأفكار التي يدرسها المتطرفون غير شعبية على المستوى المجتمعي.

إن قسمة العالم الى فسطاطين دار اسلام ودار كفر، لم تعد ثنائية مقنعة، والمهاجر الإنساني صار يخجل من طروحات كهذه، ولو قراها في كتب الأجداد، ويتواصى اللاجئون اليوم بتعرية هذا اللون من الفتاوى والرد عليه، ولم تعد تلك الصيحات الإقصائية التي رددها تكفيريون معقدون في العقود الماضية مقبولة لدى المهاجرين، ولم يعد مقبولاً خطاب التكفير الذي يدعو إلى قتال الغرب الكافر حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

أصبحت رواية أقوال وفتاوى كهذه مثاراً للتندر أكثر مما هي رواية للفقه والفتوى، ولم يعد المهاجر المسلم يحتاج إلى إقناعه بان الغرب الاستعماري قد انتهى وان القوانين الأوروبية عموماً قد أنجزت إصلاحها الجوهري في حقوق الإنسان، وأنها باتت مستعدة أكثر من أي وقت مضى للتعرف عن قرب على قيم الإسلام وحضارته على أساس التكامل والتواصل وليس على أساس التبعية والاحتواء.

ومن الضروري أن نتحفظ بشدة عند رواية هذا التفاؤل والأمل، فهناك احتقان مذهبي وطائفي وديني يتصاعد في الشرق الأوسط وفق كل المعايير، وقد كان سبباً في اندلاع سلسلة حروب طاحنة، ومن المؤكد ان عدداً غير قليل من المهاجرين الى اوربا مهيؤون للانخراط في برامج عنيفة تقوم على أساس تأويل النص الديني تأويلاً عنيفاً.

ولكن ما يجب التأكيد عليه هو أن صعود التطرف والاحتقان ظاهرة يمكن مواجهتها بوسائل ثقافية وأمنية متعددة، وأن الظاهرة مرتبطة بحجم المظالم التي كابدتها هذه الشعوب الغاضبة، وأن انتعاش التنمية والسلم وازدهار الاقتصاد التنموي في البلاد الإسلامية بوجه خاص كفيل بوقف هذاه المشاعر وبناء ثقافة تعاون وتكامل وتواصل مع الشعوب.

وربما كان أكبر عامل في قيام الحركات المتطرفة أو ما بتنا نسميه (الإسلام الغاضب) هو الظلم والمآسي المستمرة التي عاناها هؤلاء ومجتمعاتهم ووقوف العالم عاجزاً عن كف الظلم ووقف المآسي الإنسانية، وأن النتائج ستختلف تماماً حين تبدأ الشعوب الإسلامية حملات تنمية وديمقراطية ومساواة.

لقد بات من المؤكد أن هذه التحولات التاريخية تضع أوروبا والعرب على ابواب طريق حرير جديدة يتم فيها تفاعل الحضارات والثقافات بروح إيجابية بعيدة عن فترات الاصطفاف العدائي المقيت الذي طبع العلاقة التاريخية بين شاطئي المتوسط في فترات متعاقبة.

توصيات الدراسة:

لقد خلصت الدراسة إلى تقرير أن واقع الهجرة المتنامي من المسلمين في الغرب يمكن أن يكون ظاهرة تفاعل ثقافي كما يمكن أن يكون صداماً وصراعاً، ولكن الموقف الإسلامي ينبغي أن يتوجه إلى اندماج هذه الشعوب ثقافياً ومعرفياً. ويتأسس هذا الفهم الاجتماعي من الناحية الدينية على قاعدة الفطرة في العقيدة الإسلامية، ذلك ان كل مسلم يعتقد بيقين أن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، توجب الايمان بان الناس جميعاً صنعوا بيمين الله وفيهم روح الله، وأن المشترك بين الإنسان والانسان كثير، وهذه هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهذا هو اعتقاد المسلمين الديني الذي لا تردد فيه وفق نص القرآن الكريم: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} (سورة الإسراء: ٧٠). وفي النصوص المؤسسة في الإسلام فإن الدعوة إلى حوارالحضارات والإخاء الإنساني لها شواهدها الكثيرة في القرآن الكريم والسنة النبوية وهما المصدران الرئيسان في فهم كل مسلم، ويحظى كل منهما باحترام المسلمين في العالم كافة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}. (سورة الحجرات ١٣)

وقد خلصت الدراسة إلى التوصيات التالية:

١. الدعوة إلى استلهام التجربة النبوية الرائدة في مجتمع الأنصار والمهاجرين، وكذلك الموقف الإيجابي الإسلامي من الهجرة والنصرة لبناء تكامل مجتمعي تربوي واقتصادي وحضاري.
٢. وجوب توفير البرامج الحقيقية عبر الجامعات المتخصصة لدراسات الهجرة بوصفها ظاهرة تواصل حضاري، وطرح الجوانب السلبية لمعالجتها.
٣. العمل على إشراك أكبر عدد ممكن من المهاجرين في خطط الادماج والتنمية في البلاد الجاذبة، ومنحهم دوراً ريادياً في قطار التنمية.
٤. تنظيم برامج الادماج المتبادل على أساس احترام الثقافة العميقة للطرفين، والإفادة من الخبرات العلمية والعملية للمهاجرين، والاستفادة من طبيعة الطاقة الحيوية التي يتميز بها المهاجر بدافع إثبات الذات ومواجهة التحدي.
٥. طرح برامج أكاديمية ومدرسية واجتماعية للتعريف بالاسلام في المجتمع الاوروبي وتصحيح النظرة السلبية عن الاسلام والمسلمين، وبناء موقف ايجابي يميز بين قيم الاسلام في القرآن والسنة والتراث الاسلامي، وبين ممارسات الاستبداد والتوحش في البلاد الاسلامية.
٦. التواصل مع المؤسسات الإسلامية العريقة في المجتمعات الإسلامية للإسهام في مواجهة ظواهر التطرف الناشئة عن التهميش والإقصاء والفهم المغلوط للقيم الإسلامية.

الهجرة في الأديان:
من الممارسة التاريخيّة إلى التوظيف الرمزيّ

الدكتور صلاح العامري

لئن كان المعنى اللغوي لمصطلح «هجرة» يعني التحوّل من أرض إلى أخرى[١]، فإنّ دلالته الاصطلاحية تكاد تختصّ بالمجال الدّيني. ويرتبط هذا التخصّص بمركزيّة هذه الحركة في تاريخ الأديان عامّة. ففي البداية كان التحوّل في المكان؛ هربًا من التضييق الذي يفرضه المناوئون للديانة الجديدة. ثم أصبحت الحركة تكرارًا لفعل مقدّس يسترجعه المؤمنون دوريًا. وتصبح الهجرة عملا ماديًا يغادر بواسطته الإنسان الدّيني(homo religious) المكان غير المقدّس إلى المكان الذي أُريد له أن يكون مسرحًا لظهور المقدّس وتجلّيه. ويرى مرسيا إلياد M. Eliade أنّ المكان عند الإنسان الديني غير متجانس، وفيه انقطاعات وفجوات[٢]. ولا يجدّد هذا الإنسان وجوده إلّا عند اقتناص الفترات المميّزة إلهيا من منظوره، وتوظيفها من أجل تحقيق خلاص منشود.

وباعتبارنا نسعى إلى مقاربة المفهوم في السياق الكتابي[٣]، لابد من العودة إلى حلقته الأولى وهي اليهوديّة. وقد

١ عبد الله عيسى الغدير، القاموس الجامع للمصطلحات الفقهية، دار المحجّة البيضاء- دار الرسول الأكرم، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ط١، ص٢٦٠.

٢ مرسيا الياد، المقدّس والدنيوي، رمزيّة الطقس والأسطورة، العربي للنشر والطباعة والتوزيع، ترجمة نهاد خياطة الطبعة الأولى،١٩٨٧م، ص٢٣٠.

٣ المقصود بالديانات الكتابية اليهودية والمسيحية والإسلام.

خاطب الرّب موسى قائلا: «لاَ تَقْتَرِبْ إِلَى هَاهُنَا. اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ لأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ»[٤]. وخاطب مُوسَى قومه: {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ}[٥]. عبّر خطاب الربّ إلى نبيّه عن خصوصية المكان التي تستوجب طقوسا محدّدة تميّزه عن سائر الأمكنة. ونبّه خطاب موسى لليهودَ إلى أن قيمة أرض الميعاد ومكانتها في العهد التوراتي تختلفان عن مكانة أرض مصر التي استعبدوا فيها.

وكانت فاتحة تقليد الهجرة بالمعنى الدّيني مع أبي الأنبياء إبراهيم. إذ غادر أُور الكلدانيّة ببلاد الرافدين إلى أرض كنعان. وهي الفضاء الذي يتحقّق فيها الوعد التوراتي بلمّ الشّتات اليهودي. واستأنف موسى هذه الحركة المقدسة فقاد بني إسرائيل من مصر إلى الأرض التي تفيض لبنا وعسلا بعد أن أخرجوا منها[٦]. وهاجر يسوع المسيح من الناصرة إلى أورشليم إذ لا يليق أن يهلك نبيّ خارج أورشليم التي شهدت تجلّيه وقيامته. وعبّر يسوع عن هذا المعنى فقال: «بَلْ يَنْبَغِي أَنْ أَسِيرَ الْيَوْمَ وَغَداً وَمَا يَلِيهِ لأَنَّهُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَهْلِكَ نَبِيٌّ خَارِجاً عَنْ أُورُشَلِيمَ»[٧]. وكانت هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة، ثم تلتها الهجرة الأهم في تاريخهم وتاريخ ديانتهم حين هاجر النبي محمد صلى الله عليه وسلم من مكّة إلى يثرب. وقد تمّت هذه الرحلات المقدّسة لإنجاز أمر إلهي سواء بالكشف والتأسيس أو بالممارسة والتطبيق.

ويصنّف الإنسان الدّيني الأمكنة إلى مقدّسة قويّة ومهمّة، وأخرى غير مقدسة، لا قيمة لها ولا دور في نظام وجوده. ويترجم اللاّتجانس المكاني عند الإنسان الدّيني اختبار التّضاد بين المكان القدسي الذي هو وحده الحقيقي الموجود حقّا، وبين سائر الأمكنة الأخرى التي تشكّل الامتداد غير المتشكّل الذي يحيط به. ويسمح الكشف عن المكان المقدّس بالحصول على نقطة ثابتة توجّه الإنسان وتجعله يؤسّس العـالم ويعيش حياة حقيقيّة من خلال اعتمادها محورا للعالم أوّلا ثمّ لحياته الجمعيّة ثانيا. وهذا ما يدفعه إلى تقديسها وتحيين قداستها دوريا[٨].

وتتطلّب الهجرة الدينيّة مهاجرا يُصطفى إلهيا لإنجاز ما أنيط بعهدته من أعمال. ويحتاج المهاجر بدوره إلى هجرة داخليّة في المستويين النفسي والفكري. وبدأت الحركة المقدّسة الشاملة في الذاكرة الكتابيّة بإبراهيم القرآن وأبرام الكتاب المقدّس. ويذكر القصص الدّيني أنّ أبرام كان رجلا عاديّا يعيش في أور الكلدانية، وكان ينشط في التجارة. وحدث التحوّل حين اختاره «الإله» وكلّفه وعقد معه وعد الآباء، وملّكه بموجب هذا العقد الأرض التي تفيض لبنا وعسلا. ولا تختلف عن جنّة الخلد الأولى التي ضيّعها آدم جدّ البشر[٩]. وجعل في ذرّيته الملك والنبوّة. وأمره الرب قائلا: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ وَتَكُونَ بَرَكَةً. وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ وَلاَعِنَكَ أَلْعَنُهُ. وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ»[١٠]. ويُعدّ هذا الخبر التوراتي صفقة لا يمكن لتاجر مثل أبرام أن يفرّط فيها وهو سليل أمّة اشتهرت بالتجارة والربح. فكان عليه أن يستعدّ لهذا الحدث نفسيا لأنّ الرحلة طويلة والسفر شاقّ، والدعوة إلى «توحيد الله» في مجال يُعبد فيه

٤ خروج: ٣(٥).
٥ المائدة: ٥ (٢١).
٦ جاء في سفر الخروج: «فَالآنَ هَلُمَّ فَأُرْسِلُكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَتُخْرِجُ شَعْبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ. فَقَالَ مُوسَى لِلَّهِ: مَنْ أَنَا حَتَّى أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَحَتَّى أُخْرِجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ؟ فَقَالَ: إِنِّي أَكُونُ مَعَكَ وَهَذِهِ تَكُونُ لَكَ الْعَلاَمَةُ أَنِّي أَرْسَلْتُكَ: حِينَمَا تُخْرِجُ الشَّعْبَ مِنْ مِصْرَ تَعْبُدُونَ اللهَ عَلَى هَذَا الْجَبَلِ». ٣ (١٠- ١٢).
٧ لوقا: ١٣ (٣٣).
٨ مرسيا الياد، المقدّس والدنيوي، رمزيّة الطقس والأسطورة، ص٣٣.
9 Max Weber, Le judaïsme antique, Paris, Plon/ Pocket, Collection Agora, 1998, p296.
١٠ تكوين: ١٢ (١- ٣).

كلّ شيء أمر شاقّ. وستمثّل هذه الحادثة نواة تقليد مقدّس يمارسه الأنبياء الأبناء محافظة على سنّة الأب الأوّل في الذاكرة الكتابيّة.

١- الهجرة الدينيّة في التوراة:

يماثل مصطلح «هجرة» في التقليد التوراتي مصطلح «خروج» «exode». ويعود معناه إلى الأصل اليوناني «exodos»[١١]. ومن معانيه «طريق الخروج» والتوجّه إلى المكان المقدّس الذي وعد به يهوه بني إسرائيل. ومثلما أشرنا سابقا فإنّ الخروج الأوّل في الدّيانات الكتابيّة أنجزه أبرام حين رحل مع أبيه تارح من مسقط رأسه إلى مدينة أور الكلدانيّة في بلاد الرافدين، ومنها إلى مدينة حرّان. ويُرجّح أن تكون هجرته الدينيّة حدثت عند أواخر الألف الثّاني قبل الميلاد، أي حوالي سنة ١٨٠٠ق.م[١٢]. ويستند تحديد مسار الرحلة الخلاصيّة إلى تسلسل أحداث التّوراة. وهذا يعني أنّ ما سُرد حول أبرام وأبنائه هو جزء من التّاريخ الدّيني وليس من التّاريخ العلمي الذي تشكّك بعض أطروحاته في هذه الرحلة وتنفيها[١٣]. وجاء في سفر التكوين: «وَأَخَذَ تَارَحُ أَبْرَامَ ابْنَهُ وَلُوطاً بْنَ هَارَانَ ابْنَ ابْنِهِ وَسَارَايَ كَنَّتَهُ امْرَأَةَ أَبْرَامَ ابْنِهِ فَخَرَجُوا مَعاً مِنْ أُورِ الْكِلْدَانِيِّينَ لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتَوا إِلَى حَارَانَ وَأَقَامُوا هُنَاكَ. وَكَانَتْ أَيَّامُ تَارَحَ مِائَتَيْنِ وَخَمْسَ سِنِينَ. وَمَاتَ تَارَحُ فِي حَارَانَ»[١٤].

وكانت حاران ممرّا إلى المكان الدّيني المقصود إلهيا. وهو الفضاء الذي قُدّر أن يتحقّق فيه الوعد الإلهي.

١١ معجم اللاهوت الكتابي، دار المشرق بيروت، د.ت، مادة [خروج].

١٢ فراس السواح، لغز عشتار، ص٣٠٨.

١٣ أكّد كمال صليبي في بحثه الأركيولوجي اللغوي أنّ جميع الأماكن المذكورة في العهد القديم تقع بين الحجاز واليمن ولا علاقة لها بما يعتقده اليهود ويروّجون له. خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، بيروت، دار الساقي، ١٩٩٤م، ط٢، ص٩.

١٤ تكوين: ١١ (٣١، ٣٢).

وتوجّه أبرام إلى بلاد كنعان. تمثّل هذه الرقعة من الأرض مركز العالم بعبارة مرسيا الياد[١٥]. ويفيض هذا المركز لبنا وعسلا ويحتضن حكما ومملكة في وعد الآباء. ويكون مستقرّا لبني إبراهيم من بعده. جاء في سفر التكوين «وَكَانَ أَبْرَامُ ابْنَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً لَمَّا خَرَجَ مِنْ حَارَانَ. فَأَخَذَ أَبْرَامُ سَارَايَ امْرَأَتَهُ وَلُوطاً ابْنَ أَخِيهِ وَكُلَّ مُقْتَنَيَاتِهِمَا الَّتِي اقْتَنَيَا وَالنُّفُوسَ الَّتِي امْتَلَكَا فِي حَارَانَ. وَخَرَجُوا لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ»[١٦]. ولم يتخلّ يهوه عن شعبه مثلما يفعل زعماء القبائل فاستقبلهم على أرض الميعاد، وجدّد معهم الوعد. ويعبّر اليهود عن التزامهم بهذا العقد بمجموعة من الطقوس والشعائر. ويؤكّدون ذلك باستعادتها دوريّا. جاء في سفر التكوين «وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ: لِنَسْلِكَ أُعْطِي هَذِهِ الأَرْضَ. فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ. ثُمَّ نَقَلَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْجَبَلِ شَرْقِيَّ بَيْتِ إِيلَ وَنَصَبَ خَيْمَتَهُ. وَلَهُ بَيْتُ إِيلَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَعَايَ مِنَ الْمَشْرِقِ. فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ وَدَعَا بِاسْمِ الرَّبِّ»[١٧]. واستأنف موسى حركة الهجرة الإبراهيميّة بعد أن تلقّى الأمر الإلهي وظهر له الربّ من خلال شعلة نار على جبل حوريب. وخاطبه قائلا: «أَنَا إِلَهُ أَبِيكَ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ. فَغَطَّى مُوسَى وَجْهَهُ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى اللهِ. فَقَالَ الرَّبُّ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَذَلَّةَ شَعْبِي الَّذِي فِي مِصْرَ وَسَمِعْتُ صُرَاخَهُمْ مِنْ أَجْلِ مُسَخِّرِيهِمْ. إِنِّي عَلِمْتُ أَوْجَاعَهُمْ فَنَزَلْتُ لأُنْقِذَهُمْ مِنْ أَيْدِي الْمِصْرِيِّينَ وَأُصْعِدَهُمْ مِنْ تِلْكَ الأَرْضِ إِلَى أَرْضٍ جَيِّدَةٍ وَوَاسِعَةٍ إِلَى أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَناً وَعَسَلاً إِلَى مَكَانِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِتِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ»[١٨]. جدّد يهوه الوعد الأوّل وأمر موسى بالإشراف على تحقيقه بإخرج بني

١٥ مرسيا الياد، المقدّس والدنيوي، رمزيّة الطقس والأسطورة، ص٣٧.

١٦ تكوين: ١٢ (٤، ٥)

١٧ تكوين: ١٢ (٧، ٨).

١٨ خروج: ٣ (٦- ٨).

إسرائيل من مصر أرض العبوديّة المدنّسة والتوجه بهم إلى أرض الميعاد المقدّسة لتحقيق الخلاص النهائي. وعدّ وحيد السعفي هذا الظهور تعبيرا عن انتقال الإنسان إلى عالم الثقافة بانتقال ناظريه إلى أعلى بحثا عن الربّ بعد أن يقتفي أثره على وجه الأرض[١٩].

ومَثّل تجديد العهد على جبل حوريب استئنافا للإرادة الإلهية، وأصبحت هجرة بني إسرائيل رمز الولادة النهائيّة لشعب الله. وهي «الولادة في الدم» (حزقيال، ١٦: ٤-٧). ونظرا إلى أهمية حدث الخروج من أرض العبوديّة إلى أرض الميعاد، صارت الهجرة المقدّسة ممارسة رمزية في الذاكرة الجمعيّة اليهوديّة. وأصبحت تستعاد في المناسبات الجمعيّة باعتبارها خلاصا حقيقيا ونهائيا يعقب مرحلة من الشتات والمعاناة. انسجمت الإرادات وتحقّق الخلاص من عبوديّة المصريين واضطهادهم، ومن الشتات الذي ضاعف مرارته الأسر البابلي. وتحوّلت الهجرة من مصر إلى بلاد كنعان إلى حدث مهم في المتخيّل الجمعي اليهودي وإلى زمن مقدّس يخلّد ولادة إسرائيل (تثنية،٣٢: ٥-٨). وصار أبرام التوراتي أبا «ملؤه المحبّة والعطف» (هوشع، ١١: ١). وتطودت علاقة بني إسرائيل بربّهم مع تقدّم التاريخ. يقول وحيد السعفي: «قد طرأ على صورة الربّ تغيّر واضح. فالربّ قبل الخروج كان نارا تشتعل عند رأس الجبل كأنّه بركان من براكين مدين المشهورة [...] أمّا الربّ بعد الخروج فبحر عميق وماء متلاطم الأمواج»[٢٠]. وقد صاحب هذا الخلاص النفسي والجسدي تطوّرا فكريا تحوّلت من خلاله صورة يهوه من إله خاص بشعب مختار إلى إله كوني له سلطة مطلقة على كلّ البشر.

تعالى زمن الهجرة من أرض مصر وأصبح في الذاكرة الجمعيّة زمنا بدئيّا يستعيده اليهود دوريّا ويعيشونه بهالة من القداسة. واصطلح على هذا الاحتفال عيد الفصح في التقليد الديني اليهودي. وأصبح الفصح مناسبة قومية وروحيّة تشهدها أورشليم، وتذبح فيها خراف الفداء. وكان هذا الزمن المقدّس مناسبة لتذكّر عمليّة الخلاص الإلهي من العبوديّة المصريّة، وتعبيرا عن الاعتراف بالنعم التي أسداها الله إلى شعبه. ويزداد الوعي الجمعي بأهميّة هذه الممارسة الطقسيّة مع كلّ أزمة جديدة تواجه الوجود اليهودي. وصارت عملية الهجرة الخلاصيّة علامة دالّة على المحبّة الإلهية في المتخيّل الديني اليهودي وعربون خلاص لشعب الله المختار.

لكنّ إسرائيل الذي جحد محبّة الله له ولشعبه، وبرهن عليها بإخراجهم من العبوديّة، تسبّب في تراجع يهوه عن رعاية اليهود فكان السبي البابلي وكانت العبوديّة من جديد. ولم تكن هذه المرّة الوحيدة التي يستعيد فيها يهوه بصورته الأولى فيغضب ويتراجع عمّا أقره سابقا. وأوردت السرديات التوراتيّة هذا المعنى على لسانه. ومنه قوله: «ندمت على أنّي جعلت شاول ملكا» (صموئيل،١: ١٥). ولئن أصرّ المتخيّل الجمعي اليهودي على كونيّة يهوه وخصوصياته فوق الطبيعيّة، فإنّه رسم له صورة بشريّة لا تختلف كثيرا عن صورة كبار الأحبار. وتجدّد الذاكرة الجمعيّة اليهوديّة هذه الحادثة مع كل نكبة جديدة. وفي كلّ مرّة تتدخّل سرديات المتخيّل لتجعل يهوه يعبر عن محبته المتجدّدة لشعبه. ويدعوهم إلى الهجرة من أجل الخلاص، فيرسم لهم طريقا في البرية (أشعيا، ٣٥: ٨-١٠). وقد عبّر يهوه عن هذه المحبّة بمجموعة من المعجزات مثل تفجير عيون المياه في مكان قفر وجاف في موضع يسمى الحصومة. وبفضل إرادته وعطفه على شعبه تحولت البرية إلى بستان وانشق نهر الفرات. ويذكّر هذا الفعل اليهود بحادثة شق البحر الأحمر عند عبور الخروج الأوّل (أشعيا، ١١: ١٢). ويعتبر التراث اليهودي حادثة البريّة خلاصا جديدا ستتخلله أزهى فترات التاريخ اليهودي، وخاصة الفترة التي عرفت بزمن الملوك مع سليمان وابنه داود.

١٩ وحيد السعفي، العجيب والغريب في تفسير القرآن، تونس، تبر الزمان، ٢٠٠١م، ص٥٧١.

٢٠ وحيد السعفي، العجيب والغريب في تفسير القرآن، ص٥٨٩.

٢- الهجرة الدينيّة في الأناجيل:

تتطلّب دراسة المفاهيم الإنجيليّة ضرورة الربط مع المفاهيم التوراتيّة والبناء عليها في عمليّة التمثّل. ويفرض هذا الافتراض المنهجي ربط فهم الهجرة الدينيّة في التقليد الديني المسيحي بالمفهوم التوراتي. وإذا انطلقنا من سرديات الأناجيل نجد أنّ هجرة يسوع المسيح الأولى تمّت من الناصرة إلى أورشليم في سنّ الثانية عشرة من عمره[٢١]. وكانت الهجرة الثانية نحو المعمودية وهي الأهم في حياة المكلّف إلهيا بإحلال الملكوت على الأرض. قال الحواري مرقس: «وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ جَاءَ يَسُوعُ مِنْ نَاصِرَةِ الْجَلِيلِ وَاعْتَمَدَ مِنْ يُوحَنَّا فِي الأُرْدُنِّ. وَلِلْوَقْتِ وَهُوَ صَاعِدٌ مِنَ الْمَاءِ رَأَى السَّمَاوَاتِ قَدِ انْشَقَّتْ وَالرُّوحَ مِثْلَ حَمَامَةٍ نَازِلاً عَلَيْهِ. وَكَانَ صَوْتٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ: أَنْتَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ!»[٢٢].

وبعد أن هاجر يسوع نفسيّا وفكريّا وروحيّا من خلال المعموديّة «أَخْرَجَهُ الرُّوحُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ. وَكَانَ هُنَاكَ فِي الْبَرِّيَّةِ أَرْبَعِينَ يَوْماً يُجَرَّبُ مِنَ الشَّيْطَانِ. وَكَانَ مَعَ الْوُحُوشِ. وَصَارَتِ الْمَلاَئِكَةُ تَخْدِمُهُ»[٢٣] ويتمثل هذا الرقم رمزا مقدّسا في الذاكرة الجمعية اليهوديّة والكتابيّة عامّة. فالأربعون يوما التي قضّاها يسوع في الصحراء هي الفترة نفسها التي قضّاها موسى في المكان ذاته منتظرا ألواح الوصايا. جاء في سفر الخروج: «وَدَخَلَ مُوسَى فِي وَسَطِ السَّحَابِ وَصَعِدَ إِلَى الْجَبَلِ. وَكَانَ مُوسَى فِي الْجَبَلِ أَرْبَعِينَ نَهَاراً وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً»[٢٤]. وتمثّل العزلة قبل إعلان الرسالة تقليدا نبويا كتابيّا دأب عليه المصطفون إلهيا. وتصوّر سرديات المتخيّل الإسلامي في هذا السياق العزلة التي عاشها محمّد صلى الله عليه وسلم قبل تلقّي الوحي. ويذكر المجلسي (ت ١١١١هـ/١٦٩٩م) في بحار الأنوار أنّ عزلته امتدّت ثلاث عشرة سنة[٢٥]. ويمثّل الرقم أربعون (٤٠)[٢٦] عدد الأيّام التي قضّاها موسى ويسوع في الصحراء لتقبّل الأمر الإلهي. وهو عدد السنوات التي مرّت من عمر محمّد حتّى يشاهد جبريل على كرسيّ بين السماء والأرض أثناء عودته من غار حراء[٢٧]. يقول وحيد السعفي في هذا المعنى متحدّثا عن نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم: «كثُرت غياباته في الغار، وكثُر صمته وازدادت عزلته. ها هو يقترب من من الأربعين ذلك العدد الشبح الذي يخيّم بظلّه على كلّ ثقافة فتنتظره بفارغ الصبر، وتنتظر منه أن يغيّر حياتها»[٢٨].

ولا يمثّل الحديث على الرقم أربعين لازمة خاصّة بالدّيانات الكتابيّة باعتباره يرمز إلى مرحلة النضج التي يجب أن يبلغها المكلّف إلهيا قبل عمليّة تلقّي الوحي في المتخيّل الدّيني الإنساني. وقد أكّدت البحوث المهتمّة بديانات شعوب شرق آسيا أنّ بوذا عاش عزلة قبل إعلان مبادئ ديانته. ونقل أحمد شلبي عن ادوارد طوماس Edward thomas المختص في تاريخ البوذيّة قوله: «استقرّ رأي سذهاتا (بوذا) أن يدع صخب الحياة وأن يبدأ حياة الزهد والفكر لعلّه يصل إلى سرّ معرفة الكون. وفي إحدى اللّيالي حيث كان القصر يموج بالبشر والمسرّات بسبب ولادة ابنه، قال ساذهاتا: وهذه رابطة أخرى علينا أن نفصمها، وحزم ساذهاتا أمره على أن يفارق هذا الملاذ وأن يبدأ تأمّلاته [...] وتسلّل من قصره وامتطى جواده وانطلق

٢١ معجم اللاهوت الكتابي: مادة [مسيح].
٢٢ - مرقس:١ (٩-١١).
٢٣ - مرقس:١ (١٢، ١٣).
٢٤ - خروج:٢٤ (١٨).

٢٥ يمكن التوسع في المسألة بالعودة إلى: جيهان عامر: بدء الوحي من خلال المصادر الشيعيّة الاثنيْ عشريّة، رسالة ماجستير، كليّة الآداب بمنوبة، ٢٠٠٤-٢٠٠٥م، ص ص ١٩٩- ٢٢٠، إشراف المنصف بن عبد الجليل.
٢٦ وحيد السعفي: العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، ص١١١.
٢٧ المجلسي: بحار الأنوار،ج١٦، ص١٩٣.
٢٨ وحيد السعفي: العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن: تفسير ابن كثير نموذجا، ص٦٠١.
- يُنظر بخصوص رمزية الرقم أربعين ضمن: Dictionnaire des symboles, t 4, article: Quarante

إلى مرحلة جديدة، وكانت سنه آنذاك تسعا وعشرين سنة»[٢٩]. وتمثّل هذه المرحلة من عمر المكلّفين دينيّا، الفاصل بين الإنسان الدّيني بالقوّة والإنسان الدّيني بالفعل. يقول وحيد السعفي: «ها هو يقترب من الأربعين ذلك العدد الشبح الذي يخيّم بظلّه على كلّ ثقافة، تنتظره بفارغ الصبر، وتنتظر منه أن يغيّر حياتها إنْ إلى خير وإنْ إلى شرّ»[٣٠].

يؤكّد اللاهوت المسيحي أنّ العمل الفدائي الذي أقدم عليه يسوع المسيح يمثّل تتمّة لسر الخلاص الذي سبق أن استأنفه خروج موسى ببني إسرائيل من مصر[٣١]. ويكون المسيح بهذا المعنى موسى الجديد الذي بشّر به العهد القديم. وستمتّن عرى هذا الربط بين السابق واللاحق مع تحوّل شاول إلى بولس رسول المسيح إلى الأمم. وقد حاول هذا الفرّيسي اليهودي الربط بين العهدين القديم والجديد من جهة، وبين موسى والمسيح من جهة ثانية. وساعده هذا الرهان في استقطاب عدد من اليهود المنتظرين لمسيح مخلّص[٣٢]. ولم يتخلّص بولس من شاول ولم تتخلّص المسيحيّة من اليهوديّة. فكان التمثّل الواعي وإعادة الإنتاج في أجلى صوره من طرف لاهوتي متشبّع بالفلسفة اليونانيّة.

وقد عمل بولس على الترويج لفكرة الفداء بالدّم. إذ تحوّلت هجرة المسيح من الناصرة إلى أورشليم حركة مقدّسة من أجل افتداء المسيحيين وتخليصهم من ميراث الخطيئة الكبرى، وإخراجهم من المدنّس إلى المقدّس المطلق، ومن الموت إلى الحياة. وفي المقابل يكون المسيحيون قد تحرّروا وتطهروا برشّ دم المسيح، ونذروا الطاعة لله وصاروا مستعدّين للسير في الطريق المزمع أن يقودهم إلى وطنهم السماوي[٣٣]. ويتخّذ الحديث على هجرة يسوع المسيح بعدين: بعد روحي عقدي ارتبط بحادثة التعميد وما تمثّله من أهميّة في العقيدة المسيحيّة، وبعد إجرائي تمثّل في تحوّله من الناصرة إلى أورشليم. وتتجاوز الهجرة الخلاصيّة المستوى الفردي لتكون للناس عامّة.

اعتبرنا سابقا أنّ المعموديّة وجه من وجوه الهجرة الدينيّة التي خاضها المسيح في هجرته من يهودي بسيط مثل باقي البشر في بساطتهم إلى مكلّف إلهيّا بإحلال الملكوت على الأرض. ويجدر التذكير في هذا السياق بأنّ شعيرة التعميد ممارسة طقسيّة سبقت المسيحيّة، بل هي موروثة عن اليهوديّة التي أخذتها عن ديانات سابقة. وترتبط المعموديّة بيوحنّا المعمدان ابن أليصابات والنبيّ اليهودي زكرياء. وعبّر الحواري متّى عن هذا المعنى فقال: «وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ جَاءَ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ يَكْرِزُ فِي بَرِّيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ قَائِلاً: تُوبُوا لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّماوَاتِ. فَإِنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي قِيلَ عَنْهُ بِإِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ: صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ. اصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً»[٣٤].

كان هذا النّداء صيحة تنبّه إلى انفتاح طريق الخلاص، وإلى ضرورة الهجرة عبره إلى حيث تتجسد محبّة الرب بين الناصرة والجلجثة. وتذكر السرديات الإنجيليّة أنّ ملاك الربّ هو من أعلن عن بداية هذه الهجرة المقدّسة حين بارك يسوع الناصري لحظة الولادة، وحين اختلفت النسوة اليهوديات في تسميّته. قال الحواري لوقا: «لَمَّا رَآهُ زَكَرِيَّا اضْطَرَبَ وَوَقَعَ عَلَيْهِ خَوْفٌ. فَقَالَ لَهُ الْمَلاَكُ: لاَ تَخَفْ يَا زَكَرِيَّا لأَنَّ طِلْبَتَكَ قَدْ سُمِعَتْ وَامْرَأَتُكَ أَلِيصَابَاتُ سَتَلِدُ لَكَ ابْناً وَتُسَمِّيهِ يُوحَنَّا. وَيَكُونُ لَكَ فَرَحٌ وَابْتِهَاجٌ وَكَثِيرُونَ سَيَفْرَحُونَ بِوِلاَدَتِهِ لأَنَّهُ يَكُونُ عَظِيماً أَمَامَ الرَّبِّ وَخَمْراً وَمُسْكِراً لاَ يَشْرَبُ وَمِنْ بَطْنِ أُمِّهِ يَمْتَلِئُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ»[٣٥].

مثّل هذا الخبر بشارة لزكرياء فشكر الرب ّوقال: «مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ لأَنَّهُ افْتَقَدَ وَصَنَعَ فِدَاءً لِشَعْبِهِ وَأَقَامَ لَنَا قَرْنَ خَلاَصٍ فِي بَيْتِ دَاوُدَ فَتَاهُ. [...] خَلاَصٍ مِنْ أَعْدَائِنَا وَمِنْ أَيْدِي جَمِيعِ مُبْغِضِينَا. لِيَصْنَعَ

٢٩ أحمد شلبي، مقارنة الأديان ج٤، (أديان الهند الكبرى)، مكتبة النهضة المصريّة، ط٩، ١٩٩٠ ص ١٤٣-١٤٤.

٣٠ وحيد السعفي: العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن: تفسير ابن كثير نموذجا، ص٦٠١ .

٣١ مرقُس:٩ (٢-٨).

٣٢ أعمال الرسل: ٩ (١-١٠)

٣٣ أعمال الرسل: ٢٠ (٢٧، ٢٨).

٣٤ متّى: ٣ (١- ٣).

٣٥ لوقا: ١ (١٢- ١٤).

رَحْمَةً مَعَ آبَائِنَا وَيَذْكُرَ عَهْدَهُ الْمُقَدَّسَ. ٱلْقَسَمَ الَّذِي حَلَفَ لإِبْرَاهِيمَ أَبِينَا»[٣٦]. وحافظ يوحنّا على التقليد النبوي الذي يسبق التكليف الإلهي، فمال إلى العزلة التي تساعد على حلول مباركة الربّ. وتؤكّد السرديات الإنجيليّة أنّ الطفل يوحنّا المبارك من قبل الربّ كان ينمو ويتقوّى بالرّوح أثناء إقامته في البراري وإلى يوم ظهوره لإسرائيل[٣٧]. ومع انتهاء هجرته في البريّة انطلق إلى جميع النّواحي المحيطة يُنادي بمعموديّة التوبة لمغفرة الخطايا[٣٨]. وكانت رسالته واضحة المعالم: لابد للخطأة أن يهاجروا من عام المدنس إلى عالم المقدّس في مرحلة أولى بواسطة التعميد. وتصبح الهجرة بهذا المعنى مقابل التوبة وإعلان الخلاص من خطيئة آدم. وصار التعميد في الذاكرة الدينيّة المسيحيّة هجرةً من الخطيئة إلى التوبة ومن المدنّس إلى المقدّس. وتتكوّن الهجرة الخلاصيّة من مرحلتين: تتحقّق الأولى بالتعميد بالماء من طرف يوحنّا اليهودي، وتتحقّق الثانية من طرف يسوع المسيح بواسطة الرّوح القدس. وتعتبر الثانية المرحلة الأهم في هذه الهجرة الخلاصيّة باعتبار أنّ التائب/المعمّد يتّحد أثناءها بالله ويحقّق الخلاص النهائي. وقد أخبر يوحنا بذلك فقال: «أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ وَلَكِنْ يَأْتِي مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي الَّذِي لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَحُلَّ سُيُورَ حِذَائِهِ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ»[٣٩].

إذن تمثّل المعموديّة في هذا السياق هجرة روحية يقوم بها المخطئ كي يتطهّر ممّا علق به، ويتخلّص من الخطيئة الكبرى التي أخرجت آدم من الجنّة. وبالقيام بهذه الحركة يتجدّد العهد بين الخالق والمخلوق. ومن المفيد الإشارة إلى أنّ هذا المبدأ الإيماني في العقيدة المسيحية تتجاوز جذوره المرجعيّة اليهوديّة ليغني من الحضارتين المصريّة والهنديّة. وقد تأثّرت الشريعة الموسويّة بدورها بديانات سابقة لها منها ديانة المصريين. وكثيرا ما تربط البحوث المتعلقة بتاريخ الظاهرات الدينيّة تأثّر شريعة الأحبار الموسويّة بالتوحيد الأخناتوني[٤٠]. وتبدو عمليّة «المثاقفة» هذه مسألة منطقيّة إذا انطلقنا من مبدإ تأثّر اللاحق بالسابق.

٣- الهجرة في الإســـــلام:

يكاد معنى مصطلح [هجرة] في نصوص المتخيّل الدّيني الإسلامي ينحصر في الدلالة على معنى الخروج الاضطراري لنصرة دين الله[٤١]. وقد كانت هجرة المسلمين الأولى بسبب الخوف من اضطهاد المناوئين للديانة الجديدة تجاه الحبشة. ولكنّ الهجرة الأهم في تاريخ الإسلام هي تحوّل النبيّ محمّد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى يثرب. وأتت هذه الحركة الخلاصيّة في مرحلة مهمة في تاريخ الدعوة المحمّدية. وكان رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم أقدم على الهجرة تفاديا لخطر يتهدّد دعوته وأنصاره. وقد تأكّدت الحاجة إلى هذه الحركة الرمزية بعد أن استشعر جدّية قريش والمناوئين له في الخلاص منه بقتله. قال ابن هشام: «لم يؤذن له في الحرب، ولم تحلّل له الدماء، إنّما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل. وكانت قريش قد اضطهدت من اتّبعه [...] حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم. فهم بين مفتون في دينه، ومن بيم معذّب في أيديهم، ومن بين هارب في البلاد فرارا منهم، منهم من بأرض الحبشة، ومنهم من بالمدينة»[٤٢].

وكانت الأرستقراطيّة القرشيّة حاسمة في ضرورة ضمان خلاص حضاري من خلال التضحية بالنبي الجديد الذي أصرّ على تهديد سلطتهم. وقد اختلفت الآراء

٣٦ لوقا: ١ (٦٨- ٧٣).
٣٧ لوقا: ١ (٨٠).
٣٨ لوقا: ٣ (٢-٤).
٣٩ لوقا: ٣ (١٦).

٤٠ سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، ترجمة جورج طربيشي، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٩م، ط٣. ص٢٧.
٤١ عبد القدوس الأنصاري، طريق الهجرة النبوية، جدّة، مطابع الروضة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص٢٩.
٤٢ ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق سعيد محمّد اللّحام، بيروت، دار الفكر للنشر، ٢٠٠١م، مج١، ج٢، ص٣١٣.
يُنظر أيضا ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٠م، ج٢، ص٢٦٠

وتعدّدت المقترحات. وكان أبرزها موقفان وهما القتل أو التهجير. ولم يكن ممكنا قبول القرشيين بالتزحزح عن زعامة الشرق من خلال مكانة مكّة قبل الإسلام. فقد مثّلت مركزا تجاريّا غير مسبوق، ومركزا دينيّا تتجمّع فيه آلهة الشرق كلّها. وهذا ما يجعل الحركة البشرية والاقتصادية أولويّة في المشاريع المتعلّقة بالمنطقة. وفي المقابل يدعو الدّين الجديد إلى إله واحد يختزل المشهد الديني برمته. وتهدّد هذه الدعوة مركزية قريش وتعطّلها وتؤثر فيها سلبا. ولنا في حركة الإصلاح الدّيني التي بدأت مع في القرن الخامس عشر ضد الكنيسة مع لوثر وكالفان مثالا على تمسّك أصحاب المصالح بمصالحهم ولو تطلب ذلك التضحية بالمُناوئ. وفي هذا السياق أُعدم جيروم وهوس بالنّار بتهمة الهرطقة التي تعني مخالفة رأي الكنيسة أو انتقاد أيّ شيء يتّصل بها. وقد أصدر المجمع البابوي قرارا سنة خمس عشرة ومائتين وألف ميلادي لاستئصال الهراطقة، ونفّذت الكنيسة هذا القرار بكلّ شدّة وحزم. واستعملت في ذلك القتل والحرق ومحاكم التفتيش «فأُحرق يوحنّا هوس وجيروم، وأُحرقت كتب أبيلارد وسجن حتّى الوفاة[٤٣].

وتعبيرا عن أهميّة الهجرة المحمّديّة، سبقت إرادة الإله إرادة قريش الخلاصيّة، فتدخّلت لتحقق خلاص النبيّ ورسالته. فظهر الملاك جبريل وأمر محمّدا بالهجرة والتحوّل من المكان غير الآمن إلى مكان فيه نصرة وحماية. يقول وحيد السعفي: «فالهجرة لم تكن بنت لحظتها، بل تتويجا لمرحلة كاملة ابتدأت مع البعثة، وأصبحت شيئا فشيئا هاجسا يراود محمدا كلّما آذاه القوم وآذوا صحبه»[٤٤]. ولم يفصّل النص القرآني في وقع من أحداث ومعجزات رافقت خروج محمّد صلى الله عليه وسلم من مكّة إلى يثرب واقتصر الحديث على لحظة الخروج من البيت في قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ»[٤٥]، وعلى لحظة وجود النبي في الغار «إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»[٤٦]. ولئن جاءت الآيتان موجزتين فقد ولّد المتخيّلان الدّيني والتّاريخي عنهما سرديات قصصيّة عديدة في كتب المفسّرين والقصّاص. وجاء في رواية الطبرسي أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم قد خرج من بيته وهو يقرأ سورة «يس» وأخذ ترابا بكفّه ونثره على شباب قريش الذين كانوا يستعدّون لقتله عند خروجه. ومضى فقال له جبريل: «يا محمد خذ ناحية ثور». ويقع هذا جبل على طريق منى. وعند وصوله دخل الغار. وفي الصباح تفطّنت قريش إلى رحيله فتفرق فرسانها في الجبال يطلبونه وكان فيهم رجل من خزاعة يقفو الآثار حتى وصل بهم إلى باب الحجرة[٤٧].

وعادة ما تصاحب الأنبياء في هجرتهم مجموعة من الخوارق. ومن أكثرها إثارة وتشويقا تدخّل العناية الإلهيّة لتخلّص الرّسول في هجرته من مكّة إلى المدينة بكائنين ضعيفين هما العنكبوت ينسج على باب الغار واليمامة تبني عشّها بالسرعة التي أسْرت بمحمّد صلى الله عليه وسلم من الحجاز إلى المسجد الأقصى، ومنه إلى السّماء السابعة، ثمّ تعود به وفراشه دافئ كما تركه[٤٨]. ويكتمل المشهد المشوق في قصّة الهجرة بظهور فارس من الملائكة في صورة إنسيّ فينصح شبّان قريش بطلب الرسول في شعاب بعيدة، فيدفعهم إلى الانصراف عن الغار. حينها يتحقّق الخلاص منهم، ويأذن الله له ثانية بمواصلة طريق الهجرة قائلا

٤٣ أحمد شلبي، مقارنة الأديان، ج٤، ص٢١٥.
يُنظر أيضا: وحيد السعفي، القربان في الجاهليّة والإسلام، تونس، تبر الزمان، ٢٠٠٣م، ط١، ص١٣٧.
٤٤ وحيد السعفي: العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، ص٦٠٨.
٤٥ يس: ٣٦ (٩).
٤٦ التوبة: ٩ (٤٠).
٤٧ الطبرسي: إعلام الورى، ص ٦٢ وما بعدها.
٤٨ محمد محمود صلاح: الفيوض الربانيّة في الرحلة النورانيّة، معجزة الإسراء والمعراج، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ط١، ص٩٠.

بواسطة جبريل: «يا محمد اخرج عن مكة فليس لك بها ناصر»[٤٩]. فيخرج من الغار ويتوجه نحو يثرب أين استقبله الأنصار هناك، فحقق الخلاص له ولدعوته وأسس الدولة الإسلامية. وقد استقبله «زهاء خمسمائة من الأنصار [...] والعواتق فوق البيوت»[٥٠]. وتقدّست يثرب بواسطة الهجرة النبوية وصارت مدينة منوّرة وقامت بديلا لمكّة ورمزيتها في هذه المرحلة على الأقل. وشهد التاريخ بين المهاجرين والأنصار ومصالحة بين المسلمين واليهود من خلال صحيفة قانون الجوار[٥١]. ولم تتوقف حركة الهجرة المؤسّسة للإسلام، إذ عاد النبي محمدّ إلى التحرّك من المدينة إلى مكّة ولكن من موقع القوّة هذه المرّة. وكان الحنين إليها لم يفارقه قطّ، ولكنّه أخمده لأجل حاجات أهم.

ما نخلص إليه في خاتمة هذا المبحث هو أنّ الهجرة كانت في البداية ممارسة تاريخيّة تعبّر عن حاجة أمنية واستراتيجيّة لإعلان المشاريع الحضارية الجديدة. ثم تدريجيّا صارت ممارسة رمزيّة وسبيلا إلى الخلاص الجمعي في الديانات الكتابيّة، وطقسا للعبور من المدنّس إلى المقدّس، ومناسبة يعبر فيها الله عن محبته للمؤمنين، ويعبر النبي من خلالها عن طاعته الكاملة لخالقه ومكلفه. ويترجم هذا القبول من خلال ما يتحمّله من مشاق ومصاعب تتماشى وطبيعة الرسالة التي يحملها. وتكون الهجرة عقدا بين الخالق والمخلوق يقوم على مجموعة من الثنائيّات مثل الاصطفاء والقبول والولاء والنصرة.

قائمة المصادر والمراجع

- إلياد (مرسيا)، المقدّس والدنيوي رمزيّة الطقس والأسطورة،العربي للنشر والطباعة والتوزيع، ترجمة نهاد خياطة الطبعة الأولى،١٩٨٧م.
- أسطورة العودة الأبديّة، ترجمة نهاد خياطة، دمشق، نشر مركز الدراسات الجامعيّة، ١٩٩٨م.
- الأنصاري (عبد القدوس)، طريق الهجرة النبوية، جدّة، مطابع الروضة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م
- السعفي (وحيد)، العجيب والغريب في تفسير القرآن، تونس، تبر الزمان، ٢٠٠١م.
- القربان في الجاهليّة والإسلام، تونس، تبر الزمان، ٢٠٠٣م، ط١
- صلاح (محمد محمود)، الفيوض الربانيّة في الرحلة النورانيّة، معجزة الإسراء والمعراج، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ط١،
- صليبي (كمال)، خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، بيروت، دار الساقي، ١٩٩٤م، ط٢.
- الطبرسي، إعلام الورى، قدّم له محمّد مهدي السيد حسن الخرسان، منشورات المكتبة الحيدريّة ومطبعتها في النجف ١٣٩٠ هـ/١٩٧٠م
- الغدير (عبد الله عيسى)، القاموس الجامع للمصطلحات الفقهية، دار المحجّة البيضاء- دار الرسول الأكرم، ١٤١٨م/١٩٩٨م، ط١.
- فرويد (سيغموند): موسى والتوحيد، ترجمة جورج طربيشي، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٩م، ط٣.
- ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨-١٩٩٣م
- معجم اللاهوت الكتابي، دار المشرق بيروت، د.ت
- ابن هشام، (أبو محمد عبد الملك): السيرة النبويّة، تحقيق سعيد محمّد اللّحام، بيروت، دار الفكر للنشر، ٢٠٠١م.

المراجع الأجنبية

- Bonsenven.J, Le Judaïsme palestinien au temps de Jésus-Christ, T2.
- Cazelles Henri , Le Messie de la Bible: christiologie de l›Ancien Testament, Paris, Desclée, 1978.
- Dictionnaire des symboles, t 4, article: Quarante
- Weber)Max(, Le judaïsme antique, Paris, Plon/ Pocket, Collection Agora, 1998, p296.

٤٩ الطبرسي، إعلام الورى، قدّم له محمّد مهدي السيد حسن الخرسان، منشورات المكتبة الحيدريّة ومطبعتها في النجف ١٣٩٠ هـ/١٩٧٠م، ص٦٣.

٥٠ ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨-١٩٩٣م، مج٢، ج٣، ص٢٤.

٥١ ابن هشام، السيرة النبوية، مج٢، ج٣، صص ٣٠-٣٥.

الهجرة: من الإنسانية إلى السياسية

الدكتور محمد السمَّاك

يؤكد علماء الإنتربولوجيا أن أصل الإنسان إفريقي. الهجرة الأولى التي عرفتها الإنسانية كانت هجرة الإنسان الإفريقي أولاً إلى آسيا، ثم من آسيا بالاتجاه الشمالي الغربي نحو أوروبة. ومن شمال آسيا، من سيبيريا تحديداً، عبَر الإنسان إلى ما يُعرف اليوم بالولايات المتحدة. كان البحث عن الماء والكلأ وراء تلك الهجرات. ولا يزال البحث عن مستوى حياة افضل وراء الهجرات المعاصرة.

منذ فجر التاريخ الحديث ارتبطت الهجرة بعاملين أساسيين:

العامل الأول: القحط والجفاف مع البطالة والتراجع في التنمية في الوطن الأم.

والعامل الثاني: الازدهار الاقتصادي والازدهار الصناعي في الدول المتقدمة.

وفي العصر الحديث ارتبط العاملان بعامل ثالث، هو العولمة ؛ من حيث إنها أداة معرفية لمظاهر التقدم خارج الوطن الفقير (أو المستفقر)، ولإمكانات المشاركة في هذا الازدهار والإفادة منه. فالمقارنة بين المعاناة في الداخل الفقير أو المعدم، هي أقل من معاناة «الهجرة» إلى دول متقدمة وغنية. حتى

إن هذه المقارنة تشكل في حدّ ذاتها حافزاً للهجرة، وحتى للمغامرة بتحمل مخاطرها وأهوالها. فالمعاناة في الوطن هي معاناة مستمرة ودائمة ولا أفق لها ولا أمل بالتخلص منها في المستقبل المنظور، أما معاناة الهجرة، فإنها مؤقتة ومرحلية، وهي مفتوحة أمام مغامرة الانتقال نحو الأفضل.

منذ أن تولى جنكيز خان حماية طريق الحرير وجعل منها شرياناً حيوياً لتدفق الناس والأموال والبضائع بين أوروبة وآسيا، كانت الهجرة جزءاً من الحياة اليومية لشعوب القارتين، وكانت في الوقت ذاته ركناً من أركان التكامل الاقتصادي، والتلاقح الفكري، والتبادل الثقافي وحتى جزءاً من التداخل العائلي. واستمرت هذه الظاهرة الحيوية جيلاً بعد جيل، إلى أن قطعت الحرب العالمية الأولى هذا الطريق. وطوت الحرب كذلك أربعة عقود- سابقة للحرب- شهدت ازدهاراً تصاعدياً في الهجرة الانسانية وفي التبادل التجاري بين الشرق والغرب[1].

ولم يعد الأمر إلى نصابه إلا في عام ١٩٨٠، ليعود وينتكس من جديد خلال الأزمة الاقتصادية التي ضربت العالم في عام ٢٠٠٨. ولا تزال المضاعفات والآثار السلبية لهذه الأزمة مستمرة حتى اليوم. إلا إنها لم تشكل حائلاً دون استمرار الهجرة من بعض الدول الفقيرة والنامية باتجاه الدول الغنية والمتقدمة وتحديداً من المكسيك نحو الولايات المتحدة، ومن إفريقيا والشرق الأوسط نحو أوروبة، ومن دول آسيا الوسطى نحو روسيا، ومن دول جنوب شرق آسيا نحو استراليا؛ ذلك أنه رغم كل المظاهر السلبية لهذه المضاعفات والآثار، فإن تراجع التنمية أو حتى انعدامها في الدول «المصدّرة» للمهاجرين لا تزال تتمتع بقوة جذب واستقطاب؛ ومن هنا بدأت المشكلة. وتتمثل هذه المشكلة أولاً: في الرقم القياسي الذي سجلته الأمم المتحدة لعدد المهاجرين في العالم والذي قارب الثلاثمائة مليون إنسان – أي ما يعادل عدد الشعوب العربية من المحيط إلى الخليج-. وثانياً: في الأعباء الاقتصادية المترتبة على الدول المضيفة لهم، وفي التأثيرات الاجتماعية التي تضرب في أساس البنية الثقافية لهذه الدول.

وكان من نتيجة ذلك تبلور ردات فعل سلبية تمثلت في قيام حركات وأحزاب سياسية معارضة للهجرة تحت شعارات وطنية وعنصرية وحتى دينية متطرفة. فما الظاهرة التي يمثلها الرئيس الأميركي الجديد دونالد ترامب سوى تعبير فج عن هذه الظاهرة الجديدة. وهي ظاهرة تتجسد الآن في أحزاب تتسع شعبيتها في العديد من الدول الأوروبية، بما في ذلك فرنسا وهولندة والنمسا، وكذلك في بولندة وتشيكيا والمجر وهنغاريا، وحتى في روسيا. وتقف مستشارة ألمانيا أنجيلا ميركل في وجه هذه الظاهرة من خلال قرارها الجريء باستقبال مليون مهاجر. وهو القرار الذي يُستخدم الآن كسلاح ضد إعادة انتخابها لفترة رئاسية جديدة.

تبدو ثقافة العداء للهجرة على نقيض ثقافة العولمة. فقد تعززت العولمة من خلال التقدم التكنولوجي، بما في ذلك الإنترنت وسفن الحاويات التي تنقل البضائع عبر المحيطات، وكذلك من خلال القوانين التي تنظم التجارة الدولية وتشجع عليها. إلا أن هذه المتغيرات التي كان يفترض أن تشمل أيضاً انتقال الأشخاص –والمهاجرين- تصطدم بالحالة العدائية الجديدة، فعدد المهاجرين الى الولايات المتحدة على سبيل المثال هو اليوم أقل ثلاث مرات مما كان عليه في عام ١٩١٤، عام الحرب العالمية الأولى، أي قبل العولمة وأدبياتها وآلياتها[2]!! فالهجرة أساساً هي هجرة نحو الأمل بحياة افضل، والحياة الأفضل يفترض أن تكون متوفرة في الدول التي تتمتع بدخل أفضل. واستناداً

1 RuchirSharma . When borders close, Herald Tribune, Nov. 14, 2016 .

٢ المصدر السابق .

الى الدراسات الأميركية الرسمية فان حصة الواحد بالمائة من أغنى أغنياء اميركا ارتفعت منذ عام ١٨٧٠ بنسبة عشرين بالمائة في عام ١٩٢٠. وهي مستمرة في الارتفاع حتى اليوم.

أدى ذلك الى زيادة الفقر (حتى في الولايات المتحدة ذاتها) وخاصة في الدول النامية في العالم الثالث. ورداً على احتواء ردات الفعل -بما في ذلك الهجرة- عمدت الولايات المتحدة الى تحصين حدودها والى فرض قيود مشددة على الدخول اليها، وذلك منذ عام ١٩٢٩.. حتى وقعت الأزمة الاقتصادية التي وصفت بالانهيار الكبير.

عالجت الولايات المتحدة مضاعفات الأزمة بمزيد من اجراءات الانغلاق على الذات (قانون التعويضات ١٩٣٠) مما ادى الى حرب تجارية عالمية. ومنذ عام ١٩٣٠ أغلقت أبواب الهجرة ؛ وهبط عدد المهاجرين اليها من مليون انسان سنوياً الى بضعة عشر ألف فقط.

وخلال هذه الفترة، أي قبل ظهور ترامب وسياسته الجديدة ضد المكسيكيين، هاجر من الولايات المتحدة الى المكسيك مليون مكسيكي منهم ٨٠ ألفاً فقط تولت السلطات الرسمية الأميركية ترحيلهم. يومها رفع في الولايات المتحدة شعار «أميركا أولاً». وهو الشعار الذي ترفعه اليوم دول أوروبية وغير أوروبية رفضاً للهجرة. وهو مماثل لشعار ترامب «لنجعل من أميركا عظيمة مرة أخرى».

ترفع هذه الشعارات في الوقت الذي تبين الأرقام الرسمية ان أرقام الهجرة الى هذه الدول في حالة تراجع. فالهجرة من الدول الفقيرة أو النامية الى الدول الغنية أو المتطورة، تراجع الى ١٢ مليوناً بين عامي ٢٠١١ و ٢٠١٥ أي أقل بأربعة ملايين. حتى ان عدد المكسيكيين الذين غادروا الولايات المتحدة هو أكبر من عدد الذين هاجروا اليها، بحوالي ١٤٠ ألف شخص. وهذه الهجرة المعاكسة (من الولايات المتحدة الى المكسيك) كانت سابقة لحملة الانتخابات الرئاسية الأميركية التي رفع فيها الرئيس ترامب شعاراته ضد الهجرة عامة وضد المكسيكيين خاصة[٣].

من هنا يبدو ان صعود حركة اليمين الوطني المتطرف التي يمثلها في الولايات المتحدة تحديداً الحزب الجمهوري وحزب الشاي ممثلاً بالرئيس ترامب ليس مرتبطاً بالضرورة وبشكل مباشر بالهجرة. ولعله أشد ارتباطاً بتراجع النمو الاقتصادي وبازدياد نسبة الفقراء والمحتاجين -خاصة من المتحدرين من أصول افريقية- وبالتالي بالانعكاسات الأمنية والاجتماعية التي ترتبت على ذلك (الصدامات المسلحة بين رجال الأمن والسود مثلاً).

ليست الخلفيات الاقتصادية هي السبب الوحيد للهجرة أو للمواقف منها.

هناك أسباب عديدة أخرى ربما يكون أهمها، السبب الديني؛ عرف العالم هجرات دينية في مختلف الاتجاهات، عرف هجرة المسيحيين البروتستانت من أوروبة الى الولايات المتحدة بعد الحروب الدينية التي شهدتها أوروبة بين الكاثوليك والبروتستانت. وهي الهجرة التي طبعت «العالم الجديد» بطابعها الخاص، وعرف العالم هجرة المسلمين من وسط الهند الى شرقها (بنغلادش) والى غربها (الباكستان)، كما عرف هجرة الهندوس من شرق الهند وغربها الى الوسط الذي يُعرف اليوم بالهند، وعرف العالم قبل ذلك هجرة المسلمين واليهود من الأندلس (اسبانيا)، بعد سيطرة القوات الكاثوليكية عليها، وقبل هذه وتلك، هاجر مسلمون في المرحلة الأولى من الدعوة المحمدية الى الحبشة، وبتوجيه من النبي محمد عليه السلام.. ثم هاجر النبي نفسه مع أنصاره من مكة الى المدينة المنورة، ليقيم فيها أول نواة لدولة يشكل فيها

3 History of Violence : From the End of the Middle Ages to the Present, Robert Mushenbled, Center for the Study of Civil War- Oslo.

المسلمون والمؤمنون -كما جاء في صحيفة المدينة- أمة واحدة من دون الناس[٤]. ونظراً لأهمية تلك الهجرة النبوية من مكة الى المدينة، فان المسلمين لا يزالون حتى اليوم يعتمدونها اساساً للتقويم الزمني.

كانت الهجرة الدينية هجرة إلى الحرية، وعلى رأسها حرية الإيمان وحرية ممارسة هذا الإيمان، وما تعرض له مسلمون ومسيحيون مؤخراً على أيدي حركات التطرف الديني، من حيث هي حركات الغائية للآخر المختلف في العراق وسورية تحديداً، ادى الى هجرات دينية طلباً للحرية المفقودة، الى جانب السعي وراء حياة آمنة ومستقرة.

وعلى قاعدة الحرية هذه، أقام المسلمون امبراطورية ما كانت تغيب عنها الشمس، من إسبانيا والبرتغال على المحيط الأطلسي، إلى أندونيسيا على المحيط الهادي. وأقام البروتستانت دولة كبرى لا تزال حتى اليوم تؤثر في مصائر العديد من دول العالم وشعوبها، وهي الولايات المتحدة، التي كانت تصف ذاتها بأنها «أمة المهاجرين».

إن هذا التدافع البشري شكل على مدى التاريخ حركة صحية انسانية عامة وشاملة. ولقد أشار القرآن الكريم الى هذه الظاهرة بقوله « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض»[٥]. لقد خلق الله الناس من نفس واحدة،وخلقهم مختلفين، وأرادهم لحكمة منه أن يبقوا مختلفين حتى يوم الدين. ولكنه دعاهم الى التعارف.

والتعارف لا يتحقق عن بعد. انه يتحقق من خلال التواصل والتعايش. والهجرة هي واحدة من العوامل الرئيسة التي تحقق هذا التواصل التعارفي بين الناس، غير أن الهجرة المترافقة مع ثقافة رفض الاختلاف ومع محاولة الغاء المختلف معه، تؤدي كما نرى في الكثير من المجتمعات اليوم، الى صدامات والى صراعات عنصرية وطائفية. أما الهجرة مع ثقافة احترام

٤ صحيفة المدينة المنورة .

٥ سورة البقرة، الآية ٢٥١ .

الاختلاف، وقبول المختلف معه على أن الاختلاف هو ميشئة إلهية وانه مصدر غني ثقافي واجتماعي لا بد منه، فانها تؤدي الى دفع حركة التطور الانساني والى تكامل المجتمعات وتعايشها بسلام.

وبالنسبة للإسلام تحديداً، فإن عدد المسلمين في العالم يبلغ مليار و٦٠٠ مليون انسان. غير أن ثلثهم، أي حوالي ٦٠٠ مليون مسلم، يعيشون في دول وفي مجتمعات غير اسلامية:

- في أوروبة مع المسيحية الكاثوليكية والانكليكانية (في بريطانيا).
- في الولايات المتحدة مع المسيحية الانجيلية.
- في روسيا مع المسيحية الأرثوذكسية.
- في الصين مع البوذية.
- في الهند مع الهندوسية.

كذلك فإن المسلمين منتشرون بنسب أقل في دول أميركا الجنوبية (الكاثوليكية) وفي كندا واستراليا، وفي سريلانكا (الهندوسية – البوذية) وفي تايلند وميانمار (البوذية).

إن هذا التواجد الاسلامي خاصة في المجتمعات الغربية (أميركا وأوروبة واستراليا وكندا) هو في أساسه نتيجة الهجرات. ولذلك ينظر الى المسلم في مجتمعات هذه الدول، حتى بعد ان يكون قد اكتسب حق المواطنة، على انه مختلف، لأن دينه مختلف. واختلاف الدين يعطل الذوبان في المجتمعات الجديدة، ويبرز الاختلافات العقائدية بأبعادها الاجتماعية. كذلك فإن المسيحية التي كان ٨٠ بالمائة من أتباعها حتى أوائل القرن التاسع عشر يعيشون في أوروبة والأميركيتين، تنتشر جنوباً. ان ثلثي المسيحيين اليوم يعيشون في آسيا وافريقيا[6]. صحيح ان هذا التحول ليس مترتباً عن الهجرة، بل عن التبشير، الا انه أدى الى وضع المسلمين والمسيحيين معاً في مجتمعات جديدة. ولأن المسيحي في آسيا وافريقيا –كالمسلم- هو من أهل البلاد الأصليين، لم تعد صورة المسيحي كما كانت في السابق، الرجل الأبيض، الغني، المستعمر. ولكنها أصبحت مثل صورة المسلم، الرجل الملون والفقير والمضطهَد.

إن أي احتكاك لأي سبب (سواء كان خلافاً على المناصب او على المصالح - جنوب السودان نموذجاً - أو خلافاً على المياه، او حتى خلافاً على رعاية الماشية كما يحدث في نيجيريا مثلاً) يتحول إلى خلاف ديني. والخلاف الديني في ظل العولمة، يصبح خلافاً عاماً يعزز الصور النمطية السلبية المتبادلة ويزيد من الهوة الثقافية اتساعاً.

كذلك فإن المسلمين المهاجرين إلى دول غير إسلامية يواجهون حالات صدامية مع المجتمعات التي هاجروا اليها على خلفية تمسكهم بعقيدتهم أو بمفهومهم الذاتي لعقيدتهم وبحرصهم على الالتزام بشريعتهم وبفهمهم لهذه الشريعة. وهو أمر غالباً ما يتناقض مع ثقافات المجتمعات التي استقبلتهم أو وافقت على احتضانهم. وفي دول أوروبة الغربية مثلاً التي فكّت ارتباطها بالدين، فإن تمسك المسلمين المهاجرين –ولو توطنوا- بالشكليات التي تتعلق بممارسة شعائرهم الدينية يثير حساسيات سرعان ما تنفجر صراعات تأخذ طابعاً عنصرياً أودينياً (قيام فرنسيين من أصل مغاربي مثلاً بذبح التضحيات من الأغنام في عيد الأضحى على أرصفة الشوارع في ضواحي باريس).

ومن هنا ارتفعت شعارات تخوف من هجرة المسلمين الى أوروبة بحجة ان هذه الهجرة سوف تؤدي الى «أسلمة» أوروبة. ويعكس ذلك حالة الكنائس في معظم الدول الأوروبية التي تبدو شبه فارغة من المصلين حتى يوم الأحد، فيما تغص المساجد بالمصلين المسلمين الذين يضطرون حتى لاداء الصلاة على أرصفة الشوارع المتاخمة للمساجد. ويزيد من هذه المخاوف تقلص عدد المواليد في العائلة الأوروبية

6 A Secular Age, Charles Taylor, Belknap, 2007.

وتضخم عدد المواليد في العائلة الإسلامية المهاجرة، وتعكس هذه الحالة أوضاع المدارس حيث يرتفع عدد الطلاب المسلمين بشكل متواصل[٧]. يُضاف إلى كل ذلك تمسك المسلمين المهاجرين بالطعام الحلال، واللباس الشرعي للمرأة، إلخ. وهي مظاهر على الرغم من بساطتها فانها تضرب بشدة على أعصاب الأوروبيين (وغيرهم) الذين يجدون في هذه المظاهر تغييراً لمجتمعاتهم في الاتجاه غير المرغوب فيه. ومن هنا نشأت -أو تطورت- الاسلاموفوبيا، أي الخوف من الاسلام عن غير معرفة به.

يعزز من هذه الظاهرة السلبية والتي تضخمت كثيراً بعد الهجرة من سوريا، السلوك العنفي، بل الارهابي الذي مارسته حركات التطرف باسم الاسلام. وهو السلوك الذي استهدف بعض مسيحيي الشرق في مدنهم وقراهم قتلاً وتهجيراً، وأساء الى معابدهم، كنائس وأديرة، وقام بتدمير بعضها وبانتهاك ما فيها من رموز يقدسونها.

ورغم أن هذه الأعمال الإجرامية تتناقض مع الاسلام شرعةً ومنهاجاً، ورغم أنها اصابت المسلمين أيضاً، فقد استغلت الحركات السياسية المعادية للمسلمين أو الرافضة لوجودهم في المجتمعات الأوروبية، استغلت هذه الأعمال لتبرير مواقفها السلبية من المهاجرين المسلمين ولاتهامهم بأنهم - كمسلمين وليس كمهاجرين- يشكلون خطراً على أمن مجتمعاتهم، على أساس ان الانتهاكات التي تعرّض لها مسيحيو الشرق جرت تحت مظلة الاسلام نفسه!! وان ما فعله المسلمون في الشرق يمكن أن يفعلوه في الغرب أيضاً، بدليل سلسلة الأعمال الارهابية التي تعرّض لها عدد من المدن الأوروبية.

٧ نشرت مجلة الإيكونوميست البريطانية تحقيقاً بعنوان « أورابيا»، أي أوروبة العربية، حول الاسلام في أوروبا وذلك في العدد الصادر في ٢٤ حزيران - يونيو ٢٠٠٦ .

لم تكن الهجرة دائماً من العالم الاسلامي (إفريقيا والشرق الأوسط) إلى العالم الغربي (أميركا وأوروبة). كانت هناك هجرة معاكسة. في عام ١٨٠٧ كانت «تمبكتو» شبيهة بلندن وباريس في عصرنا الحاضر. وكانت احدى كبريات مراكز العلوم. فقد اشتهرت بمكتباتها الغنية التي كانت تستقطب العلماء والباحثين حتى من أوروبا بالذات. ورغم الاجتياحات والحروب والحرائق التي أتت على كثيرمنها، لايزال هناك حتى اليوم الكثير منها. فالمخطوطات في المدينة التاريخية العريقة تعتبر من أغنى المخطوطات الاسلامية والعربية. ولقد تعرضت هذه البقية من الثروة العلمية والثقافية الى إحراق متعمد على يد شرذمة من الجهلة والارهابيين الذين يدّعون الدفاع عن الاسلام خلال الاضطرابات العنيفة التي اجتاحت مالي مؤخراً. ففي العصر العلمي - الذهبي لتمبكتو، هاجر اليها طبيب إيرلندي يدعى الدكتور جونكوكس. وخلال إقامته فيها أصيب بمرض أقعده لفترة طويلة. فاستضافه احد أمراء المدينة الأمير، وكان يُدعى عبد الرحمن، في منزله حيث أقام عنده طوال مرضه حظي خلالها برعاية الأمير وبالعلاجات الطبية التي قدمت اليه وأنقذت حياته. بعد شفاء الدكتور كوكس، عاد الى إيرلندا شاكراً الأميرعلى رعايته وعنايته. ومرّت السنوات وحصل صراع بين إيرلندا وبريطانيا، حيث حلّت المجاعة في إيرلندا، مما حمل الإيرلنديين الكاثوليك على العيش على البطاطا نتيجة الحصارالبريطاني - الانكليكاني الخانق. وهو ما يعرف تاريخياً بثورة البطاطا. وخلال هذه المحنة الطويلة هاجر الدكتور كوكس هرباً هذه المرة من المعاناة والحرمان الى الولايات المتحدة واستقر في ولاية ميسيسيبي.

وبعد عدة سنوات من هجرته، وفيما كان (الدكتور كوكس) يتجول في أحد اسواق مدينة جاكسون،

التقى صدفة بالأمير عبد الرحمن. كان الأمير مستعبداً، وكانت عصابات استرقاق الأفارقة التي قدمت من أوروبة وأميركا قد «اصطادته» وباعته في سوق النخاسة الى أحد الأثرياء الأميركيين. وشاءت الصدفة أن يلتقي الدكتور كوكس الأمير –المستعبد- عبدالرحمن في السوق وهو يحمل المشتريات لمالكه (سيده) الأميركي. فوجئ الدكتور كوكس بما آلت اليه حال الأمير الذي يدين له بالفضل في شفائه من مرضه وبعودته سالماً الى وطنه. وحاول ان يخلصه، فعرض على «مالكه» شراءه بأي مبلغ من المال، غير ان المالك أصر على الرفض لانه كان رجلاً ميسوراً لا ينقصه المال، ولم يكن يريد التخلي عن عبد الرحمن لأنه «عبد» مثقف. عجز الدكتور كوكس عن تقديم المساعدة، فتخلى عن الأمير بحسرة، الا انه استمر على التواصل معه سراً وتزويده بالمال لتمكينه من تدبير أمور هربه. وبالفعل تمكن الأمير بعد سنوات من الفرار ومن العودة الى دياره، لكنه لم يعش بعد ذلك أكثر من سنتين أو ثلاث. ولا يزال المتحف الوطني الاميركي في مدينة جاكسون في ولاية ميسيسيبي بالولايات المتحدة يحتفظ بوثائق استعباد الأمير عبد الرحمن!! واليوم تحولت كل تمبكتو ذاتها الى حال الأمير عبد الرحمن لدى استعباده. فقد استعبدها الجهل والفقر. واستعبدها الارهاب. ثم استعبدها الصراع المسلح بين عصابات ترفع شعار التحرير أو شعار الدينية، منها القاعدة في المغربالعربي، وحركة الوحدة والجهاد في غرب افريقيا، وحرك ةتحرير ازواد، وثوار الطوارق، وحركةأنصار الدين، وهي حركةسلفية مسلحة. وحركة «الموقعون بالدم». لقد توقفت عصابات اصطياد الأفارقة واستعبادهم عن العمل منذ القرن التاسع عشر. وحلت محلها، عصابات تهريب المخدرات من دول أميركا الجنوبية بحراً الى شواطئ غينيا – بيساو على المحيط الأطلسي، ومن هناك عبر صحراء مالي الى شاطئ المتوسط، ومنه بحراً الى أوروبة. وكما كانت عصابات اصطياد الأفارقة وتهجيرهم الى أميركا تتصارع فيما بينها، كذلك فان تجار المخدرات اتخذوا مسرحاً لصراعهم في مالي والنيجر. ساعدت على ذلك الأوضاع المتهالكة في المنطقة، ولجوء العصابات المسلحة الى الصحراء الواسعة، ليس كممر فقط، انما كملجأ أيضاً. وهكذا تحولت مالي الى «طريق الحرير» لتهريب المخدرات من غينيا – بيساو الى السواحل الجنوبية للمتوسط.. وبالتالي الى موطن لعصابات التهريب.

اختلط دور هذه العصابات بالأبعاد السياسية والاجتماعية المحلية. فعلى الصعيد السياسي هناك صراع عنصري بين الازواد والأفارقة. وبين الأفارقة والعرب. وعلى الصعيد الاجتماعي هناك بطالة هي الأعلى في العالم. وهناك فقر هو الأسوأ في العالم. ثم هناك سلاح هو الأغزر في العالم، خاصة بعد سقوط نظام معمر القذافي في عام ٢٠١١ واستباحة مخازن السلاح اثر الفوضى التي عمّت ليبيا. أدت هذه العوامل كلها الى دفع السكان المحليين الى الهجرة الى أوروبة –عبر ليبيا- حيث ابتلع البحر المتوسط الآلاف منهم. فالهجرة القسرية – الاستعبادية التي كانت تجري حتى اوائل القرن التاسع عشر، تحولت الى هجرة اختيارية مذلة في القرن الواحد والعشرين! واليوم تلعب ثلاث أزمات عالمية دوراً مباشراً في إطلاق موجات الهجرة التي تشكل ظاهرة من ظواهر القرن الحالي؛ الأزمة الأولى هي تمدد النفوذ الصيني في بحر الصين الجنوبي. الأزمة الثانية هي تمدد النفوذ الروسي في شرق أوروبة (عبر أوكرانيا) وفي الشرق الأوسط (عبر سوريا).

الأزمة الثالثة هي تمدد النفوذ الإيراني في العالم العربي (عبر كل من سوريا واليمن ولبنان). تترافق هذه الأزمات مع تراجع الدور الأميركي (في عهد الرئيس السابق باراك أوباما) وتالياً تراجع التأثير الأميركي في هذه الأزمات.

لم تتسبب الأزمة الأولى في موجة هجرة كبيرة. وحدها الفلبين التي بدأت تعاني من هجرة الصيادين الذين منعوا من الصيد في الجزر التي حولتها الصين الى قواعد عسكرية. وهي تحاول معالجة ذلك بإدارة ظهرها للولايات المتحدة والانفتاح على الصين (زيارة الرئيس الفلبيني الى بكين خلافاً لنصيحة الولايات المتحدة). أما الأزمتان الأخريان فقد أطلقتا سلسلة من موجات المهاجرين الى أوروبة الغربية وعبرها الى الولايات المتحدة (وافقت ادارة الرئيس أوباما على استقبال عدد رمزي منهم فقط) وكندا، حيث جرى توطين مئات العائلات المهاجرة من سوريا والعراق. لقد انفصلت بريطانيا عن الاتحاد الأوروبي في استفتاء عام تحت ضغط الخوف على الهوية الوطنية البريطانية من المهاجرين، بمن فيهم أولئك الذين هاجروا اليها من دول أوروبة الشرقية مثل بولندة. وارتفعت أسهم الأحزاب اليمينية المتطرفة وخاصة في فرنسا وهولندة تحت ضغط هذا الخوف أيضاً. وسبقت هنغاريا الولايات المتحدة في إقامة جدار عازل في وجه المهاجرين. تشير ردود الفعل هذه الى تصدع أو حتى الى انهيار وثيقتين دوليتين تعتبران من أهم المواثيق التي تتعلق بالكرامة الانسانية، وهما ميثاق الأمم المتحدة حول حقوق الانسان – ١٩٤٨، وميثاق الأمم المتحدة حول حقوق الأقليات – ١٩٩٢. فقد أصبحت الحقوق الانسانية للمهاجر نسياً ومسياً. وباتت حقوق الأقليات (المهاجرة) تحت رحمة العنصريات الوطنية. وبعد تراجع دور الكنيسة الأوروبية في الشأن العام، فان دعواتها الروحانية للعناية بالمهاجرين لا تلقى سوى القليل جداً من التجاوب، كما أظهرت زيارة البابا فرنسيس الى اليونان وتفقد المهاجرين السوريين هناك واستعطاف العالم لمساعدتهم، ولكن دون جدوى. فلم تعد الأولوية لمساعدة المهاجرين انسانياً ولبناء مجتمعات متسامحة ومنفتحة. أصبحت الأولوية للوطنية المتزمتة الخائفة على ذاتها. يعبر عن ذلك ارتفاع نسبة الانفاق على التسلح –وليس على مساعدة المهاجرين- الى ٧٥ بالمائة في شرق آسيا والى ٩٠ بالمائة في شرق أوروبة [٨].

هذا التوجه نحو الذات الوطنية الشوفينية الذي أطلقه الخوف، او التخوف من المهاجرين، يترافق مع تراجع في الثقافة الديموقراطية، واحترام حقوق الانسان وكرامته. واستناداً إلى دراسة أعدها «بيت الحرية» في الولايات المتحدة، فان مائة دولة على الأقل، أي نصف دول العالم، شهدت تراجعاً في الديمقراطية.

من هنا فان قضية المهاجرين لم تعد مجرد قضية انسانية، ولكنها اصبحت قضية عالمية بكل أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وهذه القضية تطبع عالم القرن الواحد والعشرين بطابعها الخاص. ويخشى أن تعيده إلى الصورة السوداوية التي كان عليها عشية الحرب العالمية الثانية، حيث انتشرت المدارس الشوفينية بأسماء ومسميات مختلفة تحت مظلات وطنية وهمية.

٨ مركز دراسات التسلح، استوكهولم – السويد .

الهجرة وقيم الفطرة

مختار خواجة

خلق الله تعالى الإنسان مكرما قادرا على فعل الخير والسعي إليه، متمكنا بحكم فطرته السوية من الاختيار والتمييز بين الخير والشر، وعلى هذا يقع التمايز بين البشر ابتداء، فثمة من يختارون الأخلاق والقيم الإيجابية وثمة من يختارون الدمار والخراب والشر. وتقود خيارات الناس من منظومات القيم، تقود لتفاعلات مختلفة، وتمايزات بين الناس على اختلاف أديانهم وثقافاتهم وحضاراتهم، وتدفعهم للانتقال والهجرة والابتعاد عن مواطن نشأتهم الأولى والانتقال لأماكن جديدة، يجدون فيها الخير والأمن واحتياجاتهم المتنوعة والمختلفة. إن الموروثات الدينية المختلفة تضمنت دائما هذه الروح بصورة أو بأخرى، وقدمتها في صور متعددة ومتنوعة، وسمحت جميعها بإدارة الأزمات والخروج بها لبر الأمان. وثمة شواهد عديدة من التراث الديني تعبر عن القيم التي أرى أنها تعمل على توفير الأمن والجذب للمهاجرين واللاجئين، والتي تتسق مع الفطرة السوية، والروح الإيجابية، والتي يمكن لها أن تثمر وتقدم نتائج إيجابية لصالح الإنسانية جمعاء.

القيم وصوت الفطرة:

تمثل فطرة الإنسان السوية أحد معايير التزامه الخلقي، وهي متصلة بإرادة الخالق جلت قدرته في إيجاد الطريق القويم نحو الأخلاق القويمة والحياة

مع الآخرين على ضوئها. والله تعالى يعلمنا عبر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة»[1]، كما أن القرآن الكريم يخبرنا: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (الروم: ٣٠). إن اتفاق الفطرة مع الخلق الأول للإنسان، إحالة وإشارة على معنى مصدرية الفطرة في توجيه الإنسان للخلق القويم، يقول تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} (التين:٤)، فهو قادر على التقييم والتقويم وأيجاد القيم وإدراكها والعمل بها. وقد أشار لهذا المعنى ابن تيمية حينما أكد أن الإنسان يهتدي للأفعال والأخلاق الحسنة بالشرائع والفطرة معا[2]، ويوضح ابن تيمية هذه المسألة بأن الفطرة مجبولة على محبة ما تلتذ به، وبغض ما تتضرر وتتألم منه، بل ولو وقعت اللذة الظاهرة عبر ظلم أو شر، فإن اللذة الباطنة القلبية لا تقع،[3] ويضيف أنه لا توجد جماعة بشرية إلا وتتعاهد على أمور تجلب لها المحبوبات وتصرف عنها المكروهات، وذلك بطابع التشارك بينهم، حيث يسعون لذلك بقواسم مشتركة كالأنساب والأرحام والبلدان التي يقيمون فيها.[4] وبهذا يظهر جليا أن التشكيل الإنساني للقيم في صورة عهود وقوانين، جزء من السعي الإنساني لوسم حياته بالكمال الأخلاقي، وتفعيل هذا الجزء فيها، لمنحها الأمان المطلوب

١ البخاري: ١٣٠٢، مسلم: ٤٨٠٩، جامع الترمذي: ٢٠٦٤، أبي داود: ٤٠٩٣.

٢ ابن تيمية، الرسالة التدمرية، تحقيق د محمد بن عودة السعوي، مكتبة العبيكان – الرياض، السعودية، ٢١٥-٢١٦.

٣ ابن تيمية، الرد على المنطقيين، دار المعرفة –بيروت – لبنان، ٤٢٩-٤٣١.

٤ ابن تيمية، جامع الرسائل، تحقيق: رشاد سالم، دار العطاء، الرياض – السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م، ج٢: ٣٠٧.

والحرية في نيل الموارد والانتفاع بها. فالإنسان كما يصفه الحديث الشريف همام حارث، فهي أصدق الأسماء،[5] إذ تعبر عن السعي الإنساني الدائب للعمل الجاد والبناء لصالح نفسه ومن حوله.

وفيما يلي مجموعة من القيم التي أرى أن الإنسان مفطور عليها، ويبحث عنها في كل مكان يذهب إليه، وقد يترك مكانه الذي يقيم فيه، إذا ما فقدها.

- الكرامة:

«لا كرامةَ لنبيٍّ في وطنه» (يوحنا: ٤: ٤٤).

هذه المقولة تدلنا على أمر في غاية الأهمية والخطورة، إن عدم تحصل المرء على الكرامة، ليس بالضرورة مرتبطا بارتكابه الأخطاء، بل على العكس قد يكون مرتبطا بمخالفته للسائد من القيم السالبة، ولهذا فلا كرامة لنبي في وطنه.

إن الحصول على الكرامة أمر في غاية الأهمية، لا يمكن معه إلا التأكيد على أن رسالة التوحيد السامية، تحمل في طياتها الكرامة الإنسانية باعتبار أن الخالق العظيم جلت قدرته أوجد الإنسانية كيانا واحدا، وكل تقسيم للناس يخرجهم عن حد السواء، فهو مخالف ضمنا للتوحيد. {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} (الإسراء: ٧٠). إن القبول بفكرة التكريم الإلهي للإنسان، يحمل في طياته القبول باستحقاقات هذا التكريم، وهي الحرية في التنقل والحركة في الأرض، والقبول بسعيه المشروع للحصول على الطيبات من الرزق، والإقرار بأفضلية الإنسان على بقية مخلوقات الله تعالى.

إن هذه الأمور التي تنبثق عن الكرامة الإنسانية هي حقوق أساسية لا قوام للإنسان فردا ومجتمعا إلا بها،

٥ انظر تحليل ابن تيمية لمعنى الحديث، الرسالة التدمرية، مرجع سابق، ٢١٣-٢١٤.

وبغيرها لا يقع التفاعل الندي الكفء بينها ماديا وحضاريا وقيميا؛ لهذا فإن الإنسان يقوم بالسعي والاجتهاد هماما حارثا، ويضرب في الأرض متنقلا فيها، باحثا عما يحقق له أهدافه المشروعة تلك.

- المساواة والأمن:

{قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} (المائدة: ٣١). لقد حملت الجريمة الأولى في العالم، بذور الرغبة في العلو في الأرض، والتفرد والتسيد عبر القوة البدنية، وهذا يستبطن بدوره اعتقاد أن الأفضلية مرتبطة بالقوة والملكات البدنية الظاهرة وحسب، ورفض معايير الأفضلية المبنية على الخلق القويم والتقوى والتجربة الدينية الصادقة تجاه الخالق الواحد، ما يؤدي إلى مشاعر الحسد، والضغينة،[٦] وقادت هذه الرغبات والأحاسيس السالبة الأخ لقتل أخيه، ولكنه لما تمددت جثته أمامه، تبين حقيقة مرعبة، لقد تذكر أنهما متماثلان في أصل الخلقة، ويملكان الروح التي تقوم بها الحياة ذاتها. لقد استعاد القاتل وعيه الأولي بالتساوي والأخوة مع الضحية، ونفهم من هذا إن إحساسنا بالتساوي مع الآخرين، يجعلنا ندرك جميعا تساوينا في الحقوق والواجبات، وندرك كذلك أن عدم قيامنا بهذا الواجب، إن حماية الحق في الحياة والأمن، لا ينبع فقط من حماية هذا الحق، ولكنه كذلك ينبع من إدراكنا العميق لتساوينا في تلك النفخة الإلهية التي تحركنا وتملؤنا بالحياة والحيوية والمواهب، والتي تتيح لنا التشارك في الموارد والسعي في الأرض.

- الحرية الروحية والمادية:

إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء، خرج مهاجرا وفقا للكتب السماوية، يصرح القرآن الكريم بأنه فارق قومه قائلا: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ} (الصافات: ٩٩). لقد خرج متوكلا على ربه، وانتقل إلى الأرض المباركة، وحملت هذه الهجرة له البشارة بالذرية والنبوة فيهم. ولاحقا كانت لحظة تحرر جديدة في انتظار أحفاده بني إسرائيل، يقول تبارك وتعالى: {فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ} (طه: ٤٧). تحمل هذه الآية ذلك الشق التحرري من رسالة موسى عليه السلام وفقا لما حكاه محكم التنزيل، وهذا يسطر بما لا يدع مجالا للشك، أن حرية الناس وتأمينهم على معتقداتهم وأبدانهم وأموالهم وحياتهم الاجتماعية سبب رئيسي لاستقرارهم، وإلا فإن الخروج والابتعاد سيكون هو الحل؛ فلم يستجب فرعون لا لدعوة التوحيد الموسوية، ولا لتحرير بني إسرائيل بالضرورة، بل أصر: {فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ} (المؤمنون: ٤٧)، كانت الفكرة واضحة وصريحة، لا حرية لهذه المجموعة لا دينيا ولا دنيويا.

إذن ما الحل؟

الخروج وبهدوء، فكانت معجزة الخروج الموسوي، لقد يسر الله تعالى الخروج لبني إسرائيل لا ليعبدوه فقط، بل ليتحرروا من الظلم والاضطهاد الذي يقاسونه مع فرعون.

لقد ظل يهود المدينة وخيبريصومون يوم نجاة موسى عليه السلام وقومه، احتفالا بهذه النجاة، وصامه صلى الله عليه وسلم، احتراما لذكرى موسى عليه السلام ونجاته، وتعبيرا عن الشكر لله تعالى على هذه النعمة على عباده.[٧]

وقاد البحث عن الحرية الدينية إلى خروج المسلمين

٦ يرى المفسرون أن سبب القتل هو حسد الأخ لأخيه لأن الله تقبل قربانه، الطبري، الجامع بتأويل آي القرآن، دار المعرفة، ج١٠: ٢٠٨.

٧ ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الريان للتراث، ١٤٠٧ هـ -١٩٨٦م، ج٤: ٢٩٠-٢٩٣.

الأوائل باتجاه الحبشة، وقد مدحهم الله تعالى في القرآن الكريم مهاجري الحبشة، رغم خروجهم من أفضل البلاد في المنظور الإسلامي لبلد آخر يعتنق أبناؤه دينا آخر، إن الحق عندما يضعف في بلد، ويقوى الباطل فيها، فإنه يحق للإنسان تركها عند عدم قدرته على إظهار دينه.[٨] ويمكن إلحاق حرية التعبير بهذا المبدأ، فإن العلة واحدة، وهي الإعلان عما نراه صوابا وحقا، وعند تعذر ذلك، وغلبة الباطل سواء الديني أو القيمي، فإن الخروج أولى.

- العدل والصدق:

برغم أن الهجرة للحبشة مثلت خيارا قاسيا إلا أنه لم يكن منه بد مع موجات التعذيب الوحشية التي حدثتنا عنها كتب السيرة [٩]، والتي طفحت بأنواع مختلفة من الإيذاء البدني والنفسي، فاضطر المسلمون للهجرة إثر ذلك. لكن لماذا الحبشة تحديدا؟ وهي بلد يبعد عن الجزيرة العربية ؟ لغته وديانته مختلفتان، ونظامه السياسي أكثر صرامة وحدة، ربما يحمل من المخاطر ما لا تحمله النظم القبلية التي ألفها المهاجرون في الجزيرة الربيةمن حولهم؛ ربما كان لشهرة الحبشة باعتبارها متجرا لقريش، دور في اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لها كمكان لهجرة أصحابه، لكن انطلق تفكيره صلى الله عليه وآله وسلم لقيمتين مهمتين في العلاقة بين الأمم هما قيمتا العدل والصدق، إنه عدل الملك وصدق الأرض وأهلها، إنها قيم الفطرة، التي يستطيع الكل الاستظلال بظلها والاطمئنان إليها؛ فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم عن النجاشي إنه ملك عادل لا يظلم عنده أحد، وقال عن الحبشة إنها أرض صدق،[١٠] والصدق سبب الأمن الرئيسي والأساسي، وحاجة الغريب للصدق ممن حوله أكبر من حاجته لأي شيء آخر، ذلك أن الصدق يعني توفير إطار يعوض الغريب واللاجيء عن القلق والاضطراب الذي يعانيه، فهو يصل لما لا يألفه، ولا يعرفه، وأن توصف أرض الحبشة بأنها أرض صدق، كان هذا عاملا مرجحا لها على ما عداها، فليس كل الأماكن سيصدق في الوعود المتوقعة منه، وليس كل مكان سيكون ملائما لراحة هؤلاء القوم الهاربين من عذاب قومهم، وعليه فهم في قلق وتوجس مما يحيط بهم. وقد ظهر الصدق والعدل في رفض النجاشي أن يحكم على المسلمين بمجرد كلام رسولي قريش إليه، أو مشورة رجال البلاط الذين ارتشوا، كما سأبين لاحقا، فقد كان النجاشي يعرف جيدا مشكلات بلده وبلاطه، ولهذا فطن تماما للفساد المستشري في مؤسسته، وألمح للبطانة إلى أن الله تعالى لم يأخذ منه رشوة ليعيد إليه حقه الشرعي في تولي الحكم، ولم يكمل مقصده بل على العكس تركها واضحة لتلك الفئة التي ساهمت أو ساهم جيلها السابق في انتزاع ملكه منه، والعبث بالبلاد.[١١] وأبرز العبر التي أخلص إليها ههنا، أن العدالة والصدق هما الضماناتان الأبرز لأي عمل إنساني مشترك بين الأمم، فالعدالة تعني إنجاز التعهدات والاتفاقات على وجه منصف لجميع الأطراف، أما الصدق فإنه هنا لا يعني فقط عدم المخادعة بل يعني منظومة من قيم الثقة والاحترام والجدية والالتزام المتبادل النابع من اليقين الصادق والورع والتجربة الدينية الرفيعة.

٨ تحدث عن هذه النظرة للهجرة إلى الحبشة، عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي في كتابه الروض الأنف، انظر: السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله، الروض الأنف، تحقيق: عمر السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ١٤٢١ هـ -٢٠٠٠م، ج٣: ١٥٠.

٩ انظر، ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، دار مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة -مصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥م، ج١: ٢٨٩-٣٢١.

١٠ ابن هشام، محمد بن عبد الملك، السيرة النبوية، ج١: ٣٢١ ، سنن البيهقي: ١٦٢٩٥.

١١ ابن هشام، مرجع سابق، ج١: ٣٣٣-٣٣٧.

- السلام:

يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «خير الأسماء عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة»[١٢].

إن الأسماء الدينية تعبر عن هوية المرء وعقيدته، بينما يعبر اسما الحارث وهمام عن الطبيعة الإنسانية،[١٣] وبناء على ذلك فإن قبح اسمي حرب ومرة، يرجع إلى أنهم يحملان معنى العدوان والاقتتال وعدم التفاعل أصلا وجلب المرارة، وبخلاف صدق اسمي الحارث وهمام في التعبير عن الطبيعة الإنسانية الساعية للعمل والجدية والفعل البناء، فإن اسمي حرب ومرة، يعبران عن الجوانب القبيحة الناتجة عن التفاعلات التي نشأت عن اسمي حارث وهمام، فإن السعي الإنساني للحرث، الذي أسس الحضارة بالبحث في تراب الأرض وغرس النبات فيها، والهمام الذي سمح للأفكار والخيال والطموح أن ينطلق أكثر في الآفاق، تصل في بعض الحالات لنقطة التعارض والنزاع، وقد ترتكس لهاوية حرب ومرة، وتتغافل عن قبح الأمرين، الحروب ومراراتها، وينبغي أن يتجنبها كل حارث همام، وأن يتقن فن السلام، الذي يمنع وقوعها، إن السلام في هذه الحالة هو قيمة مدركة عند الإنسان ناتجة عن معرفته الكاملة بقبح الحرب ومراراتها.

إن الهجرة التي تنتجها الحروب، تقود لتعطيل القوة الإنسانية الفاعلة (حارث)، والطموحات الإنسانية المتوثبة (همام)، ولهذا فإن الحاجة ماسة لتحريك وتحفيز المهاجرين من مناطق الحروب والمرارات لاستعادة قدراتهم وكفاءاتهم، وتقديم ما يمكنهم نحو مجتمعاتهم الأصلية التي قدموا منها، وتقديم الجديد لمجتمعاتهم الحاضنة.

- تلبية الاحتياجات الأساسية:

{الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ} (قريش: ٤).

١٢ (سنن أبي داود: ٤٣٠١، ومسند أحمد: ١٨٦٣٤، الأدب المفرد: ٩١١، سنن البيهقي: ١٧٧٦٧، المعجم الكبير للطبراني: ١٨٤١٨)

١٣ راجع في ذلك: ابن تيمية، الرسالة التدمرية، مرجع سابق، ٢١٣ -٢١٤،

في الآية المذكورة أعلاه، يمتن الله تعالى على قريش قبيلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بأنه يسر لهم الحصول على الطعام، والحصول على الأمن من الخوف، وبناء على هاتين الحاجتين تتأسس المجتمعات وتقوم، وبفقدانها، فلا بقاء لمجتمع إنساني بصورة صحيحة، وسليمة.

إن البحث عن حاجتي الغذاء والأمن، عامل أساسي اليوم في الهجرة، تسبب طويلا في أزمات عديدة، وما لم يجر حلها بصورة صحيحة وجذرية، فإن الهجرة لن تتوقف، بل قد تتشكل بصور أكثر بؤسا، وتقود لظواهر أكثر تعاسة وحزنا، بما لا يتفق مع الإنسانية.

إن قصة يوسف عليه السلام والمذكورة في الكتب المقدسة، تحدثنا عن القحط والجفاف والنزوح بسببه، وتحدثنا عن إنقاذ يوسف النبي لأهل مصر المخالفين له في الدين، وهو الغريب المسجون ظلما بينهم. القرآن الكريم: سورة يوسف عليه السلام كما يروي سفر التكوين (٣٨-٤٤).

لقد نجت مصر من مجاعة محققة، ونجت الأقوام المحيطة بها من مأساة كبيرة بسبب الإحساس الإنساني، والقيم الفطرية في احترام الحياة الإنسانية وحق الجميع في الغذاء والأمن، وهو أمر كرسه ولا شك يوسف عليه السلام كنبي، وملك مصر في ذلك الزمان حينما مكنه في الأرض، وشعب مصر حينما أدرك هذه القيم.

إن الهجرات تؤمن التبادل الحضاري والعلمي والفكري، ولكن يشترط لهذا التبادل والتفاعل أن تكون البيئة الجديدة مرحبة ومدركة لما تكسبه، وتدرك كذلك كيف يمكن تقليل الأضرار التي يمكن أن تحدث.

- التعامل بندِّية:

إن المهاجرين عادة ما يعانون من فقدان الثقة وكثير من الارتباك والمعاناة، خاصة مع الظروف القاسية التي يواجهونها، لكن يبقى من المهم التاكيد على أن ثقتهم في أنفسهم واعتزازهم بثقافتهم، هو سر تفاعلهم البناء والإيجابي مع الثقافات المستضيفة.

لقد عاشت المجتمعات القديمة تجارب متنوعة في اللجوء، وتكرست لديها طقوس وتقاليد في الحماية، فالعرب عرفوا الإجارة من القديم، بل إن هاجر عليها السلام وهي امرأة وحيدة، بجوارها نبع ماء، استضافت قبيلة جرهم برجالها الأشداء، الذين لم يفكروا إلا في الالتزام بعهدهم مع المرأة التي كانت جالسة لوحدها قرب نبع الماء المتدفق مع وليدها[١٤].

إن الاحترام المتبادل والثقة والأعراف الإنسانية الوطيدة تصنع إضافة للخوف من الله تعالى الإحساس الكبير بإمكان التعايش والتآلف وتحقيق الأهداف المشتركة.

إن المهاجرين في الحبشة واجهوا معضلة حقيقية، ولكنهم حلوها بهذه الروح الندية والواثقة من ذاتها، والواعية بثقافة المضيف، والقادرة على الحديث بوضوح وشفافية، وبأسلوب ينم عن كياسة ودبلوماسية عالية.

فقد نجح موفدو قريش في إقناع حاشية النجاشي بأن هؤلاء المهاجرين إلى بلادهم أتباع دين مخالف للأديان الأخرى، وبهذا فهم حركة مهرطقة مجهولة، وهذا لوحده مقلق لملك ومملكة، وأقنعوا الحاشية بأن هذه المجموعة مخالفة للنظام الاجتماعي الذي ينتمون إليه، وأن الطبقة العليا تعرف هذه المخالفات جيدا، وأنها ترغب في معاقبتهم على ما يقومون به، ولكن قيم الحوار والعقلانية انتصرت، فاستمع الملك للمهاجرين، وتحدث جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بثقة تامة وكاملة عن دينه ومعتقده، مفندا ادعاءات موفدي قريش، ونجح المهاجرون في مقاومة تشويه القرشيين للمعتقد الإسلامي القويم في المسيح عليه

١٤ شعب الإيمان، البيهقي، ٣٧٦٣.

السلام، ونجحوا في كسب تأييد الملك عبر وضوحهم الكامل في عرض قضيتهم، فقد تحدثوا بكل اليقين والوعي تمكن المهاجرون من الحديث بوعي كامل عن دينهم وإيمانهم وبصورة سليمة، فنجوا.[١٥]

وعندما وجد مصعب بن عمير رضي الله عنه نفسه في وسط وثني في المدينة المنورة، يواجه سادات المدينة، تحدث باللغة الواثقة الهادئة ذاتها، فنجح في توطئة الأرض لقدوم بقية المهاجرين وبهدوء.[١٦] وبرغم أن أنصاريا كريما كسعد بن الربيع رضي الله عنه عرض على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عرضا كريما، يتضمن نصف ثروته الشخصية، إلا أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه اكتفى بطلب واحد، أن يدله مضيفه الكريم على السوق. وفعل سعد بن الربيع رضي الله عنه، وانطلق ابن عوف رضي الله عنه، ليغدو من أثرى رجالات المدينة [١٧] ، ويساهم في دعم اقتصادها وقت الأزمات المختلفة بقوافل تجارية كاملة، وكان كثير النفقة والصدقة [١٨]. والأمر ذاته تكرر مع معظم المهاجرين، الذين اعتمدوا على أنفسهم، وتجنبوا تماما الاعتماد الكلي على الأنصار، بحيث رد كثيرون من المهاجرين لاحقا الأملاك التي وهبها بعض الأنصار لهم [١٩].

- الحوار والتعاون:

يقول تعالى: «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ» (المائدة: ١٤٨)، ويقول تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» (التين: ٤). فقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم وزوده بالعقل والوعي، ومكنه من التمييز، ولهذا فإن الحوار كقيمة حياتية مهمة فطرية، هو الموصل لطريق الاستقرار والإثمار، لهذا فإن خبرات المهاجرين المختلفة وحوارهم الواعي والهادىء مع الثقافات المحيطة، هو ما سيمكنهم من التفاعل البناء معها. إن هذه القيم الفطرية التي ظهرت في تجارب متنوعة البيئات وفي ظلال مختلف الرسالات توضح بجلاء أهمية القيم الفطرية في حياة الأمم، وأهمية بنائها لعلاقات أفضل مع المجتمعات المختلفة. وفي المقابل تعلم صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم من الحبشة وتجربتهم فيها صناعات مختلفة بعضها يدوي،[٢٠] والآخر طبي، وأدخلوها في حياتهم اليومية،[٢١] وقد نقلوا معهم قصصا مختلفة عن الحياة في الحبشة[٢٢]. والعمران الديني فيها.[٢٣] وقد رووا قصة امرأة مسنة من الحبشة تعرضت لمضايقة من شاب، أسقط جرة الماء التي كانت تحملها، فتوعدته بيوم الدينونة حيث ينصب الرحمن القضاء بين البشر جميعا، فيقتص لضعيفهم من قويهم، وقد صوب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كلامها، وزاد بأن الأمم تسقط عندما لا يؤخذ للضعيف حقه من القوي،[٢٤] وهذا يعبر عن ثمرات الحوار بين الحضارات المضيفة والمهاجرين.

- الحوار والقيم الفطرية:

كانت قيم الفطرة محورية في الحوار بين المهاجرين والنجاشي، فلا يمكن عرض الحوار عبر لغة ومجال قيمي غير واضح المعالم، والرجو للمشتركات هو أقرب

١٥ مسند أحمد: ١٦٧٦، ابن هشام السيرة النبوية، ج١: ٣٣٤-٣٣٩، المباركفوري، الرحيق المختوم، ٨٤-٨٥

١٦ ابن هشام، السيرة النبوية، مرجع سابق، ج١: ٤٣٣-٤٤٢

١٧ صحيح البخاري، كتاب المناقب، ٣٧٢٢

١٨ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة عبد الرحمن بن عوف، دار الرسالة، ١٤٢١ هـ -٢٠٠١م، ج١: ٧٦-٨٩

١٩ المباركفوري، الرحيق المختوم، ٣٤٣

٢٠ طبقات ابن سعد، ٥٧٧

٢١ الطبراني، المعجم الأوسط، ١٤٤١، والمستدرك: ٤٧٠٦

٢٢ ابن هشام، السيرة النبوية: ج١: ٣٣٩-٣٤٠

٢٣ البخاري، المناقب/ ٣٥٥٥. صحيح مسلم: باب المساجد: ٥٢٨

٢٤ الأوسط للطبراني: ٦٧٣٣، ابن ماجة: ٤٠٠٨، ابن حبان: ٥١٦٦ -٥١٦٧، ٧٠٣٨

الطرق لبناء لغة مشتركة بين الطرفين، ولهذا فقد نجح جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في الرجوع للقيم الفطرية، جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه معبرا عن بني جلدته وأبناء ملته المسلمين وعقيدتهم الدينية، واكتفى بتوضيح ثلاثة قضايا مهمة:

-حالة المجتمع الجاهلي.

-الدعوة الجديدة.

-الظلم الذي يتعرض له المسلمون في مكة.

لقد تحدث جعفر رضي الله عنه بحكمة تجاوزت منطق الحق الديني والباطل الديني، وانطلق نحو الحق كقيمة مدركة بالفطرة، والباطل كقيمة مدركة بالفطرة، فلم يكتف بالقول أن المجتمع الجاهلي وثني، بل شرح المظالم الاجتماعية التي تروج فيه، وكيف أن الدعوة الجديدة تأمر بمكارم الأخلاق والشعائر الدينية المتعارف عليها، إضافة لعقيدة التوحيد، وتحدث في المختتم عن الظلم الذي وقع على المسلمين في مكة.

كان لهذا الخطاب أبلغ الأثر عند النجاشي، فطلب استماع شيء مما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إلى آخر القصة المشهورة.[٢٥] وعندما تحاور مصعب بن عمير رضي الله عنه مع الأنصار كان لا يقرأ من القرآن شيئا أو يتحدث عن الإسلام، إلا أيقن الجميع أنهم أمام مكارم الأخلاق والاعتقادات.[٢٦]

إن الإحساس الفطري هو الإحساس الذي يكشف في كثير من الأحيان عن القيم المشتركة، ويعززها، ويسمح بالتأسيس للعلاقة بين البشر أن تأخذ أطوارا أبعد وأعمق آثرا.

- لا مكان للخوف:

تخبرنا قصص الهجرة عن الخوف لدى النخبة من التغير الذي تحدثه الهجرات، فقد تمرد الحبشة ضد ملكهم العادل، والتهمة كان التحول عن ديانته، وفي المقابل واجه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أزمة المنافقين في المدينة الذين لم يتقبلوا وجوده صلى الله عليه وآله وسلم، والتبعات السياسية التي يفرضها وجوده فيها، وتسببوا في كثير من المتاعب له.

لقد عالج النجاشي رضي الله عنه أزمته مع شعبه بالحكمة وتجنب العنف، بحيث لم يحارب إلا في أضيق الحدود،[٢٧] أما النبي صلى الله عليه وسلم، فقد واجه محاولات إثارة الفتنة المتكررة من قبل المنافقين وزعيمهم عبد الله بن أبي بن سلول بالحكمة والتسكين وتجنب إثارة القلاقل القبلية، وتجاوز الإساءات، وتسكين الفتن وإصلاح الخواطر.[٢٨]

- صوت نحو المستقبل:

لقد مثلت هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم تأسيس دولة المدينة، حيث بادر صلى الله عليه وآله وسلم بتكريس الوثيقة بين المهاجرين والأنصار برغم أنه كان يمكنه ألا يفعل ذلك، لكن كان من المهم توضيح شكل العلاقة بين المهاجرين والأنصار، لئلا يتسبب التفاعل اليومي في أي اختلال للحقوق والواجبات بين الطرفين، كما أنه بادر فعقد معاهدة تعم كل السكان في المدينة حسب أديانهم، فلم يعد وجود المهاجرين في المدينة يشكل هاجسا بالنسبة لأحد، وسمح ذلك بضبط العلاقات بين الأطراف كافة وبهدوء، وسمحت في الوقت ذاته بتجريد عناصر الفتنة من أي سلاح قد يستخدمونه في زرع الفتنة بين المهاجرين والأنصار أو بين المسلمين وغيرهم.[٢٩]

---

٢٥ مسند أحمد: ١٦٧٦، ابن هشام السيرة النبوية، ج١: ٣٣٤-٣٣٩، المباركفوري، الرحيق المختوم، ٨

٢٦ ابن هشام، مرجع سابق، ج١: ٤٣٤-٤٤٠

٢٧ راجع: ابن هشام، نفسه، ج١: ٣٣٨ و٣٤٠-٣٤١،

٢٨ انظر: ابن هشام، نفسه، ج١: ٥٨٤-٥٨٨. وج٢: ٢٩٠-٢٩٣، و٢٩٧-٣٠٣، والمباركفوري، مرجع سابق، ١٧٥

٢٩ المباركفوري، مرجع سابق، ١٦٧-١٧٥

وبناء الحقوق والواجبات بوضوح بين المهاجرين والمجتمعات المضيفة، يؤسس لعلاقة إيجابية وبناءة لصالح المجتمعات المضيفة، ولصالح المهاجرين، كما أن المجتمعات المضيفة ينبغي لها وبشكل واضح الإسهام الفعال في حل المشكلات التي بسببها وقعت الهجرة، خاصة تلك المتصلة بالقيم الإنسانية العامة كمنع الظلم وحماية الحريات، وذلك لصالح الإنسانية كأسرة واحدة.

فمن حقوق الإنسان الطبيعية البحث عن مرافيء الأمان بعيدا عن كير العبودية والظلم والاضطهاد،وذلك أمر مشروع أبانت عنه الديانات قاطبة، إما كضريبة للإصلاح أو الدعوة إليه، أو كبحث عن ملاذ آمن يشعر فيه المتدين بحريته الدينية أو يجد فيه حقوقه الطبيعية. إننا اليوم مطالبون بالاستماع أكثر لصوت تلك الديانات وما علمتنا إياه للنظر نحو المستقبل، والتأمل فيه، إن القانون الدولي الإنساني قد لا يكفي ما لم يكن ثمة وازع وضمير لدى المسؤولين والشعوب. الحضارات العظيمة هي التي تغرس الإحساس بالقيم الإنسانية في ضمير أبنائها، بما لا يكون معه استثناءات في هذا المضمار مطلقا، قد يمكن تسمية هذا الإحساس بتقوى الله تعالى، أو رهبة المقدس أو أي ما يكن، حتى عند من لا يؤمنون بأي عقيدة، يبدو الالتزام الأخلاقي شيئا ذا قيمة معنوية، تمنح الحياة شيئا من القداسة والطمأنينة اللازمة لها. وفقدان هذا الإحساس الذي أتحدث عنه، إنما هو إشكالية قديمة، منذ قتل ابن آدم الأول أخاه، وجاء الغراب ليعلمه كيف يواري سوأة أخيه، ولا توجد أي ضمانة من أي نوع بأن الانحدار الإنساني لن ينتهي إلا بتوافر العلم وقيم الفطرة التي تيد للإنسان احترامه لذاته وللآخرين من حوله، والتي تمنح الإنسانية السلام المأمول والانسجام المنشود.

نحو مقاربة ثقافية لظاهرة الهجرة

جميلة تِلوت

طبيعة كل ظاهرة كيفما كانت أنها تكون مركبة؛ إذ إن كل ظاهرة إنسانية تتداخل فيها جملة محددات وتصورات، وترتبط بعدد من الرؤى والذهنيات، وتفهم وتحلل بحسب السياقات، وتعد ظاهرة الهجرة من هذه الظواهر الاجتماعية التي يلزم لتحليلها التسلح بعدة منهجية ومعرفية قوية ومتشابكة تفككها وتحللها بغية فهمها، ودَرك عوائقها، واستشراف مآلاتها، أما النظر إليها من منظور واحد فقد يشوه الفهم، وفي أحسن الأحوال يمنحنا نصف الفهم، ونصف الفهم ليس بالأمر الجيد دوما، إذ قد يشوش النظر أكثر مما يجليه، ومردّ هذا إلى الاستغراق في النظر التخصصي للموضوع المركب، واعتباره «المقاربة العلمية» بدل عدّه «مقاربة جزئية تحتاج لمقاربات أخرى»، وهذا يعكس أزمة العلوم الإنسانية عموما، إذ «إن تطور المعرفة في اتجاه التخصص الدقيق من شأنه أن يجعل من حقل العلوم الإنسانية أدغالا تختفي فيها الغابة وراء الشجرة»[1].

وهذا يلزمنا جديا بالتفكير في مقاربة أشمل وأكثر ارتباطا بالمحددات الإنسانية والسياقات الزمانية والمكانية، إذ تتعالق في الهجرة مستويات إنسانية متداخلة وهي: المهاجرون أنفسهم، والآخرون الذين

1 Gustav, Sciences Humaines, Vol 14, 771.
وينظر كتاب: الجغرافيا القول فيها والقول عنها، محمد بلفقيه، الرباط: دار نشر المعرفة، ٢٠٠٢.

يبقون في بلادهم، والسكان الأصليون للبلد المهاجر إليه، وهذه الأبعاد الإنسانية تتحرك في حيز وفضاء وزمان وسياق، ومن ثمّ كانت هذه الأبعاد مجتمعة تختزن أبعادًا ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية. ومن ثمّ؛ فليس غرضي في هذه الدراسة تحليل ظاهرة الهجرة وتفكيكها، فذلك دونه دراسات وأبحاث وتخصصات؛ إذ يلزم لذلك تكامل مجموعة من المقاربات تراعي تقاطعات العلوم والمعارف، على رأسها علم الاجتماع والأنثربولوجيا والدين وعلم النفس الاجتماعي والاقتصاد المعرفي وتخصصات الجغرافيا وغيرها.

وأعترف بدءا أني لا أملك شرف هذا التخصص، لكني أتحدث من منطلق الدراسة وقراءة كثير مما كتب في الموضوع، بالإضافة إلى المقابلة المباشرة، واعتبار المحيط مختبرا أوليا يمنحنا، عند النظر المتبصر فيه، القدرة لأن نضع اليد على بعض أجزاء هذه الظاهرة؛ إذ إني نشأت في أسرة كثير من أفرادها مهاجر إلى دول أوربا وأمريكا والمشرق العربي، وبعد الحراك العربي ازداد تواصلي مع اللاجئين والنازحين في مختلف أرجاء العالم من مختلف الجنسيات العربية خصوصا السورية والمصرية واليمنية والليبية، وقد تأكد عندي أن دراسة ظاهرة المهاجرين من بلدان الحراك العربي يحتاج إلى تخصيص بالدراسة والبحث، مع التأكيد أنه يشترك في بعض قضاياه مع إشكال «الهجرة» في عمومه.

لذلك أحب أن أؤكد أن هذه المقالة الوجيزة لا تحاول تحليل الظاهرة في كليتها، وإنما تحاول تسليط الضوء فقط على بعض الزوايا المضمرة في فهم الظاهرة ومحاولة تحليلها من منظور ثقافي يجمع بين مقاربات الدين والنفس والاجتماع، مع التأكيد أن كثيرا من الإشكالات الواردة هنا تحاول أن تقارب إشكالات خاصة وجزئية ترتبط بواقع الهجرة اليوم، خصوصا بعد موجة اللجوء والنزوح بعد الحراك العربي.

وعليه؛ فإني أقرّ ابتداءً أن تعميم الكلام في هذه الظاهرة سيكون ضربا من المجازفة، لكني أومن بوجود قضايا مشتركة تتعلق بماهية الموضوع عند تحليل الظاهرة، لذلك سأعمل في هذه المقالة على مناقشة ما يؤطر هذه الظاهرة في كُليتها من منظور مركب يجمع بين الثقافة الإسلامية والاستفادة من مقاربات العلوم الإنسانية والاجتماعية، من أجل وضع اليد على بعض الظواهر المتعلقة بالبنيات والذهنيات؛ إذ لا ينفصل تحليل البنيات عن فهم الذهنيات، وأرجو أن يعيننا هذا النهج على تقديم تفسير مركب لبعض أجزاء هذه الظاهرة على أمل أن تتوالى البحوث المركبة التي تدرس جوانب أخرى التي تعمق الفهم والتحليل، وعلى الله قصد السبيل.

أولا- الهجرة وأنماط التدين:

الهجرة بين المخيال والواقع:

يرتبط مفهوم «الهجرة» في المخيال العربي الإسلامي بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، وقد قامت عددٌ من مقاربات ظاهرة «الهجرة» من المنظور الديني على أساس المقارنة؛ أي المقارنة بين الهجرة النبوية في التاريخ والهجرة الإنسانية اليوم، وقد تأثرت بعض الدراسات الغربية بهذا الربط[٢]، مع العلم أن الهجرة المدنية ليست أول هجرة في التاريخ الإسلامي، بل سبقتها الهجرة إلى الحبشة، لكن ميزة هذه الهجرة أنها شهدت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ثمّ كان هذا حدثًا مميزا ومشهودا، بل لأهميته غدت الهجرة معيار التأريخ الإسلامي.

ويجدر الإلماع إلى أن مقاصد الهجرة وإن اتفقت في عمومها، إلا أن أسبابها وتحدياتها وتمثلاتها تختلف،

٢ ينظر على سبيل المثال مقالة: إيريك جوفروا: إسلام أوربا: أو الجدلية الصعبة بين المحلي والكوني، ص١٨٧، منشور ضمن أعمال ندوة: الإسلام في أوربا: أي نموذج؟، المنظومة بالدار البيضاء يومي ٢٠ و٢١ يونيو ٢٠٠٩، الرباط: منشورات مجلس الجالية المغربية بالخارج، ٢٠١٢.

فلئن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بحثا عن أرض أفضل، بالابتعاد عن الاضطهاد الديني الذي آل إلى التضييق والتعذيب، فإننا إذا تأملنا مقاصد الهجرة اليوم، خصوصا بعد الحراك العربي، سنجد أن من بين أسبابها الهروب من الاضطهاد سواءً كان باسم الاستبداد السياسي أو الديني أو العسكري أو الفكري أو الاجتماعي، لكن هذا الفعل تسبقه مجموعة عوامل جيوسياسية واقتصادية أكبر من حجم الظاهرة، ومن ثمّ، كانت الأسباب متعددة ومتشابكة نظرا لتشابك الواقع وتعقده؛ فلا يمكن استدعاء هذه القضايا وإسقاطها كما هي لفهم ظواهر متغيرة ومتحركة، ففهم الواقع بنظارة التاريخ وحده قد يحجب أكثر مما يكشف، ويشوه أكثر مما يجلي، مع التأكيد أن استدعاء التاريخ مفيد لفهم عدد من الأفكار المشكلة للذهنيات، ومعين على تغيير عدد من التصورات، لكن يظل الواقع اليوم أكثر تركبا وتجددا.

لكن يمكن أن تزودنا حادثة الهجرة النبوية ببعض المعالم الكبرى المؤسسة لفقه المهجر في أسسه الكلية- بعيدا عن الأحكام الفقهية الجزئية، إذ ليس هذا محل بحثنا- إذ نفقه تعدد أنماط التدين واختلاف طرائق العيش الذي يجده المهاجر، وهذا من المعرفة الواجب الوعي بها، والإلمام بحيثياتها.

فقه أنماط التدين واختلاف طرائق العيش:

إذا نظرنا في أنموذج الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة باعتباره الأنموذج المثال في المخيال الإسلامي سنجده يضم جملة محددات تؤطر فقهَ أنماط التدين؛ فرغم الاتفاق في المعالم الكبرى للدين، إلا أن الفوارق الراجعة لاختلاف طرائق الفهم وتباين أنماط العيش تختلف؛ فهناك علاقة تأثير وتأثر مزودجة ومركبة، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم واعيا بهذا الأمر فسعى لشرحه لأصحابه المهاجرين المكيين كي يفهموا نمط عيش أهل المدينة ويدركوا طبيعة اجتماعهم؛ نستشف ذلك من مجموعة من الأحداث والوقائع؛ فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: زوجت عائشة ذات قرابة لها من الأنصار، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أهديتم الفتاة؟ قالوا: نعم. قال: أرسلتم معها من يغني؟ قالت: لا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الأنصار قوم فيهم غزل، فلو بعثتم معها من يقول: أتيناكم أتيناكم، فحيانا وحياكم»؟ [٣].

فهذا الحديث لا يستقى منه مجرد إباحة الغناء، كما هو معروف من الأحكام التشريعية في الفقه الإسلامي، وإنما النظر للحديث في سياقه يحيلنا إلى مسألة غاية في الأهمية، وهي ضرورة فهم نمط العيش الجديد الذي انتقل إليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المكيون، إذ يتباين «النمط المكّي» عن «النمط المدني»، وهذا التباين يتجاوز مجرد الاختلاف في تفاصيل اللهو والترفيه، إلى الاختلاف في طرائق العيش الأكثر حميمية، إذ تأثرت الأسرة المكية بالأسرة المدنية، وتغيرت جزئيا طبيعة العلاقات داخل الأسرة؛ ففي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «وكنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار» [٤]، إذ حصل تفاعل بين النمطين، فوقع تأثر وتأثير مزدوج، وإن كان التأثير في المهاجر المكي أكثر ظهورا كما تشهد بذلك النصوص.

ومن ثمّ، فحين نتحدث عن الهجرة اليوم، علينا استحضار أمرين رئيسين؛ وهما:

تعدد أنماط التدين:

إذ يلزم الوعي باختلاف الفهوم داخل نفس الدين، وهذا ما تجسد في تعدد المذاهب الفقهية وتأثيرها في منتسبيها عبر الزمان، إلى أن ترسخت مجموعة من

٣ سنن ابن ماجه، باب الغناء والدف، ح١٩٠٠، ٦١٢/١. مسند أحمد، ح١٥٢٠٩، ٣٨٠/٢٣.

٤ صحيح البخاري، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها، ح٥١٩١.

أنماط التدين التي تميز كل مجتمع عن غيره، فالاختلاف هنا فرعي لا كليا، يتجسد في الاتفاق في أصل الدين، والاختلاف في طرائق التدين، وقد كان لهذا الاختلاف تأثير في البيئات، فكانت المذهبية في التاريخ الإسلامي محددا من محددات التقسيم الجغرافي الذي يميز كل رقعة من الأرض عن غيرها.

ويقابله الاختلاف الكلي لاختلاف التصورات باختلاف الدين نفسه، لذلك يلزم التركيز على مبادئ المشترك الإنساني المؤسِّس للاجتماع المرحوم، والقائم على أخلاق الرحمانية والتعارف، وهذا ما يلزم الوعي به ليس فقط بالنسبة للمهاجر، بل أيضا المهاجر إليه، نظرا للاختلاف في التصورات الكلية التي تؤثر في طريقة العيش، وأمثل هنا ب»المهاجر المسلم»، إذ يؤمن بدين يلزم بمجموعة من التشريعات التي تؤطر الظاهر والباطن، وتوجه حركة المسلم في الفضاء العام، وأجلى مثال على ذلك «لباس المرأة المسلمة»؛ إذ يقتضي الإسلام أن تلتزم المرأة اختيارًا بلباس معين سمته التحجب لا التكشف، وتجد المرأة التي تلبس الحجاب عائقا أكبر في المجتمعات غير المسلمة، ويتجلى أثر هذا اللباس في ممارسة الرياضة في المدارس، خصوصا رياضة السباحة ولباسها المتصف بالتكشف، والتكشف في الفضاء العام وأمام غير المحارم مناقض للقناعات الدينية لعموم المسلمات، وقد كان هذا الأمر محل إشكال كبير في المجتمعات الغربية قديما وحديثا، ونجد فيه دراسات من الباحثين لمحاولة فهم الظاهرة والعمل على توفير سبل الإدماج، فكانت الأنشطة الرياضية مؤشرات لقياس درجة إدماج المرأة [5] !

اختلاف طرائق العيش:

تختلف طرائق العيش والحياة من منطقة لأخرى

5 une approche singulière de l'évaluation des niveaux d'intégration sociale des femmes arabo-musulmanes ; issues de l'immigration maghrébine en France : Corps, sport et analyse conative, Mohamed Khamailia, Jacques Mikulovic, Gilles Bui-Xuân. Staps 2011 /4, n94 ; P3961- .

بحسب المميزات الثقافية والاختلافات المكانية والزمانية، وهذا ما يجعل لكل مكان بصمة خاصة تميزه عن غيره عمرانا وإنسانا؛ فالتنظير العُمراني المبدع مثلا يأبى ما يسمى بالمدن الكونية الكوزموبوليتانية إلا في «المعمار» والظواهر المادية، أما حين نحلل ذهنيات المجتمع وطرائق عيشه سنجد لكل مجتمع خصوصيات متعددة، هي التي تشكل ثقافته، وكل مجتمع لا ينسج ثقافة خاصة تميزه عن مجتمع آخر، فليس باجتماع سويّ.

وكلما تركب الواقع واختلفت الذهنيات، كلما كانت طرائق العيش أكثر اختلافا وتباينا، الأمر الذي يلزم الوعي به من جهتين؛ المهاجر والمقيم.

وتجدر الإشارة إلى أن المقاربة الدينية الإسلامية قد حرصت، من منظور الفقه أو الفكر، على خلق هذا الإدماج والتكييف عن طريق ما يسمى «فقه الأقليات»[٦] – مع التحفظ الشديد على التسمية-، رغبةً في مسايرة واقع المسلمين في المجتمعات غير المسلمة بالعمل على خلق فتاوى تراعي البيئة الجديدة، وظهور منظورات جديدة منتقدة لعدد من التصورات التي شكلت مخيال البعض من قبيل «دار الإسلام ودار الكفر»، والتي تنطلق من تقسيم جغرافي على أساس الدين جاء في سياقات الحروب واستمر في التاريخ، وهو مباين لجوهر الدين.

وعموما، فإن عددا من الدراسات المندرجة تحت مسميات «فقه الأقليات»، وإن أسهمت جزئيا في تكييف المسلمين مع «البيئة الجديدة»، إلا أنها تظل غير كافية ولا وافية بمقتضيات التوفيق بين الأنماط المختلفة للتدين؛ إذ يلزم العمل على التأسيس المعرفي الإسلامي للاجتماع المرحوم، والعمل على تغيير عدد من التصورات الذهنية التي تحول دون قيامه؛ سواء بالنسبة للمهاجر أو المهاجر إليه، ومن ثم؛ فإنه يلزم الاشتغال على الذهنيات الباطنة بالموازاة مع التفقه في التشريعات الظاهرة على حدّ سواء، حتى لا تصير المقاربات الإسلامية ضربا من الترقيع الفجّ الذي يعزز النظر الأداتي الآلياتي، بالإغراق في التبيئة والتكييف الجزئيين دون النظر إلى الظاهرة في تعالقاتها الاجتماعية والإنسانية.

ثانيا- سيكولوجيا المهاجر وفوضى الحواس:

لا يمكن فهم ظاهرة الهجرة أو تحليلها دون العروج على البعد السيكولوجي للظاهرة، وذلك بالنظر إلى ما يكتنفها من أبعاد لا واعية تعكس الأبعاد الخفية لذهنية المهاجر والمهاجر إليه؛ إذ إن «الحياة الواعية للروح البشرية لا تشكل إلا جزءا ضعيفا جدا بالقياس إلى حياتها اللاواعية»[٧].

وإذ يصعب تعداد الأبعاد وفق هذه المقاربة، فإني سأقتصر على بعضها فقط، والتي قد يرى منها أنها أبعاد سلبية، إلا أن السّلبي قد يجعلنا نفهم الظاهرة أكثر من ترقيعها بإيجابيات سطحية.

ويفيدنا علم النفس الاجتماعي وعلم النفس المعرفي لفهم كثير من الحيثيات المتعلقة بالموضوع، إذ «معرفة أحوال الجماعات النفسي ضروري سواء أردنا من ذلك جانبها العملي أو الرغبة في مجرد الوقوف على ما هو كائن، فمن المفيد استكناه أسباب الأفعال التي تصدر عن الإنسان، كما أنه من المفيد معرفة حقيقة المعدن أو الغراس»[٨]، وذلك لأن عددا من الأفكار المؤسسة للذهنيات تظهر في تفاصيل حياة المهاجر أو المهاجر إليه.

٦ ينظر على سبيل المثال لا الحصر «في فقه الأقليات المسلمة» للدكتور يوسف القرضاوي، «صناعة الفتوى وفقه الأقليات» للدكتور عبد الله بن بيه، بالإضافة إلى ما يصدره المجلس الأوربي للبحوث والإفتاء من دراسات فقهية...

٧ سيكولوجية الجماهير، غوستاف لوبون، ص٥٧، ترجمة وتقديم: هاشم صالح، بيروت: دار الساقي، ط١، ١٩٩١.

٨ روح الاجتماع، غوستاف لوبون، ص٢١، ترجمة: أحمد فتحي زغلول باشا، القاهرة: المشروع القومي للترجمة، ط١، ٢٠٠٥.

المهاجر الراغب في الحياة:

لو تأملنا جوهر «الهجرة» في التاريخ والواقع، لوجدناها تعكس رغبة دفينة في الحياة، والابتعاد عن أسباب الموت، فالهجرة هي بشكل من الأشكال إرادة للحياة والعيش في واقع أفضل، فيصير الحيز متغيرا، والثابت الوحيد في فعل الهجرة هو معادلة الأرض والحركة، فبمقدار ما نبتعد عن الجذور وعن «الأرض الموات»، تزداد قدرتنا على الإغناء والاغتناء حتى بالخيرات التي ليس لها طابع مادي صرف»[٩] ، وسر الدينامية المميزة لفعل الهجرة «يكمن بالضبط في عدم إيلائه اهتماما يذكر لمسألة الحدود (وطنية، حضارية، إيديولوجية، دينية) وفي معايشته الملموسة لأشياء ترقى إلى مصاف الكوني»[١٠] ، إذن فـ «كل عملية نزوح فردية تعد نصرا لروح التحدي البشري والإصرار على البقاء وتجسيدا للشجاعة والابتكار في التغلب على قيود البيروقراطية التي يفرضها الأغنياء المتوجسون» [١١].

المهاجر الغريب:

أول نعت يرتبط بالمهاجر هو الغريب، فإذا كان يمكن أن نصف المهاجر بوصف دالّ فلا نجد أبرز من وصف «الغربة»، حتى إننا في التداول المغربي نطلق على البلد المهاجر إليه ببلد «الغربة»، فصارت الهجرة رديفة للغربة، ومن ثمّ؛ فإن كانت الهجرة اسما لمسمى الانتقال، فإن الغربة هي وصف هذا المسمى وجوهره.

والغربة ليست غربة مكان و إنسان فقط، بل غربة اجتماع، إذ يختلط المهاجر المغترب باجتماع جديد، قد يختلف في تدينه وعيشه ولغته وثقافته وحضارته، ويظل الحنين الدائم هو المشترك بين «المهاجرين»، فنجد عددا من الكتاب والشعراء المهاجرين ينشغلون بكتابة قصائد الحنين والنوستالجيا إلى الوطن الأم.

وتتعدد أسباب هذا الاغتراب، وتزداد مع الإحساس بالريبة تجاه المهاجر، وتؤكد عدد من الدراسات أن المهاجر شخص مريب في المجتمع المستقر، والريبة هنا أشبه بريبة الرومان تجاه البربر، إذ ترى أن البربري يحل بمكان ويلقي بحجرة في بركة سكينة المقيمين، وهو مرشح مستقبلا لخلق الفلتان وإثارة الفوضى وكل ما لم يكن متوقع الحدوث. فـ «لا شيء يقض مضجع البيروقراطي أكثر من حرية التائهين»[١٢] .

فالريبة والخوف يشكلان الوصف المرتبط بالمهاجر الغريب، وكما يقول زيجمونت باومان فإن «صحبة الغرباء مخيفة (وإن لم تكن مقلقة دائما)، ذلك لأنه من طبيعة الغرباء، في مقابل طبيعة الأصدقاء والأعداء، أن مقاصدهم وطرق تفكيرهم واستجاباتهم للمواقف المشتركة مجهولة، أو ليست معروفة بالقدر الكافي الذي يسمح بحساب احتمالات سلوكهم. فوجود الغرباء حالة مزمنة ومتأصلة لعدم القدرة على التنبؤ، وذلك يعني أن الغرباء يجسدون المخاطرة»[١٣].

المهاجر المقهور:

تتعزز سيكولوجيا الاغتراب بالإحساس الدائم بالرفض؛ سواءً أكان رفضا وجوديا أو ثقافيا، وهما في المآل واحد، إذ إن الإنسان كائن بيوثقافي، فيتحول المهاجر من غريب إلى مقهور في غربته، ولا ريب أن سيكولوجيا القهر تولد رغبة في التمسك بالثقافة الأم، وكلما ازداد معدل الرّفض قابله رفضٌ لا واعٍ للثقافة الجديدة، إذ يرى فيها خصما لثقافته «المرفوضة»، إذ ترفضه وتمجه وتسعى لتغييره، وكلما ازداد منسوب

٩ في الحل والترحال: عن أشكال التيه المعاصرة، ميشيل مافيزولي، ص١٤٥، ترجمة: عبد الله زارو، الدار البيضاء: دار إفريقيا الشرق، ط١، ٢٠١٠.

١٠ في الحل والترحال، ٦٥.

١١ الهجرة: كيف تؤثر في عالمنا؟ بول كولير، ترجمة مصطفى ناصر، سلسلة عالم المعرفة، أغسطس ٢٠١٦، ٤٣٩، ص١٧.

١٢ الإمبراطورية والبرابرة الجدد، روفان، ص٧٣-٦٥-٨٤.. وينظر: في الحل والترحال، ص٣٩.

١٣ الحياة السائلة، زيجمونت باومان، ص١٠٩.ترجمة: حجاج أبو جبر، سلسلة الفقه الاستراتيجي، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط١، ٢٠١٦.

الرفض الثقافي قابله الكره، وإذا تعزز بروافد أخرى قد يصير كيدًا. وهذه إحدى الأسباب السيكوثقافية الجوهرية لظاهرة التشدد في الغرب، وهي جزء مهم لفهم هذه الظاهرة التي تزداد يوما عن يوما في صفوف المهاجرين المسلمين في أوربا.

وقد كانت بوادر هذا الرفض الثقافي مع بدايات بعض الدراسات الأنثربولوجية التي عززت فكرة الإسلام فوبيا، كما فعل كلود ستروس، محذرا من التأثير الخطير للإسلام الداخلي على هوية فرنسا ومستقبلها»[١٤]، خصوصا في كتابه «مدارات حزينة»[١٥].

وهذا ما تجلى عنه توجس عدد من من الدارسين من ظاهرة الهجرة، أي هجرة الجنوب إلى الشمال، واعتبارها هجمة استعمارية مضادة، واتخاذها صيغة الثأر من الجهة التي استعمرت بلاد الإنسان في يوم من الأيام[١٦] كما تعزز هذا الأمر بتأثير سياسيات اليمين المتطرف على تكريس عداء المهاجرين بعدد من الدول، وتكريس هذا العداء إعلاميا وثقافيا وسياسيا أيضا، والإسهام في خلق توجس دائم من المهاجرين، واعتبار أبناء المهاجرين الذين ولدوا بتلك الدول بمثابة جيش داخلي يهدد استقرار الوطن.[١٧]

١٤ إثنولوجيا الإسلام في «مدارات حزينة» لكلود ليفي ستروس، لطفي بوشنتوف، ص٤٩، منشور ضمن: الأنثربولوجيا من البنيوية إلى التأويلية، الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، ٢٠١٤.

١٥ غير أن ما كتبه عن الإسلام تميز بالأسلوب المباشر والتقريري، مع التعبير الصريح عن موقف غير مستسيغ لمختلف تجلياته المعتقدية والطقوسية. وقد أحرج حديث كلود ليفي ستروس عن الإسلام مترجم المدارات وناشرها، فتصرفا في النص الأصلي بالحذف، مرة بالتنبيه على ذلك ومرات من دون إشارة. ينظر: إثنولوجيا الإسلام في مدارات حزينة لكلود ليفي ستروس، لطفي بوشنتوف، ص٤٩.

١٦ ينظر: الهجرة كيف تؤثر في عالمنا، بول كولبير، مرجع سابق، ص١٨.

١٧ هناك نماذج متعددة لهذا الأمر، منها تصريحات لكبار الساسة بأوربا. ولمزيد من التفصيل ينظر: المسلمون في أوربا: اندماج خاضع لإكراهات دولية، جوسلين سيزاري، ص٣١، منشور ضمن أعمال ندوة: الإسلام في أوربا: أي نموجد، والمنظمة يومي ٢٠ و٢١ يونيو ٢٠٠٩، الرباط: مجلس الجالية المغربية بالخارج،

بهذا التفسير المسطح الذي سعت إلى نشره السياسات الإعلامية، والذي يضع المسلمين بين موقف الاعتذار والتبرير أو الصدام المباشر، تتزعزع الهويات، ويصبح الانتماء محلّ سؤال، وتغدو المواطنة الفِعلية حقًا مقتصرا على فئات دون أخرى واقعًا.

وقد تجلت سياسة فوبيا الإسلام في التضييق على المهاجرين المسلمين بعد كل اعتداء موسوم بالإرهاب، دون تمييز بين الإرهاب والإسلام، والعمل على الترويج لذلك إعلاميا، فإذا كان الثقافات كلها تميز بين مستويات الفهومات الردايكالية لأي ايديولوجيا، فإن منطق الإعلاموفوبيا الغربي، في عمومه، يكرس راديكالية الإسلام.

ومن ثمّ، قوبل الخوف من الدين الإسلامي بالخوف عليه، ومنطق الخوف على الدين والثقافة هو الذي يجعل تكريس الانتماء أكثر قوة وضغطا، خصوصا بالنسبة للأطفال، ولو تأملنا مثلا ما كتبه جيفري لانغ في كتابه «ضياع ديني: صرخة المسلمين في الغرب»، وحكايته لرسائل المسلمين الذي يشتكون من مدرسين يحقرون الإسلام في الصف، لتأكد عندنا هذا الهلع في عقول ونفوس مسلمي أمريكا مثلا. وتكريس هذا الأمر بكثير من الإجراءات الظالمة من قبيل إهمال الأعياد الإسلامية في المدارس إهمالا كليا، وإجبار الطلبة المسلمين مثلا على الاشتراك في احتفالات الأعياد اليهودية أو المسيحية، فيكون «المسلم الملتزم بشعائر دينه خارج السرب الرئيسي»[١٨]، كما عبر بذلك جيفري لانغ.

المهاجر التائه:

دراسة سيكولوجيا التيه لا تقتصر فقط على ظاهرة الهجرة، لكنها في الهجرة أبينُ وأظهرُ، ويمكن تعميم القول إنها توج في جميع «أصناف المهاجر»، مع تفاوت الدرجات، ويمكن وصف كثير من اللاجئين اليوم بالتيه، إذ يرحلون اضطرارا ولا يعرفون الأرض الميعاد، فالمهاجر التائه فاقد للاستقرار والسلام في موطنه، مما اضطره إلى الانتقال إلى أرض تحفظ نفسه ومُهجته، وتفضيل المستقبل المجهول على الموت المحتم، ونجد أن كثيرا من هؤلاء هاجروا لبلدان تختلف معهم في نمط التدين والعيش. ف»التائه في أعين المقيم المستقر هو على الدوام مثير للقلق وحامل بين جنبيه لأحلام معقدة. إنها أحلام لم يتنازل عنها، وأحلام لا تتوقف عن إنعاش حياته وتحتفظ به دائما على السكة، سكة الطريق السالكة»[١٩].

كما أن الحديث عن التيه ليس حديثا عن إحساس سلبي بالضرورة، إذ يختزن قدرة على التأسيس لا يستهان بها، «إذا كان هذا واضحا من الناحية الثقافية فهو كذلك على المستوى الفردي، طالما سلمنا بالتفاعل الحاصل بين الثقافي والفردي، وأن لهذا الأخير أهمية لا يستهان بها في إطار «البناء الاجتماعي للواقع»»[٢٠]، فإذا «كان التيه من منظور المؤسَّس والقائم من الأوضاع يحيل على النقص واللاكتمال والمحدودية، وإذا كان من الجائز اعتباره امتحانا لا مناص من اجتيازه، فمن المؤكد أنه يتيح أيضا لصاحبه فرصة حدس الكمال، وهو ما لا تتيحه الأشياء القارة والقائمة رغم ما تدعيه من كمال وامتلاء. هي ذي «وظيفة التيه»، إنها التنبيه إلى الكمال الآتي وإعمال تفكير «تدريجي» لا تقدمي فحسب. إنها أيضا الرهان على صيغة خيميائية تجعل من التيه والخطأ والشر والآخر والتعدد عناصر صائغة للفرد والمجتمع برمته. وهذا بالضبط ما يرفع التيه إلى

١٨ ضياع ديني، صرخة المسلمين في الغرب، جيفري لانغ، ص٢٠. ترجمة: إبراهيم يحيى الشهابي، دمشق: دار الفكر؛ بيروت: دار الفكر المعاصر، ط١، ٢٠٠٧.

١٩ في الحل والترحال، ص١٥٩.

٢٠ المرجع السابق، ص١٧١.

مستوى البنية الأنثربولوجية المسنودة إلى مسار معقد قوامه خلطة من العناصر المتنافرة تتحين دوما توازنا قادما» [٢١].

ثالثا- نحو اجتماع مرحوم:

الهجرة بين إشكال الإيديولوجيا وتحولات الجغرافيا:

الهجرة انتقال من مكان إلى مكان، وهذا الانتقال يوحي بأن الأرض مساحة متحركة، ولكل جغرافيا مميزاتها الثقافية، فالأرض مساحات وأمكنة، لكنها رحم أمومي، يسعُ مَن هم منها وإليها يرجعون، وفكرة الانتقال في الأرض من الشرق إلى الغرب، أو العكس، أو من الشمال إلى الجنوب، أو العكس، يتخللها امتزاج ثقافي وتعارف إنساني، و«إن كل امتزاج ثقافي بين الشرق والغرب يحيل بالضرورة على «كثافة المرجعيات»، وهي كثافة ديناميكية لأنها تفتح للرغبة المجال من أجل مضاعفة «مسالكها الوجودية الثرة»، وشق طريقها الخاص» [٢٢].

والهجرة تمهد لهذه الكثافة الثقافية، فالمهاجر متعدد الروافد الثقافية «التي لا مناص من الاعتراف بها وما يترتب عن كل ذلك من تعالقات اجتماعية تثري، جميعها، المعرفة وتفتحها على مرجعيات شتى إلى أن تصير بمستوى الامتلاء. هذا الامتلاء الذي تنكره عليها النزعتان العقلانية والوضعية» [٢٣] .

لكن إشكال هذا التنوع الثقافي أنه يصدم بفكرة العولمة ومن أسسها ومخرجاتها في نفس الآن فكرة «النهايات»؛ إذ غدا حلم «نهاية الإيديولوجيا» هدفا في مجتمع الحداثة، لكن ثبت أنه كلما حاربنا الإيديولوجيا كلما زاد بريقها ووقع التشبث بها، وهذا التشبث له صور متعددة بعضها اندفاعي.. وبدل أن يتحقق حلم تشظي الثقافة الأصل في ذهنية المهاجر، إذا بالصورة المتطرفة تجعله ينقل محاولات التشظي إلى الواقع، وقد يجد في النص ما يسعفه في ذلك، فنحن هنا أمام سياق يفرض الانتقاء النّصي.

ونموذج التشظي هو النموذج المتطرف، وكما قيل فإن الأمثلة المتطرفة تصلح دوما لتكون مفتاحا منهجيا لفهم وضعيات أقل تطرفا [٢٤]، ونلحظ أن هذا النموذج يعكس لنا بقوة «إشكال الإيديولوجيا» مقابل «تحولات الجغرافيا»، ونلحظ أن كثيرا من مساعي حلّه تنطلق من اختلاف الفهم مما تزيد من تأزيمه وتشويهه، إذ عجزنا عن فهم الظاهرة بين مدرسة النصوصية، التي يمثلها جمهرة المثقفين الدينيين، والمدرسة الواقعية التي يمثلها علماء الاجتماع والأنثربولوجيا وغيرهم، دون سعي حقيقي للجمع بين الأمرين وإعادة الفهم والتركيب لاستشراف أمثل للحلول.

ومن ثمّ، فإن فرض ما يسمى اليوم بـ «القيم الكونية» الواجب الامتثال لها ولمقتضياتها العالمية يعد فعلا إقصائيا، إذ ينم عن جهل بنواميس «الكون» القائمة على التنوع الثقافي، ومن مخرجات هذا التنوع تشكلُ خصوصيات المجتمعات وتنوعها، إلا أن السياسة التدجينية للعولمة حالت دون تثمين هذا التنوع، إذ حاولت «جاهدة إنتاج الآخر على صورة ذاتها، أي سعت نحو سحب الحضارات المستعمرة إلى تجانس ثقافي مع مركباتها الثقافية العامة [٢٥]».

٢١ المرجع السابق، ص١٧٧.

٢٢ باربيي، «من جهة علوم التربية، التواشج، المفهوم المفتاح للخلطة الثقافية بين الشرق والغرب» ضمن: بول دوبال، سفريات في صميم العلوم الاجتماعي، في التواشج، ج١،٢٦١. في الحل والترحال، ص١٨٠

٢٣ في الحل والترحال، ص١٨٠.

٢٤ في الحل والترحال، ص١٦٣.

٢٥ مقدمة في أنثربولوجيا العولمة، ص١١٤. دمشق: دار صفحات، ط١، ٢٠١١. والتجانس هنا مصطلح أساسي في دراسات العولمة، إذ يقصد به أن الأشياء تصبح نفسها تماما. وقد يكون هذا أمرا سياسيا أو ممارسات ثقافية أو اللغة أو المنتجات الاستهلاكية...

فليس الحديث عن القيم الكونية ترفًا فكريا اليوم، وإنما هو، عند التأمل، مدخل إقصائي يعتبر كل من خالفه خارج الكون، ومن ثمّ، خارج الأرض، و»على حد تعبير جورج لارين، فإن الهوية الثقافية الأوربية، ومن منظور عقل الحداثة والنظريات العالمية، ترى ذاتها المركز حيث يصنع التاريخ، وتحدد كل فرد آخر بصفته خارجيا أو محيطا»[٢٦] ، وهذا ما ترجمته البراغماتية الكولونيالية، بالتخفي وراء حجج نقل الحضارة الأوربية إلى الذين هم أقل حظا منها؛ وكي تضمن نجاحها في أداء هذه المهمة كانت مجبرة على احتلال المناطق التي يقطنها سكان تلك الأمم [٢٧]!

الجسد الاجتماعي المشترك:

تكشف ظاهرة الهجرة عموما والهجرة الجماعية خصوصا عن مآلات جديدة تلزم بإعادة النظر في مجموعة من المفاهيم والتصورات العلمية، فالهجرة انتقال من وطن، ويقوم الوطن على محددات جغرافية تتأسس على فكرة الحد، بل إن فعل الهجرة تجاوز مسألة الحد، وساءل تصوراتنا لمفهوم الأرض في علاقته بمفهوم الانتقال/الهجرة الذي يحيل على «طي المسافة».

فمنظورنا الثقافي للهجرة يرتبط وجودا وعدما بتصورنا للأرض وعلاقتنا معها، وإن التفكير في هذا الأفق العلائقي سينجم عنه التأسيس المعرفي لما يمكن وسمه بالجسد الاجتماعي الجديد، له قوانينه التي تعتبر كينونة الجميع داخل الاجتماع الجديد، ويكون تعدد المرجعيات إغناءً للجسد المشترك، واعترافا بحق الإنسان في وجوده الثقافي، ويصير للمكوث داخل المساحة اعتباره الخاص الذي يؤثر في القانون المدبر للأرض، فعندما يخترق المهاجر الحواجز فإنه يدعونا، لربما عن غير وعي، إلى صنف من الاختلاط يكون القانون بمقتضاه آتيا من الآخر، والوجود الذاتي متوقفا على الآخر، وهو ما يهب للجسم الاجتماعي تماسكه ودلالته الملموسة تماما [٢٨].

ولا يلزم من الاعتراف بالإنسان باعتبارها كائنا بيوثقافيا الخوف من إضعاف النماذج الاجتماعية القائمة، كما نلمس في عدد من الدراسات [٢٩]، كما لا يلزم بالمقابل التغيير الإجباري للثقافات، وإنما الحرص على تغيير الذهنيات تجاه التنوع الثقافي، والحرص على الارتقاء بالمجتمعات الإنسانية بتجذير «الأخلاق الرحمانية»، وهذا يلزمه اشتغال كبير في عوالم الأفكار والذهنيات اليوم، لأن الذي يحكم الناس مجتمعين، كما يقول غوستاف لوبون، إنما هي الأفكار والمشاعر والعادات، وكلها أمور موجودة فينا، وحينئذ ليس القوانين والنظامات إلا صورة من صور النفس العامة التي لنا، وممثلة حاجاتها، وإذا كانت القوانين والنظامات صادرة عن النفس فهي لن تستطيع تغييرها [٣٠].

الاجتماع المتحرك:

إن الناظر لفعل الهجرة يلحظ أن سمتَه الحركةُ، فالهجرة انتقال، وفعل الانتقال حركة لا سكون، وهي حركة فيزيائية وثقافية، ويتجلى هذا الأمر في نقل الثقافة والعادات إلى الأرض الجديدة، فكل مهاجر هو وطن متحرك بقيمه وثقافاته وعاداته..وهذه الحمولة الاجتماعية والثقافية للوطن هي ما جعلتنا نسِم هذا المبحث بـ«الاجتماع المتحرك»؛ فداخل قلب كل

٢٦ ينظر: الآيديولوجيا والهوية الثقافية: الحداثة وحضور العالم الثالث، جورج لارين، ترجمة: فريال حسن أحمد، ص٧٨، مصر: مكتبة مدبولي، ط١، ٢٠٠٢.

٢٧ روح الأنوار، تزفيتان تودروف، ص٣٤، ترجمة: حافظ قويعة، بيروت: دار الفارابي، ط١، ٢٠٠٧.

٢٨ ينظر: في الحل والترحال، ص٦٥. وقد كان مافيزولي يتحدث هنا عن التائه، فاستصحبت النتيجة للحديث عن المهاجر.

٢٩ ينظر على سبيل المثال دراسة بول كلبير: الهجرة كيف تؤثر في عالمنا، ص١٤٠.

٣٠ روح الاجتماع، جوستاف لوبون، ص٤.

مهاجر وطن في الداخل، وتزداد غربة المهاجر بقدر رفض المجتمع الجديد للوطن الأم، ويزداد الوصال مع الوطن الداخلي بالانتقال منه حقيقة ليستوطن باطنًا، إذ إننا «عندما ننتمي إلى مكان، ننسج انطلاقا منه علاقات وروابط، وحتى تكون لذلك المكان وتلك العلاقات دلالة ما من الضروري هجرها وتجاوزها وانتهاكها على المستوى الواقعي والاستيهامي. نحن إزاء ما يميز، بقوة، كل إحساس تراجيدي بالحياة والوجود»[٣١].

فالمهاجر راحل عن «أرض» وعابر سبيل في «أرض»، يحنّ دوما إلى وطنه الذي بقلبه.. والترحال وعدم الاستقرار يثبت مبدأ الحركة داخل الفضاء، ويصيّر الأرض متحركة، فتختل الخرائط والحدود، ويصير المعطى الجغرافي عائقا بدل أن يكون مفسّرا.

إن فعل الهجرة يستبطن ظهور اليوتوبيا ابتداءً، وسقوطها انتهاء، خصوصا حين الانخراط في مجتمع لا يمنع فرصة التفكير في التعالي المتجاوز للنطاق الوجودي المكاني، وحقيق علينا عند تحليل هذه الظاهرة أن نعيد النظر في مفاهيمنا الأساسية عن الأرض والمساحة والحدود والخرائط، إذ «إن الأرض التي يفترض أن يقف عليها مستقبلنا إنما هي أرض رخوة بكل تأكيد، تماما مثل وظائفنا والشركات التي تعرضها، وشركاء حياتنا وشبكات أصدقائنا، ومكانتنا في المجتمع ككل»[٣٢] .

وعليه، فإنه «لا قيمة للأرض إلا إذا ساهمت في إدخال الناس بعلاقاتهم وإحالتهم على أشياء وأمكنة أخرى وكل القيم المصاحبة لها مصاحبة الظل لصاحبه. هكذا نتمثل النزعة النسبية في هذا المقام بحسبانها تساعد على التعالق وربط الصلات وتصريف التواصل» [٣٣].

ومن ثمّ؛ فإن كل خطط الإدماج التي تصادم ثقافة «المهاجر» وتعارضها تعدّ قاصرة، بل يمكن اعتبارها حاملة لبذور التشدد الواقع في الغرب خصوصا، والذي قد يثمر تطرفا، وإذا تعضد بعوامل أخرى سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية صار تفجيرًا، ومن ثمّ؛ يلزم البحث في السُّبل التي تجذّر الإحساس بالانتماء، وتحتضن «الوطن في قلب كل مهاجر»، وتثمن فكرة «الاجتماع المتحرك» بخصوصياته الثقافية، فهذا الاعتراف الثقافي بالإنسان، أحد أهم موانع استدعاء الإنسان الأفكار المتطرفة من النص ليسوغ بها تطرف الواقع، فيشرع لتطرف الأرض بنص السماء.

على سبيل الختم: رحِمية الأرض ورحمة الإنسان:

الأرض رحِم بين الناس، ونجد في القرآن الكريم ربطا بديعًا بين الهجرة وسَعة الأرض، {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا} [النساء: ٩٧]، {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً} [النساء: ١٠٠]، فالتصور القرآني للهجرة مرتبط بسعة الأرض ورحِميتها، وهذه العلاقة الحميمية مع الأرض الواسعة تستلزم بالضرورة اتساع أفق الإنسان في علاقاته الإنسانية والعمرانية المؤسسة على قيم «الرحمة» المتعدية تجاه الإنسان والأرض بمن فوقها وتحتها، والكون من حولها.

فالرحمة الإنسانية متجاوزة الإنسان نفسه ومتعددة الأبعاد، ونجد الآيات القرآنية غنية بهذه الدلالات التي ترقى بأحوال الاجتماع، فالتنوع والتعدد سمة الاجتماع الإنساني، ولا وجود لمجتمع أحادي الثقافة. لذلك كان الاختلاف حقيقة لا مفر منها، بل كان الاختلاف أحد مقاصد الخلق والتكوين، كما جاء في القرآن الكريم: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً

٣١ في الحل والترحال، ص٧٠.
٣٢ الحياة السائلة، زيجمونت باومان، ص٩٩.
٣٣ في الحل والترحال، ص٨٠.

وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [هود: ١١٨، ١١٩]، وتفيد اللام في «لذلك» التعليل الذي يستفاد منه أن الاختلاف مقصد الخلق والتكوين، فالعمد إلى تنميط الثقافات تحت مسميات الكونية الأحادية القطب سيؤدي إلى العدمية الثقافية والوجودية؛ إذ إن فكرة وجود «الآخر» المختلف عن «الأنا» هو أساس فكرة الحوار، الذي هو تفاعل بين مختلفين وذاتين وتصورين، فهذا الرافد التكويني المؤسس على ثقافة الاختلاف مدخل لتغيير تصورنا عن الهجرة وكيفية التعامل معها كي يصير التعارف الثقافي أساس الإسهام والمشاركة الفعالة في الارتقاء بأحوال الاجتماع والعمران.

والتأسس على قيمة الرحمة من خصوصيات التداول الإسلامي، فكما يقول ابن عربي في فصوص الحكم: «الرحمة على الحقيقة نسبة من الراحم، وهي الموجبة للحكم، وهي الراحمة. والذي أوجدها في المرحوم ما أوجدها ليرحمه به وإنما أوجدها ليرحم بها من قامت به»، وليتأمل قوله «وإنما أوجدها ليرحم بها من قامت به».. أي أوجد الله الرحمة ليرحم بها الإنسان أخاه الإنسان فيصير الكل راحما ومرحوما في نفس الآن.. فتنغرس المعاني الرحمانية في النفوس والأرواح.. وتتجلى في الأعمال والأقوال.. وترقى بها أحوال الاجتماع..

ولا سبيل إلى الاجتماع المرحوم إلا بالتشبع بحقيقة الرحمة والتجلي الإنساني الحر لمكنوناتها مع التبصر بمعانيها والعمل بمقتضياتها..فيغدو الإنسان عنوانَ الرحمانية!

هنا نحتاج من جديد إلى إعادة النظر في قيم الفطرة والرحمانية باعتبارها أسس المشترك الإنساني من منظورنا الإسلامي، لا للتأسيس لكونية إسلامية، وإنما امتثالا لرحمة الرسالة والمقصد والإسهام في تشكيل الجسد الاجتماعي المشترك، وكما تقول د.هبة رؤوف عزت: «إن قرآنا يخاطب الذين لا يؤمنون برسالة محمد بآيات مثل «يا أيها الناس» و«يا أيها الإنسان» و«يا بني آدم» يجدر بمن يحمله أن يتعلم كيف يخاطب الناس أجمعين والإنسانية كلها»[٣٤] .

وهذا النظر المتجاوز سيكون رافدا قويا لفهم الهجرة كظاهرة صحية لا مرضية، والسعي إلى التفكير في طبيعة المحددات الثقافية لاجتماع جديد سمته الرحمة «الاجتماع المرحوم»، وفق معادلة تخدم فكرة الانتماء الثقافي المفتوح بتثمين التنوع والاختلاف، وتسعى لتجذير الانتماء للمشترك الإنساني، وتطوير العلاقة بالرحِم الأرضي.

وفي الختام، فإني أعترف أن حجم ظاهرة الهجرة كبير، ويصعب الإمساك بها، كما أن الإشكالات التي تحتويها أكبر من أن تسردها هذه الدراسة، وهذا يؤكد شساعة مساحة الظاهرة، وتركب أبعادها، وتداخل مستوياتها، ومن ثمّ؛ فهذه المقالة محاولة للاستشكال لا الجواب، وتنتظر هذه الكلمات التي دونتها إسهامات أخرى وفق مقاربات أكثر تركيبا وشمولية لأبعاد الظاهرة عسانا نفهم!

٣٤ نحو عمران جديد. هبة رؤوف عزت، ص٤٨، سلسلة الفقه الاستراتيجي، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط١، ٢٠١٥،

الهجرة والتهجير من منظور ديانات التوحيد

الدكتور علي بن مبارك

«وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إلى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا»

[النساء: ٩٧-٩٩]

ترتبط الهجرة مفهوما وإجراءً بالعمران البشري كما حدّد معالمه عبد الرحمان بن خلدون (ت ١٤٠٦ م)، فالإنسان في الأصل كائن مهاجر بطبيعته، ولم يفكّر في الاستقرار إلاّ في مراحل متأخرة من مسيرته التاريخية، فالجماعات البشرية الأولى كانت تنتقل من مكان إلى آخر تبحث عن الماء والزاد والأمان، وكلّما تراجعت مقومات الحياة في تلك الربوع أو افتقد الأمان، ضربت الجماعة في الأرض من جديد تبحث لها عن موطن آخر يقيها مخاطر الحياة، واضطرّ الإنسان البدائي في عصور الجليد أن ينتقل من مكان إلى آخر هروبا من البلد القارس، خاصة قبل أن يكتشف الإنسان النار وقبل أن تخذ له ألبسة من جلود الحيوانات ثمّ من صنعه وابتكاره.

لقد هاجر الإنسان منذ جوده في الكون بحثا عن أسباب الحياة، وتعرض للمخاطر والمهالك، واستطاع أن يحمي نوعه من خلال هجراته المتكرّرة، وتطوّر مفهوم الهجرة مع تغيّر السياقات وتعاقب المراحل التاريخية، إذ ارتبطت الهجرة في القرون الوسطى بالبحث عن الأمن في زمن هيمن فيه الاستبداد والظلم، وسادت فيه الحروب والفتن، وشاعت فيه الغارات والسرقات، وأبيدت فيه قرى وجماعات، فكان الناس يتنقلون من مكان إلى آخر بحثا عن الأمان والاستقرار، وكانت الجماعات الدينية المقهورة والمضطهَدة تهاجر بعيدا عن نظار الجماعات المهيمنة، وتتخذ لها الجبال والأماكن الوعرة موطنا لها، تقيها شرّ الأعداء، وما زلنا نجد هذه الاقليات الدينية تعيش هذه الأماكن الصعبة والأمصار النائية.

الهجرة كلمة مشتقة من الجذر الثلاثي «هجر»، وهَجَرَ الرجل الشيءَ أَو الشخصَ هَجْرًا، وهِجْرانًا: تركه وأَعرضَ عنه، وتعني الهجرة في هذا السياق المعجمي انتقال الأَفراد من مكان إِلى آخرَ جديد سعياً وراءَ الرزق والأمن، وحفاظا على أسباب الحياة، كما يقصد بها في الاصطلاح السياسي انتقال الشخص أو الأشخاص من مكان إقامتهم الأصلي إلى مكانٍ آخر، بهدف الاستقرار فيه لفترة طويلة دون الانتقال أو السفر إلى مكانٍ آخر.

وجدير بالذكر أنّ المواثيق الدولية تعتبر الهجرة أو الانتقال من مكان إلى آخر حقاً من حقوق الإنسان، فالإنسان من حقه أن يهاجر إلى أيّ مكان يريد، وأن

يسافر وينتقل ويستقرّ حيثما يريد، بشرط أن لا توجد موانع قانونية تحول دون هجرته إلى ذلك البلد أو الاستقرار فيه. وبناءً على ما سبق يمكن أن نميّز بين عدّة أشكال من الهجرة، فقد تكون الهجرة اختيارية أو قصرية، وقد تكون الهجرة خارجية أو داخلية وقد تكون الهجرة دائمة ومؤقتة، فالهجرة الاختيارية لم تكن سائدة في المجتمعات القديمة لأنّ الإنسان كان مجبرا على الهجرة من مكان إلى آخر اتقاء مخاطر الطبيعة وشر الأعداء، فهو مستهدف في كلّ الحالات، ولكن لإنسان استطاع أن يسيطر على الطبيعة وأن يضبط العلاقات البشرية بمواثيق قانونية وأخلاقية، وأصبح العالم في العصر الحديث يشهد استقرارا نسبيا وإن انتشرت فيه الحروب والفتن، أصبحت جغرافيا العالم واضحة، والحدود بين الدول جليّة، والعلاقات بينها محدّدة، ولم تعد الهجرة القصرية أمرا مقبولا في الأعراف الدولية، ولكن رغم ذلك نجد سياسة تهجير تمارسها بعض الدول العنصرية مثل إسرائيل، التي لا تتوارى عن تهجير الفلسطينيين وإبعادهم قصر وقهر عن مواطنهم، وترتبط الهجرة القصرية بحالة من المظلومية والقهر وانتهاك حقوق الإنسان وخاصة حقه في الحياة الآمنة.

ولا نبالغ إذا ذهبنا إلى القول بأنّ الهجرة الاختيارية لا توجد إلاّ في حالات نادرة، يختار فيها الشخص الهجرة من وطنه إلى وطن آخر بحثا عن حياة أفضل تستجيب إلى حاجياته النفسية والفكرية، وما نعتبرها اليوم هجرة اختيارية يقوم بها الشباب العربي في اتجاه أوروبا، ليست في حقيقة الأمر إلاّ هجرة إجبارية فرضتها ظروف الحرب وما يعانيه الإنسان العربي من قهر وتجويع، إنّ ما نراه اليوم من حشود مهاجرة إلى أروبا عبر البحر والبرّ، وما تجابه من مخاطر، يعكس حالة الفقر والظلم والفساد التي تعيشها الدول يهجرها شبابها، فليس من السهل أن يختار المرء الهجرة والابتعاد عن الوطن والأهل والأصدقاء والتاريخ والذكريات.

قد تكون الهجرة دائمة، لا يعود بعدها المهاجر إلى موطنه، وقد تكون مؤقتة، ينفر بعدها المهاجر إلى وطنه

من جديد، حينما تتغير الأوضاع وتنتفي الأسباب التي كانت وراء هجرته أو تهجيره من وطنه، وجدير بالذكر أنّ الهجرة الدائمة تؤثر كثيرا على ثقافة المهاجرين وميولاتهم، فالجماعات المهاجرة تتأثر بالبيئات التي تستقر فيها، فتؤثر على لغاتها ومعتقداتها وعاداتها وتقاليدها، فالشعوب الهندوأروبية كانت في الأصل عرقا واحدا، ولكنها بحكم هجرتها إلى بقاع مختلفة من العام أصبحت مختلفة في لغاتها وثقافاتها وأديانها، ولعلّ القارئ يستغرب من وجود الثقافة الفارسية ضمن الثقافات الهندوأوروبية [١] ، ولكنها أصبحت ثقافة مختلفة تماما عن الثقافة الأوروبية من حيث اللغة وحروفها، والمعتقد وبناء شخصية الإنسان، ولذلك تأثرت الديانات بالهجرات التي مرت بها وإن كانت هجرات قصرية فرضت عليها فرضا.

ويمكن أن نستشهد بتاريخ الديانات الإبراهيمية التوحيدية، فتاريخها تاريخ هجرة بامتياز، إذ خضع اليهود المسيحيون والمسلمون لحركة هجرة معقدة ساهمت في بلوة الفكر الديني وتطوير مقالاته العقدية والاجتماعية، فالفكر اليهودي على سبيل المثال تبلور بصفة كبيرة إبّان الأسر الأوّل والثاني، إذ أسر ملك آشور (سنحاريب) يهود مملكة الشمال(مملكة إسرائيل) سنة ٦٨١ ق م بعد إضاعة إسقاط ملكهم، وأخذ الآشوريون اليهود سبايا إلى آشور [٢]، وبعد سقوط مملكة الآشوريين على يد البابليين، أطاح الملك البابلي نبوخذ نصر بمملكة الجنوب (مملكة يهوذا)، وألحقها بملك بابل واتفق مع أهلها على أداء الجزية، ولكنّ سكانها تمرّدوا سنة ٥٩٣ ق م، ثم سنة ٥٨٨ ق م في عهد الامبراطور البابلي «صدقيا» (Zedekiah)، فهجم على أورشليم عاصمة المملكة وأخذ يهودها سبايا إلى بابل[٣] ، ولقد أثرت هذه الهجرة البابلية في الفكر اليهودي وتعاليمه الدينية، إذ شكلت عقيدة الشتات جوهر الديانة اليهودية لقرون من الزمن، وفي هذه المرحلة كتب اليهود تلمودهم [٤]، ليصبح أهمّ كتاب مقدّس يهودي في العصور الوسطى، ويعكس هذا الكتاب المقدس أحلام اليهود وآلامهم، واستطاع لفكر الصهيوني أن يستثمر هذه النصوص ويستغل تلك الأحلام اليائسة ليقترح مشروعه الاستعماري ويستولي على أرض فلسطين ويهجّر الفلسطينيين، ويشنّع بهم.

ولم يكن تاريخ المسيحية استثناءً، بل نجدها تحتضن فكرة الهجرة منذ بداياتها، ونجد في الأناجيل[٥] حديثا عن مدن وقرى وأرياف تنقل بينها المسيح مبشرا برسالته، فكان المسيح بذلك فكرا متنقلا مهاجرا على الدوام، زار فلسطين وجنوب لبنان حتى مدينة صور وصيدا وحولهما جليل الأمم، وجنوب سوريا وجبل الشيخ وهضبة الجولان ومحافظة القنيطرة حتى بحيرة طبريا والحولة، ونهر ووادي الأردن، ومصر من شمالها حتى وسطها وجنوبها، وسار الرسل على مسيرته، فهاجر القدّيس بولس إلى عدّة مدن، فزار دمشق و طرسوس وقيصرية و أنطاكيا، وقبرص وأسبانيا، وأثينا، وروما، وكريت، ومالطة، ونينوى، وأزمير(...).

واحتفت المسيحية كما هو حال اليهودية والإسلام بصورة الأنبياء المهاجرين المتنقلين من مصر إلى آخر، ومن مدينة إلى أخرى، وهذا يعني من منظور ديانات التوحيد أنّ الرسالة لا تخصّ مجموعة ضيقة من البشر أو حيّزا محدّدا من الجغرافيا، بل تهمّ مجموعة واسعة من الناس داخل الجماعة الواحدة كما هو حال اليهودية، أو كل البشر كما هو حال المسيحية والإسلام، ولذلك نجد اهتماما كبيرا في

١ أول من استعمل هذا المصطلح توماس يونغ سنة ١٨١٣، بعد اكتشافه الأصول المشتركة بين اللغات الأوروبية واللغات الهندية وبالإضافة إلى الفارسية والأوردو والأرمينية، وتنتمي مئات اللغات إلى هذه العائلة اللغوية.

٢ مملكة ظهرت وتوسعت ببلاد الرافدين في الألفية الثانية قبل الميلاد، وعرفت المملكة ازدهارا على كلّ الأصعدة.

٣ ويل ديورانت، قصة الحضارة، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨، ج٢ ص٣٤٨

٤ يسمى التلمود البابلي أو تلمود بابل عند اليهود «جمارا»، وهي كلمة تعني بالآرامية «تلمود»، وهذه الكلمة انتشرت وأصبحت مألوفة في أوساط جموع الدارسين،واصطلاح «تلمود» قديم ومعناه التعلم والتفسير.

٥ المقصود الأناجيل القانونية التي تقرّها الكنيسة وهي: إنجيل يوحنا وإنجيل متى وإنجيل لوقا وإنجيل مرقس.

المسيحية بالحديث عن هجرة القديسين، ونجد في هذا الموضوع أناشيد وأغاني ورسومات.

ركّز الإسلام بدوره على الهجرة مفهوما وإجراءً، فشجّع الرسول صلّى الله عليه وسلّم صحابته للهجرة والابتعاد عن مكّة تجنبا لبطش كفار قريش، ولقد لاقى الرسول من أهله وعشيرته ما لاقاه غيره من الأنبياء من بطش وتجبّر، فجاب بدوره الأمصار، متنقلا بين المدن والقرى، مبشرا بالرسالة وباحثا عمّن يناصره، خرج الرسول إلى الطائف مستنصرا بها فلاقى من أهلها ما لاقى من الأذى، واستمر أهل الطائف في إيذائه صلى الله عليه وسلم حتى اضطروه إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة من سادات أهل الطائف، وقاوم الرسول العظم تلك الصعاب وتحمّل العذاب، لأنّه يدرك أنّ الظلام سيزول، وأنّ الحق سينتصر. فكانت الهجرة الأولى[٦] للحبشة تلتها هجرة ثانية[٧] ، إذ اشتدّ بطش كفار قريش، فضايقوا المسلمين، واستهدفوهم في أموالهم وأبنائهم، وطلب الرسول من صحابته الهجرة إلى الحبشة أو ما تعرف في التاريخ بمملكة أكسوم، وخاطبهم قائلا:»لو خرجتم إلى أرض الحبشة؟ فإنّ بها ملكا لا يُظلم عنده أحد، وهي - أرض صدق - حتى يجعل الله لكم فرجا ممّا أنتم فيه» [٨]، وهاجر ثلّة من المسلمين المستضعفين متجهين إلى الحبشة، وروى الواقدي أنّ خروجهم إليها كان في رجب سنة خمس من البعثة، وأنّ أوّل من هاجر منهم أحد عشر رجلا وأربع نسوة، وأنهم انتهوا إلى البحر ما بين ماش وراكب، فاستأجروا سفينة بنصف دينار إلى الحبشة، وهم عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو حذيفة بن عتبة وامرأته سهلة بنت سهيل، والزبير بن العوام ومصعب بن عمير وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة بنت أبي أمية، وعثمان بن مظعون وعامر بن ربيعة العنزي وامرأته ليلى بنت أبي حثمة، وأبو سبرة بن أبي رهم، وربما كان العدد أكثر من ذلك [٩] .

تعتبر هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة مرحلة مهمّة من مراحل نشأة الإسلام وتطوّره، ولم يكن اختيار ملك الحبشة اعتباطيا، بل كان عملا مقصودا مفعم بالمعاني والدلالات، فالهجرة سنّة الأنبياء والصالحين، ولذلك امتدح الرسول صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله، لأنّه أول من هاجر من ديار المسلمين صحبة أهله، فقال فيه الرسول: « إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام[١٠]»، ونفهم من هذا الحديث أنّ الهجرة من أجل انتصار الحقّ ونصرة أهله عرفت منذ القديم، وحفّز عليها الأنبياء، ودعا إليها الوحي، فكل الأنبياء عانوا من

٦ تعود الهجرة الأولى للحبشة إلى السنة الخامسة للبعثة، وضمت فوجا مكوناً من اثني عشر رجلاً و أربع نسوة، كان في مقدمتهم عثمان بن عفان رضي الله عنه، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رحيلهم تسللاً تحت جنح الظلام حتى لا تشعر بهم قريش، فخرجوا إلى البحر عن طريق جدة، فوجدوا سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة، ولما علمت قريش بخبرهم خرجت في إثرهم، وما وصلت إلى الشاطئ إلا وكانوا قد غادروه في طريقهم إلى الحبشة، حيث وجدوا الأمن والأمان، ولقوا الحفاوة والإكرام من ملكها النجاشي الذي كان لا يظلم عنده أحد، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم .

٧ لـمَّا قدم أصحاب الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم مكة من الهجرة الأولى، أشتدّ عليهم قومهم ولقوا منهم أذى شديداً، فأذن لهم الرسول صلَّى الله عليه وسلّم في الهجرة إلى الحبشة مرّة ثانية، وكان عدد الذين خرجوا في الهجرة الثانية ثلاثة وثمانين رجلاً واثنتي عشرة امرأة من قريش، وسبع نساء أخريات من غيرها، وأقام المهاجرون بأرض الحبشة عند ملكها النجاشي في أحسن جوار.

٨ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، دار عالم الكتب، بيروت، ٢٠٠٣، ج٤، ص ١٦٧ (باب هجرة من هاجر من أصحاب رسول الله من مكة إلى أرض الحبشة فرارا بدينهم من الفتنة)

٩ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، المصدر نفسه، ص١٦٦

١٠ ابن كثير، المصدر نفسه، ج٤، ص ١٦٧.

اضطهاد المتنفذين في عصرهم وسطوتهم، وجاء في القرآن الكريم أنهم كانوا يهددون بالطرد والنفي والتهجير: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [11]، فالهجرة يقابلها الرضوخ والمهانة والمذلة والقبول بالباطل، وفي نفس السياق جاء على لسان مشركي مدْيَن الى نبيهم شُعيب عليه السلام {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [12]، كما هدّد آزر ابنه إبراهيم عليه السلام بالرجم وآذنه بالطرد: {قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا} [13]، واذعن ابراهيم وهاجر {قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا..} [14]، وهذا يعني أنّ الهجرة سنة الأنبياء، القرآن خاطب الرسول محمد واعلمه أن الهجرة دأب الأسبقين من الأنبياء {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ} [15].

كانت هجرة الأنبياء حركة نحو التغيير وتحقيق المنشود، فالإنسان يحتاج غلى تغيير المكان حينما يضيق به، حتى يستطيع مواصلة نضاله في الحياة، وهذا ما نجده في قول الإمام الشافعي:

إذا ما ضاق صدرك من بلاد
ترحل طالبا أرضا سواها
عجبت لمن يقيم بأرض ذل
وأرض الله واسعة فضاها
فذاك من الرجال قليل عقل
بليد ليس يعلم ما طحاها
فإنك واجد أرضا بأرض
ونفسك لم تجد نفسا سواها

١١ إبراهيم: ١٣.
١٢ الأعراف:٨٨.
١٣ مريم: ٤٦.
١٤ مريم: ٤٧.
١٥ محمد: ١٣.

كشفت هجرة الحبشة عن فلسفة إسلامية وعن رؤية تواصلية ترى أنّ المسيحية لا تناقض الإسلام في جوهرها، وأنّها خير نصير للمسلمين زمن الضائقة، وفي هذا الإطار يندرج قوله تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّٰهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّٰلِحِينَ * فَأَثَٰبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ} [16].

وذهب المفسرون والمؤرخون والإخباريون في تأويل هذه الآيات عدّة مذاهب، وجاء عن ابن اسحاق: «سألت ابن شهاب الزهري عن هؤلاء الآيات فيمن أنزلن؟.. فقال لي: ما زلت أسمع من علمائنا أنهنّ أنزلن في النجاشي وأصحابه»، وهذا يعني أنّ الإسلام قدّر ما فعله النجاشي تجاه المسلمين المستنجدين به، ولقد امتدحه الرسول صلى الله عليه وسلم وترحم عليه بعد وفاته وصلى عليه الجنازة.

وروت إحدى المهاجرات الأول إلى الحبشة، وهي أم سلمة، والتي أصبحت زوجة للرسول الكريم، أخبار تلك الهجرة الأولى للمسلمين، وحسن استقبال النجاشي لهم، ودورهم في التعريف بدينهم الإسلامي الحنيف، فقالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نلقى أذى، ولا نسمع شيئا نكرهه، وهذا يعني أنّ التفهم بين المسلمين والمسيحيين ممكن، ورغم محاولة كفار قريش إفساد الود بين المسلمين ومسيحيي الحبشة، إلاّ أنّهم فشلوا في ذلك. عمل كفار قريش على إخراج الرسول صلى الله عليه وسلّم وصحابته من

١٦ المائدة: ٨٢-٨٥.

مكة حتى لا يزداد تأثيره على الناس، ولذلك اعتمدوا سياسة تهجير منظمة، وضايقوا على المسلمين، ولقد نبه الوحي الإسلامي إلى هذا الأمر، فجاء في محكم تنزيله: {أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [١٧]، لقد أصبحت الهجرة ضرورة ملحة، تقتضيها حاجة الرسالة وحالة من اتبعها، وجاء الوحي صريحا لا لبس فيه يطلب من من المسلمين الهجرة إلى المدينة لجمع الشمل وتوحيد كلمتهم ومواجهة العدو المتربص بهه، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ، قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ، قَالُوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا، إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً، فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا، وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [١٨].

ولقد ذهب التستري في تأويل هذه الآية مذهبا طريفا جاء فيه أنّ المهاجر في الإسلام: «مَنْ هَاجَرَ في الله عما سوى الله، وصحح قَصَده إلى الله وَجَدَ فسحة في عقوة الكَرَم، ومقيلاً في ذرى القبول، وحياة وَسَعةً في كنف القرب» [١٩]، وأية ذلك أنّ « والمهاجر - في الحقيقة - من هجر نَفْسَه وهواه، ولا يصحُّ ذلك إلا بانسلاخه عن جميع مراداته، ومَنْ قَصَدَه ثم أدركه الأجلُ قبل وصوله فلا ينزل إلا بساحات وصله، ولا يكون محطُّ روحه إلا أوطان قربه» [٢٠]، فهذا يعني أن

١٧ التوبة: ١٣.

١٨ النساء: ٩٧-٩٩.

١٩ انظر موقع التفاسير: www.altafsir.com

٢٠ المصدر نفسه.

الهجرة النبوية لم تكن مجرّد انتقال من مكان إلى آخر، أو استبدال قوم بغيرهم، ولكنها أصبحت حركة رمزية تهدف إلى التطهر من الماضي واستشراف المستقبل، فالهجرة كما جاء في الحديث النبوي تهدم ما كان قبلها [٢١]، وندرك من خلال ذلك أهمية الهجرة في بناء الشخصية المسلمة وتحقيق توازنها، فالمسلم يحتاج دوما إلى الهجرة حاجته إلى الحج.

لم تكن الهجرة في الإسلام مجرّد حدث تاريخي حتمته الظروف والسياقات، بل كانت رحلة نحو الحضارة والمدنية، فالهجرة اعتناق لأفكار جديدة وقطع مع الماضي بكلّ تراكماته ومقالاته، فالهجرة هجرة الذات نجو المثل والقيم، لقد كانت المدينة رمزا للحضارة الإسلامية الجديدة القائمة على العمل والعلم والإبداع ومنفعة الآخرين، ولذلك كانت الهجرة رحلة من البداوة إلى الحضارة في بعدها الإنساني، وعلى هذا الأساس نهى الرسول صلى الله عليه وسلّم في عدّة أحاديث عن العودة إلى البداوة بعد الهجرة [٢٢]، وما المقابلة بين البداوة والهجرة إلاّ مقارنة بين منظومتين ثقافيتين: منظومة مرتبطة بالقديم واعرافه الفكرية والروحية، وأخرى جديدة بشر بها الإسلام وحقّقها المسلمون عبر التاريخ، إنها الرؤية الحضارية المدنية التي دافع عنها الإسلام وحفّز عليها، واستطاع المسلمون من خلال هذا الذهنية الحضارية أن يؤسسوا دولة قوية ممتدة على عدة قارات، كما استطاعوا الإبداع في عدة مجالات فنية وأدبية وعلمية ومعمارية، وكانت إضافتهم النوعية لا مثيل لها في تاريخ الإنسانية، وهكذا ندرك أن الهجرة وجهت المسلمين نحو منهج

٢١ عن عمرو بن العاص قال: أتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: ابسط يمينك فلأُبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضتُ يدي، قال: «ما لك يا عمرو؟»، قال: قلت: أردت أن أشترطَ، قال: «تشترط بماذا؟»، قلت: أن يغفرَ لي، قال: «أما علِمتَ أن الإسلام يهدِم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدِم ما كان قبلها، وأن الحج يهدِم ما كان قبله».

٢٢ نجد في هذا المعنى عدّة أحاديث نبوية، انظر مثلا مسند الحاكم، حديث عدد ١٤٣٠.

جديد في الحياة، قد نحتاج إلى بعض معالمه اليوم.

ترتبط الهجرة في أعماقها الكامنة ببواطن الحياة البشرية، فتقيم الأفكار والسلوك على أسس حضارية قويمة، ترتكز على الإصلاح والصلاحومحاربة الفساد والحفاظ على الحياة الانسانية والأمن والاستقرار، ولهذا كانت تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم متكاملة في تحديد معنى الهجرة على أساس أنها عبادة ترتبط بعقيدة الانسان وإيمانه، وأيضا باعتبارها عملية بناء وإصلاح تأخذ بيد الانسانية المعذبة إلى شاطئ الأمان والاطمئنان، فالهجرة من هذا المنظور تعني هجر السيئات والمعاصي والمفاسد القولية منها والعملية، كما تعني انتصار المسلم لقيمه ومبادئه، والسموّ بها على الرغبات وشهوات، فالنبي صلى الله عليه وسلم ترك أهله وبلده في سبيل تمكين دينه، وإيجاد مركز انطلاقٍ لدعوته، غادر مكة ولسانه يقول إنك أحب بقاع الأرض إليَّ، ولم يثنه هذا الحب عن التضحية ليرتحل وسط مخاطر الطريق وطولها، ومخاطر الملاحقة والتهديد بالقتل والانتقام من قريش، ليؤسس دولة العدل والحرية، وينشر دينه في كل بقاع العالم.

كانت الهجرة النبوية تكليفا من الله تعالى للرسول عليه الصلاة والسلام وليس تشريفا كما حصل في حادثة الاسراء والمعراج، وهذا يعني أنّ الرسول وصحابته هاجروا من مكة بوحي من الله عز وجل وليس فقط فرارا من أذى قريش وبطشهم، إنّه الفرار إلى الله عز وجل وهجر القيم القديمة البالية، لذلك ارتبطت الهجرة ببناء المسجد وبناء السوق وتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والتشجيع على الصناعة والزراعة، وانتقلت المجتمع العربي من مجتمع يتكلم إلى مجتمع يعمل ويفعل.

ولا نبالغ إذا ذهبنا إلى القول بأنّ الهجرة النبوية كانت منعرجا في تاريخ الأمة العربية، وانتقلت بالحضارة العربية نحو مرحلة جديد يعبر عنها الشاعر العراقي « وليد الأعظمى » وهو يخاطب رسول الله في قصيدته «يا هجرة المصطفى»

هاجرت لله تبغي نصر دعوتنا
وتسأل الله نجحاً في مباديها
هاجرت يا سيد الأكوان متجهاً
نحو المدينة داراً كنت تبغيها
هذي المدينة قد لاحت طلائعها
والبشر من أهلها يعلو نواصيها
أهل المدينة أنصار الرسول لهم
في الخلد دور أُعدت في أعاليها

أخذت الهجرة في العصر الحديث أبعادا أخرى، فكانت في عمومها تهجيرا أكثر منها هجرة، إذا تعاني البشرية اليوم ومنذ عقود من الزمن من حالات من التهجير القصري، اقترن هذا التهجير بجرائم ارتكبت في حق الجماعات والأفراد، يحدثنا التاريخ عن ملوك طغاة أبادوا مدنا وقرى وهجّروا جماعات بشرية لأسباب عقدية أو طائفية أو مذهبية او اجتماعية أو سياسية، وما زلنا نرى اليوم هذه الممارسات التي تتنافى مع حقوق الإنسان وحق الإنسان في وطني يعيش فيه، ويعاني العالم اليوم أيضا من الهجرة الفوضوية تجاه أوروبا أو امريكا أو بقية الدول الغنية، فآلاف المهاجرين غير الشرعيين غرقوا في البحر الأبيض المتوسط وهم يعبرون من الجنوب إلى الشمال ومن الدول العربية والإفريقية إلى اوروبا المتقدة باحثين عن فرص العمل والحياة الكريمة، وتثير هذه الهجرة عدّة إشكاليات، وأصبحت الهجرة إلى الشمال حلما يراود الشباب، لقد أصبحت الهجرة طريقا إلى السعادة والاستقرار، ولكنه طريق مليء بالمخاطر والمهالك، يجد الدين نفسه اليوم أمام قضايا معقدة تتعلق

بالهجرة في تجلياتها المعاصرة، فهجرة المسلمين إلى اوروبا وأمريكا وغيرها من الدول الصناعية المتقدمة تطرح عدة تحديات على المسلمين والمسيحيين في آن، فمن جهة انتشرت في الغرب ظاهرة الإسلامفوبيا لعدة أسباب، وأصبح هناك خوف من المسلمين المقيمين بالدول الغربية، بسبب تواتر الأحداث الإرهابية بأوروبا وقوف بعض المسلمين المتشددين وراءها، أصبحت الكنيسة الكاثوليكية أكثر مناصرة لقضايا المهاجرين، وأصبحت تنتقد نزعه العداء تجاه المهاجرين وخاصة المسلمين منهم، ولقد حذر البابا فرانشيسكو من «وباء العداء» ضد الأشخاص من الأعراق أو الديانات الأخرى، ورأى أنّ هذا السلوك العدواني يضر بالمجتمع ويزيد من تصاعد نزعات التطرف القومية في المجتمعات القومية، ونبّه إلى ضرورة تجنّب النظر إلى الناس على أنهم أعداء بسبب اختلافهم في الدين أو الثقافة أو الجنس، ويعتبر هذا الموقف مفيد في الحوار بين الجماعات البشرية، وكان لموقف البابا ولقاءاته بالمهاجرين انعكاس إيجابي على مستوى أداء رجال الدين في مختلف دول أوروبا إذ مدوا يد العون للملايين من المهاجرين البؤساء، ممّن ضاقت بهم الدنيا وتركوا أراضيهم وبلدانهم وأهلهم؛ ونظرا إلى أهمية موضوع المهاجرين إلى أوروبا، فإنّ علماء المسلمين لابدّ أن يهتموا بدورهم بهذا الأمر، فالهجرة تعكس عموما وضعا مأساويا يعيشه المسلمون اليوم، ويجد الإسلام نفسه اليوم أمام عدّة تحديات، فمن جهة يعاني المهاجرون المقيمون منذ سنوات في الغرب عدّة صعوبات، ومن جهة ثانية تطرح موجهة الهجرة الحالية نحو أوروبا عدّة استفسارات، فالمهاجرون المقيمون منذ عقود من الزمن يعنون من عدّة مشاكل، فالعقلية العنصرية تحرمهم في أغلب الأحيان من عدة حقوق، وتحرمهم نعمة الأمان والاطمئنان، إذ عادة ما يمارس العنف ضد المسلمين، ويقع استفزازهم، من خلال المساس بقيمهم الفكرية والروحية ورموزهم الدينية، وفي هذا السياق يتنزل نشر الصور المسيئة للإسلام ورموزه، كما يعاني المسلمون من صعوبات على مستوى الاندماج في المجتمعات الغربية ويعيشون انفصاما خطيرا على مستوى الهوية الثقافية والسياسية، فأغلب المقيمين بالغرب من أبناء المسلمين أصبحوا مواطنين أوروبيين، ورغم ذلك مازالوا يشعرون بحالة الهجرة ووجدان المهاجرين، وهذا يعني أن الهجرة أصبحت قيمة ذهنية عقلية، ولا بدّ أن ننوّه في هذا السياق بدور الحكومات الإسلامية والمنظمات ومراكز الفكر الإسلامى في أوروبا وأمريكا في تذليل هذه الصعوبات.

نخلص في ختام هذا المقال إلى القول بأنّ الهجرة شغلت القدامى والمعاصرين على حد سواء، وليس من السهل ن نتناول مختلف هذه الظاهرة الكونية في هذا المجال البحثي الضيق، ولكن قصارى جهدنا أن نقف عند أهمّ النقاط المتعلّقة بالموضوع، فالديانات التوحيدية على اختلاف نصوصها وتعاليمها ركزت على مفهوم الهجرة، واعتبرته مفهوما تأسيسيا يوجه الديانة ويحدد معالمها، واستحال الحديث عن الهجر إلى حديث رمزي إيحائي، أصبحت بموجبه الهجرة رمزا للتجديد والتجدّد والثورة على العادات البالية والثقافات السائدة، وتظل الأديان بحاجة دوما إلى مثل هذه الروح الباحثة دوما عن الفضيلة والسعادة والعدل، وبناء الإنسان.

الهجرة وتحدياتها الثقافية على هُوية الأقليات المسلمة في البلدان الغربية

محمد محمود كوار

منذ فجر التاريخ شكَّلت الهجرة سلوكا إنسانيا قديما رافق البشرية منذ وجودها على ظهر الأرض إلا أن الهجرة تحولت في العصر الحديث إلى ظاهرة عالمية تجتاح جل المجتمعات البشرية، ولعل أحد أهم أسباب شيوع الهجرة في وقتنا الراهن هو التغيرات التي طرأت على ظروف الحياة سواء ما يتعلق بالوسائل التي سهلت حدوث الهجرة مثل وسائل الاتصال والنقل المتطورة، أو ما يتعلق بانتشار دوافع الهجرة مثل الحروب والمجاعات ورغبة الأشخاص في تحسين وضعهم الاقتصادي والمعرفي والعلمي...إلخ.

وكغيرها من المجتمعات ساهمت المجتمعاتالإسلامية المعاصرة في حركة الهجرة العالمية وشكل المسلمون نسبة لا يستهان بها من المهاجرين في البلدان الغربية وهو ما أدى مؤخراًإلى إثارة الجدل في تلك البلدان حول مخاطر «الأسلمة» التي يطرحها عادة المتطرفون وأحزاب اليمين واللوبيات الصهيونية المعادية للاسلام في بلدان أوربا الغربية على سبيل المثال، أما على مستوى المهاجرين أنفسهم فإن التحدي أكثر تعقيداً وأكثر إثارة للمخاوف فيما يتعلق بالحفاظ على الهوية الثقافية والدينية للمهاجر الذي يجد نفسه في بيئة اجتماعية وثقافية تختلف كليا عن الوسط الذي نشأ فيه وترعرع، أو نشأ فيه آباءه وأسلافه من المهاجرين.

وسنحاول في هذه المقالة أن نتطرق لجملة من العوامل والأخطار نعتقد أنها تشكل تهديداً للهوية الإسلامية للأقليات المسلمة المهاجرة نحو البلدان الغربية، على أن نشرع بتقديم تعريف للهجرة، وأنواعها، وأسبابها.

مفهوم الهجرة وأنواعها وأسبابها:

لغوياً: جاء في لسان العرب: الهجر ضد الوصل، وهجر الشيء تركه. وأصل المهاجرة عند العرب خروج البدوي من باديته إلى المدن، يقال: هاجر الرجل إذا فعل ذلك، وكذلك كل مخل بمسكنه منتقل إلى قوم آخرين بسكناه [١].

وفي الدلالة الاصطلاحية استخدم لفظ الهجرة (migration) عبر التاريخ لوصف حركة الناس لمختلف الأسباب والسياقات والمواقف، بما في ذلك الاجتياح والغزو، والانتقال تحت تهديد السلاح، والهروب من الكوارث الطبيعية، والحركة التجارية، والاستيطان، وحتى العبودية...الخ. غير أن المصطلح الحديث للهجرة قد طغى عليه مفهوم حركة الأفراد أو الأسر لأسباب اقتصادية أو اجتماعية، وتعرف المنظمة الدولية للهجرة مصطلح الهجرة بأنه: انتقال شخص أو مجموعة من الأشخاص من وحدة جغرافية إلى أخرى عبر حدود إدارية أو سياسية؛ للإقامة بصفة دائمة أو مؤقتة، في موطن آخر ليس موطنهم الأصلي [٢]. وتعرف منظمة الأمم المتحدة الهجرة التي تتم بطريقة غير شرعية بأنها: «دخول غير مقنن لفرد من دولة إلى أخرى عن طريق البر أو الجو أو البحر... ولا يحمل هذا الدخول أي شكل من تصاريح الإقامة الدائمة أو المؤقتة، كما تعني عدم احترام المتطلبات الضرورية لعبور حدود الدولة [٣].

١ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت ٢٠٠٣م، ج١٥، ص ٢٤.

2 OIM : International Organization for Migration , Migration and History, Section 1.3p 4.

٣ الشباب المصري والهجرة غير الشرعية»، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، قسم بحوث الجريمة، القاهرة، ٢٠١٠، ص ٢٠٩.

وانطلاقاً مما تقدم يتضح أن مفهوم الهجرة هو التحركات المكانية مع الافتراض الضمني بأنه سيترتب على تلك التحركات تغيرا دائماً أو مؤقتاً لموطن الإقامة الأصلي.

وتُقسَّم الهجرة إلى أقسام عدة بناء على معايير مختلفة، فإذا كان المعيار هو طبيعة الموطن الجديد فإن الهجرة تقسم إلى:

- الهجرة الداخليّة: وهي هجرةُ السُكّان مِن منطقةٍ إلى أُخرى في نفس وطنهم؛ أي في داخلِ حدود الدّولة، ومن الأمثلة عليها الهجرة مِنَ الرّيف إلى المدينة أو من مدينة لأخرى داخل نفس الدولة.
- الهجرة الخارجيّة: وهي هجرةُ الأفراد مِنْ وطنهم؛ أي خارج حدود الدّولة إلى دولةٍ أُخرى قريبة أو بعيدة عن دولتهم الأصليّة، كهجرة الأقليات المسلمة من بلدانهم إلى البلدان الغربية [٤].

ومن حيث طبيعة قرار الهجرة يمكن أن تقسم إلى:

- **هجرة اختيارية:** وهي التي يقررها الشخص بمحض إرادته ودون أي تدخل أو تأثير خارجي يدفعه إلى ذلك.
- **هجرة قسرية:** وهي التي يجبر عليها الشخص لأسباب متعددة، مثل الحروب والمجاعات والكوارث الطبيعية...الخ.

وبالإضافة للمعيارين السابقين يوجد معيار ثالث وهو المعيار الزمني يمكن تقسيم الهجرة بناء عليه إلى: هجرة دائمة – هجرة مؤقتة – هجرة موسمية [٥].

ومهما كانت طبيعة الهجرة ونوعها، فإنها تعتبر من العوامل الرئيسية المؤثرة في تغيير ثقافات الأفراد وتغيير سلوكياتهم وحتى قناعاتهم الدينية، وذلك بفعل عوامل جديدة يواجهها المهاجر في موطنه

4 Czaika, M. and H. de Haas , The Role of Internal and International Relative Deprivation in Global Migration , University of Oxford: International Migration Institute, 2011 , p 35.

٥ مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، العدد الأول، ٢٠٠٥، المجلد ٢١، ص ١٤١.

الجديد، ومنها بطبيعة الحال التأثير المتبادل بين المهاجر وبين محيطه الاجتماعي والثقافي.

وترجع أسباب الهجرة ودوافعها إلى عدة عوامل مختلفة نذكر منها:

١- **دوافع اقتصادية:** يعتبر البحث عن تحسين الوضع الاقتصادي أحد الأسباب والدوافع الرئيسية لاستمرار الهجرة، خاصة من فئة الشباب العاطل عن العمل. فنتيجة لتدهور الوضع الاقتصادي في البلدان الإسلامية يواصل الكثير من سكان هذه البلدان الهجرة نحو الغرب حيث الوضع الاقتصادي الأفضل وارتفاع الدخول مقارنة بغيرها من دول العالم. ويرتبط بالدافع الاقتصادي بدوافع أخرى ذات أبعادثقافية واجتماعية وديموغرافية تحدث في الموطن الأصلي للمهاجر، مثل زيادة عدد السكان، وارتفاع نسبة الشباب، هذا فضلا ضعف التحصيل العلمي خصوصا في المراحل المتقدمة الأمر الذي يدفع الطلاب للهجرة بحثا عن جامعات ومعاهد تقدم تعليما أفضل.

٢- **الدوافع الأمنية:** نتيجة لتنامي الحروب والنزاعات وانتشار الأمراض والكوارث الطبيعية حول العالم، اضطر الكثير من الناس للهجرة للحصول أماكن أكثر أمنا، ويمكننا أن نشير في هذا الصدد إلى الهجرات الجماعية الكثيفة من بلدان مثل سوريا وليبيا واليمن التي تشهد نزاعات دامية منذ سنوات مما دفع أعدادا كبيرة من سكانها للفرار إلى خارج الحدود، وقد وصلت نسبة معتبرة منهم إلى البلدان الغربية.

٣- **الدوافع النفسية:** قد يعود قرار الهجرة إلى دوافع نفسية مرتبطة بالفرد ومنها:

-الشعور بالاغتراب الداخلي الناتج أحيانا عن عدم القدرة على التكيف مع المجتمع المحيط به كأسرته أو أصدقائه، أو بسبب ظلم تعرض له...الخ.

-الشعور بالإحباط والعزلة الاجتماعية ووهم

أحلام اليقظة والتفكير اللاعقلاني وحب المغامرة.

- ضعف الانتماء الأسري والمجتمعي نتيجة قصور في برامج التنشئة الاجتماعية وضعف مؤسساتها وأهمها (الأسرة والمدرسة) [٦].

هذا بالاضافة إلى الدوافع الناجمة عن التطورات العالمية الحديثة، مثل الانفتاح الاقتصادي وتحرير التجارة وتزايد حركة المال والسلع والخدمات عبر الحدود، وتطور صناعة السياحة حول العالم.

مخاطر تتحدى الهوية الإسلامية للمهاجرين:

يشكل الدين والهوية الثقافية للفرد أحدأبرز العوامل التي تميزه عن غيره من الأفراد الذين يختلفون معه دينيا وثقافيا، وفي مجتمعاتنا الإسلامية يحرص الناس على التمسك بالقيم والتعاليم الدينية وعدم التنازل عنها مهما كان حجم التهديدات والمخاطر التي يتعرضون لها، هكذا يربى الطفل في مجتمعاتنا الإسلامية وهكذا يغرس في نفسه منذ الصغر لحثه على ضرورة حماية عقيدته باعتبارها أعز ما يملك. وعلى هذه القناعة يصل المهاجر إلى البلدان الأجنبية حاملا معه إرثه الديني والثقافي، وبالتالي فإن السؤال الذي يتكرر دائما هو: ما هي أبرز التحديات التي تواجه الهوية الإسلامية للأقليات المسلمة المهاجرة ـ وإلى أي مدى يمكن أن تظل محتفظة بهويتها في ظل هذه التحديات؟

للإجابة على هذا السؤال لا بد من النظر إلى هذه المسألة من بعدين، الأول: ينحو في الاتجاه الايجابي أي في اتجاه استمرارية الأقليات المسلمة المهاجرة في الحفاظ على هويتها الإسلامية رغم تبدل الوسط الاجتماعي والثقافي من وسط اسلامي مساعد على التمسك بها إلى وسط مناقض لهذه الهوية وربما معادي تماما لها. والنقطة التي يرتكز عليها هذا البعد -كما سبق وأن ذكرنا - تكمن في التربية الإسلامية والتنشئة الأسرية التي تلقن الفرد في مراحل حياته الأولى على أن القيم والمعتقدات الدينية لا يجوز في أي حال من الأحوال تركها أو التفريط فيها، وهذه النظرة المحورية للدين والعقيدة شكلت عنصرا كابحا لذوبان الأقليات المسلمة المهاجرة في المجتمعات الأجنبية، وقد وجدت بعض الدراسات الغربية التي تم القيام بها على الأقليات من ديانات مختلفة أن المسلمين هم أكثر الأقليات المهاجرة تمسكا بعقائدهم الدينية وثقافتهم الاسلامية مقارنة بغيرهم، وهذا ما يطلقون عليه في الغرب بـ «بطء الاندماج» [٧]. الدراسات نفسها أكدت أن أبناء المهاجرين من الجيل الثاني أو الثالث تحدث لديهم «صحوة إسلامية» كنوع من ردة الفعل على الاغتراب السياسي والثقافي.

أما البعد الثاني في الجواب على تحديات الهوية: فهو ينحو بالاتجاه السلبي، أي في اتجاه انحدار درجة ارتباط المهاجر بهويته وثقافته الإسلامية وذلك نتيجة الضغط الذي يمارس عليهفي مهجره، سواء من طرف المجتمع أو الدولة أو لأسباب ذاتية موضوعية، وهناك العديد من العوامل التي نعتقد أنها ساهمت ولا زالت تساهم في إجبار الأقليات المسلمة في الغرب على التخلي تدريجيا عن الارتباط الشديد بهويتهم الإسلامية على الأقل في سلوكهم وتصرفاتهم الظاهرية، وذلك بالرغم من أن الدراسات المشار إليها سابقا تؤكد

٦ راجع: إيمان شريف وآخرين، «السياسة الاجتماعية ومواجهة الهجرة غير الشرعية – مؤشرات عامة (قرية تطون – محافظة الفيوم نموذجًا)، ورقة بحثية قدمت للمؤتمر السنوي العاشر، المركزي القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القارة، في الفترة من ٢٦ – ٢٩ مايو ٢٠٠٨م.

7 Ronald Inglehart , Muslim Integration into Western Cultures: Between Origins and Destinations ,Department of Political Science - University of Michigan ,RWP09 007 , 2009 , p 10.

أن الأقليات المسلمة شديدة التمسك بهويتها الثقافية الدينية، ولكن ذلك فقط ذلك من باب المقارنة (مع أقليات أخرى)، كما لا يشكل حالة عامة تنطبق على جل المهاجرين المنحدرين من مجتمعات إسلامية، والواقع يؤكد أن ثمة عدةضغوط تمارس على المهاجر لها تأثير سلبي على درجة ارتباطه بثقافة وهوية مجتمعه الأصلي.ويمكننا الحديث عنها في النقاط التالية:

أولاً: التأثير على هوية المهاجر بفعل النظرة العدائية للإسلام والمسلمين:

ظلت المجتمعات الغربية على الدوام تتخذ موقفا عدائيا من الإسلام وإن كان ذلك لا يتم بصورة ظاهرة في اغلب الأحيان، ولهذه النظرة تراكمات تاريخية تعود إلى عصر الفتوحات الإسلامية والتوغل الإسلامي داخل أوربا، ولكن مع بداية عقد الألفية تصاعدت وتيرة هذا العداء بشكل علني وانتشر عبر وسائل الإعلام ما يعرف بمصطلح الاسلاموفوبيا: (Islamophobia) وهو مصطلح يعني «خوف مرضي غير مبرر وعداء ورفض للإسلام والمسلمين» [٨].

وقد ساهمت أحداث الحادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م في تصاعد النزعة العدائية للمسلمين وكذلك تفجيرات مدريد ٢٠٠٤م وتفجيرات لندن ٢٠٠٥م، وما تلاها من أعمال نفذتها مجموعات إرهابية محسوبة على الإسلام ضد مصالح غربية، وتسببت هذه الأعمال في ردة فعل انتقامية اتجاه الأقليات المسلمة في الغرب، فمثلا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر مباشرة تعرض المسلمون لاعتداءات متعددة تراوحت بين الشتم والسباب والاعتداء اليسير والضرب، وفي حالات نادرة القتل. وأحياناً يتم التعرض لحجاب بعض المسلمات بالنزع أو بالإشارة السيئة باليد. تقول مؤسسة « CAREكير» أنها رصدت ٦٢٥ اعتداءً بينها ٤ حوادث قتل خلال أسبوعين فقط، كما ارتفعت نسبة الاعتداءات الجسدية التي تعرض لها المسلمون خلال الأسبوع الاول من الحوادث الارهابية الى ١١٪، وارتفعت نسبة الاعتداءات على الاماكن المخصصة للعبادة من الى ١٤٪ خلال الأسبوعين التاليين على الأحداث.» [٩] .

وعقب الأحداث الإرهابية التي تعرضت لها فرنسا في العام ٢٠١٥ ومنها الهجوم على مجلة «شارل ابدو» أكدت التقارير التي تلاحق ممارسات العنصرية والكراهية، أن الاعتداءات على المسلمين ومقدساتهم زادت بنسبة ٥٠٠٪، والشتائم بنسبة ١٠٠٪. كما تعرضت مساجد وقاعات صلاة عديدة إلى هجمات عديدة زادت بنسبة ٤٠٠٪ [١٠] خلال الشهور السنة الأولى من العام ٢٠١٥م، وكتب المهاجمون عبارات معادية على الجدران، أو أضرموا النار في المكان، ووضع مهاجمون رؤوس خنازير أمام عدد منها [١١] . وفي بريطانيا كشفت إحصائيات نشرتها شرطة لندن أن جرائم الكراهية ضد المسلمين ارتفعت بنسبة ٧٠ ٪ في العام ٢٠١٥» [١٢].

تفرض مثل هذه الممارسات على المهاجر أن يخفي

٨ محمد شتوان، الاسلاموفوبيا ..أسباب البروز وإمكانات التجاوز، مجلة الوعي الاسلامي على الرابط:
http://www.alwaei.com/site/index.php/569/naby/6587/

٩ صحيفة الجزيرة السعودية، عدد رقم ١٠٥٩١، ٢٧ سبتمبر ٢٠٠١م.

10 ENES BAYRAKLI and FARID HAFEZ , EUROPEAN ISLAMOPHOBIA REPORT , SETA , 2015 , P 161162-.

١١ جريدة الاهرام على الرابط التالي
http://gate.ahram.org.eg/News/584456.aspx

١٢ موقع الجزيرة نت على الرابط
http://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews/201512/9//
تنامي كراهية الإسلام ومهاجمة المنقبات-ببريطانيا

هويته الإسلامية ويخفي ممارسته لشعائره الدينية تفاديا للاعتداء، وهذا له نتيجة خطيرة على المدى البعيد وهي أن أفراد الأقليات المسلمة المهاجرة يعتادون على التمظهر بقيم تتنافى مع قيمهم الدينية، ويحدّون من ممارسة الشعائر الدينية بشكل علني، ومع مرور الوقت يتحول ذلك إلى جزء من التقاليد والعادات عند المهاجرين، وقد يحدث في حالات نادرة أن يغير بعضهم معتقده الديني، خصوصا الأفراد الذين لا يحصلون على تربية دينية كاملة في صغرهم أو لا تكون لديهم عقيدة إيمانية راسخة لأي سبب كان.

ثانياً:التأثير على هوية المهاجر عبر التمييز في المعاملة:

يشكل التمييز في المعاملة أحد وسائل الضغط التي تدفع المهاجر إلى الابتعاد عن إظهار هويته الإسلامية خوفا من الحرمان من وظيفة معينة أو رفض أبناء البلد المضيف تأجير المنازل لهم أو التعامل معهم تجاريا، وقد تفشت هذه الممارسات بشكل لافت في البلدان الغربية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وكمثال على ذلك يؤكد عبد السلام لعريبي من منظمة حقوق الإنسان الأوربية ببروكسل أن «الأحداث ساعدت على محاصرة المسلمين في أرزاقهم ببلجيكا، فأصبح كثير من أصحاب العمل يرفضون تشغيل المسلمين، أو حتى تشغيل كل من يحمل اسما مسلما أو عربيا، ولا يختلف الأمر في بلجيكا عنه في بقية الدول الأوروبية أو الغربية عامة» [١٣].

ولعل هذا النمط من التمييز الذي اجتاح البلدان الغربية من أكثر المخاطر التي تستهدف بشكل غير مباشر هوية المهاجر المسلم في هذه البلدان، فالغالبية العظمى من المهاجرين خرجوا من أوطانهم بحثا عن وظائف تمكنهم من تحسين ظروفهم الاقتصادية وهذا يعني أن هناك قطاعات واسعة من هؤلاء المهاجرين يخشون إما من فقدان وظائفهم أو عدم الحصول على وظيفة من الأساس، ما يجعلهم أمام خيارين أحلاهما مر، إما التمسك بالهوية الإسلامية قناعة وتطبيقا أو التخلي عنها كليا أو جزئيا حفاظا على مصدر عيشه في كنف الغربة.

وقد أكدت بعض التقارير عن إقدام عدد من المهاجرين المسلمين على التخلي عن الإسلام والتحول إلى المسيحية في بعض البلدان الأوربية تحت وطأة التمييز في المعاملة، ومن ذلك اعتناق ٦٠٠ مهاجر مسلم في المانيا للمسيحية بين عامي ٢٠٠٨ الى ٢٠١٥م. ينتمي أغلبهم لأفغانستانوإيران، وكان غرضهم من ذلك بشكل أساسي هو تسهيل الحصول على الإقامة، ولأن المعاملة في الحصول عليها انتقائية وتمييزية فقد اضطر هؤلاء للتخلي عن ديانتهم، وفق ما نقلت صحيفة لوفيغارو الفرنسية التي أوردت التقرير [١٤].

ثالثاً: التأثير على هوية المهاجر من خلال تطبيق سياسة الاندماج

محاولة الحكومات الغربية إدماج المسلمين في مجتمعاتهم بقيمها الغربية وبمبادئها العلمانية وإطارها الثقافي والفكري، شكل بدوره أحد التحديات المؤثرة على هوية المهاجرين المسلمين، فسياسة الاندماج هي سياسة ممنهجة تتبعها الحكومات الغربية لجعل المهاجرين الأجانب يتحولون إلى جزء

١٣ تقرير على موقع اسلام ويب على الرابط التالي:
http://articles.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=96469

١٤ انظر التقرير كامل على موقع صحيفة لوفيغارو الفرنسية على الرابط التالي:
http://www.lefigaro.fr/international/201520150929-01003/29/09/ARTFIG00249-des-migrants-se-convertissent-au-christianisme-en-allemagne.php

من المنظومة الغربية ويخضعون للقيم الغربية ويتمثلون بها ويعتمدونها في نظام الأحوال الشخصية كالزواج والعلاقات الأسرية، وإتقان اللغات المحلية. ويذهب الأمر إلى حد فرض ثقافة وتاريخ البلد المضيف على بعض الشخصيات الدينية المسلمة كأئمة المساجد وغيرهم، ومثال على ذلك ما تطلبه الحكومة الهولندية اليوم من ضرورة إلمام الأئمة المسلمين باللغة الهولندية، ويتوجب عليهم أيضاً أخذ دروس حول التاريخ الهولندي والقيم السياسية والاجتماعية والهولندية حتى يفهمونها فهماً كاملاً، وفي حال إخفاق هؤلاء الأئمة ورسوبهم في الامتحانات المقررة لن يحصلوا على ترخيص، بممارسة الوعظ والخطابة،ولن يحصلوا على تأشيرات الإقامة. كذلك نجد أن قانون الهجرة الصادر في ألمانيا ٢٠٠٧م يشدد على اختبار معرفة المهاجر للغة الألمانية، حيث تبرر الحكومة الألمانية تشددها على هذا الاختبار مؤكدة أن تعلم اللغة الألمانية هو ضرورة تساعد على الاندماج. وقد أصبح موضوع الاندماج أو سياسة الاندماج من أبرز أجندة الأحزاب السياسية والسلطات الحكومية في البلدان الغربية، كما تحول الموضوع إلى قضية اجتماعية وثقافية وحتى أمنية [١٥]. وقد استغل اليمين المتطرف في أوربا والولايات المتحدة معاداة المهاجرين كشعار لجذب الناخبين لصفوفه.وفي الغرب اليوم لا أحد يستطيع أن يخفي أن فوز الرئيس الأمريكي دونالد ترامب وصعود شعبيته كان نتيجة لمواقفه المتشددة إزاء الهجرة وخاصة المهاجرين من الدول الإسلامية، وبالتالي تحولت هذه القضية ورقة رابحة جدا في المنافسات الانتخابية في الغرب والضحية فيها هم المهاجرون وهويتهم الثقافية والدينية التي أصبحت على المحك.

وفي أوربا لجأت بعض الدول في إطار تطبيق سياسة الاندماج إلى إصدار وثائق وإعلانات رسمية تجبر المهاجرين على ضرورة التقيد بها واحترامها لقاء السماح له بالإقامة والعمل، ومن مخاطر مثل هذه الوثائق على هوية المهاجر هو أنها تفرض عليه التخلي عن جزء من عاداته وقيمه ومعتقداته الدينية، فمثلا تمنع وثيقة الاندماج والمواطنة في إيطاليا تعدّد الزوجات باعتباره يتعارض وحقوق المرأة، ولا ينسجم أيضًا مع المبادئ التي صادقت عليها المؤسّسات الأوروبية.وتنص الفقرة ١٧ من الوثيقة على أن الزواج يبنى على المساواة في الحقوق والمسؤوليات بين الزوج والزوجة، وهو لذلك قائمٌ على نظام الزوجة الواحدة». وتذهب الوثيقة إلى السماح بانتقاد الأديان حيث جاء في الفقرة ٢٤ «يكفل النظام العام حرية البحث والانتقاد والمناقشة حتى في القضايا الدينية». ولا تتوقف الوثيقة عند ذلك الحد بل تنحو نحو التضييق على الزي الإسلامي بشكل صريح، فبينما تؤكد الفقرة ٢٦ على أنه «لا توجد في ايطاليا قوانين تحد من الملبس مادام قد اختير طواعية»، تضيف الفقرة ذاتها أن « الألبسة التي تغطي الوجه بجميع أشكالها غير مقبولة» [١٦].

وتستغل الحكومات الغربية رغبة المهاجر في الحصول الأوراق الرسمية، كالإقامة والجنسية، لتفرض ثقافتها عليه، فمثلا عمدت حكومة الدانمارك في الفترة الأخيرة إلى تشديد إجراءات الحصول على جنسيتها بصورة تستهدف بشكل مباشر قناعات المهاجر وثقافته

١٥ موفق ابو حمود، الاجانب في المانيا بين الاندماج والانعزال، انظر الرابط التالي:
http://www.philadelphia.edu.jo/philadreview/issue8/no86/.pdf

١٦ انظر وثيقة قيم المواطنة والاندماج في ايطاليا على الرابط التالي:
http://www.istruzionepadova.it/studenti/EdCivica/MI_Carta-Dei-Valori_Arabo.pdf

الأصلية وسلوكياته العامة ونظرته للقيم الانسانية والدينية. إذ يتعين على المتقدم للجنسية الدانماركية وفق النظام الجديد تلبية عدد من الشروط الصعبة المتعلقة بالمهارات اللغوية، وعدا عن شرط اللغة فإنه سيكون على المتقدم لحمل الجنسية الدخول في اختبار إجابة على ٢٢ سؤالا إجابة صحيحة من أصل ٣٠ تتعلق بالتاريخ والثقافة والسياسة والمجتمع الدانماركي عموماً، وخصوصاً فيما يتعلق بالقضايا الديمقراطية وحرية التعبير» [١٧].

ولسنا نبالغ إذا قلنا أن قضية التصدي للثقافة الاسلامية القادمة للغرب مع المهاجرين أصبحت تؤرق السياسيين الغربيين وحتى النخبة الثقافية والفكرية التي بدأت تنظر لهؤلاء المهاجرين نظرة قلق باعتبارهم يشكلون تهديداً ديموغرافياً وثقافياً للغرب وخاصة دول أوربا الأكثر تعرضا للهجرة، يقول الدبلوماسي الأمريكي «تيموثي» في دراسة نشرتها مجلة(واشنطن كوارترلي) سنة ٢٠٠٤م «أن التحدي الإسلامي الذي تواجهه أوروبا اليوم يقتضي منها إدماج الأقليات الإسلامية التي تعيش في عزلة (في الجيتوهات)، إلا أنها تتزايد ديموجرافياً، بشكل سريع جداً، وهو ما يعتبره كثير من الأوروبيين مهدداً للهوية الجماعية الغربية، ولقيم المجتمع الأوروبي»[١٨]. وينتقد الباحث الهولندي «مارتن كاسترز» ظاهرة انعزال الأطفال المسلمين عن المجتمع ويعللها بفشل الآباء في توصيل العقيدة الإسلامية إلى أبنائهم فيقول «عوضاً عن أن يرغب الآباء المسلمون في تطوير وتعميق مشاعر أطفالهم الدينية وذلك بإعطائهم إسلاماً قوياً يستطيعون من خلاله المشاركة بحرية في المجتمع الهولندي، فإن كثيراً منهم يرغبون فقط في حماية أطفالهم من الآثار الضارة للمجتمع الهولندي. ونتيجة لهذا يميل المسلمون إلى عزل أنفسهم عن محيطهم غير المسلم» [١٩].

وبالإضافة لموقف الساسة والنخبة الفكرية الغربية شاركت وسائل الإعلام بدورها بممارسة الضغوط على الأقليات المسلمة المهاجرة لحثها على التخلي عن عاداتها وقيمها والاندماج في الثقافة الغربية، وبإمكان المرء أن يلاحظ عددا لا يحصى من البرامج الإعلامية التي تستهدف تغيير قناعات المسلمين المقيمين في الغرب، بل والأخطر من ذلك أن الإعلام الغربي يعمدإلى تحطيم المنظومة القيمية الاسلامية في نفس وعقلية المهاجر وذاك بتصويرها كمنظومة متخلفة لا تتماشى مع الحضارة والتقدم الذي تشهده البشرية في العصر الحديث.

والواقع أن سياسة الاندماج التي تحرص الحكومات الغربية على تطبيقها على المهجرين تواجه بحذر شديد من طرف بعض المهاجرين، لأن الغرض منها في نظرهم هو محو ثقافة المهاجر الأصلية لتحويله إلى جزء من المنظومة الغربية، قناعة وفكرا وسلوكا، وهذا ما يخلص إليه الباحث المغربي التجاني بالعلواني حيث يرى أن سياسة الاندماج «قوبلت بالرفض أو التحفظ من قبل العديد من المسلمين، سواء كانوا مثقفين أم عاديين، لأنها تخفي غير ما تعلنه، وتبطن غير ما تعد به من أهداف ومشاريع، فهي تنبني على أسلوب الاحتواء الذي يسعى إلى تذويب المسلمين في أتون الثقافة الغربية، لأن ذلك الإدماج الذي يتراءى نافعا

١٧ ناصر السهلي، الدانمرك: اكتساب الجنسية .. بات من المستحيلات على المهاجرين، مقال منشور على موقع العربي الجديد / https://www.alaraby.co.uk/society/20155/10/

18 http://www.icpeoria.org/pages/outreach/english_section/Europe_and_Islam.pdf

19 MartinCusters, Muslims in the Netherlands, p. 91, in Abdin, S. Z. & Z. Sardar (1995) (ed.),Muslim Minorities in the West, Grel Deal: London, pp. 8696-

وإيجابيا، سرعان ما يتبدد نفعه وإيجابيته، لما لا ينفك يبلع هوية الآخر وخصوصياته الحضارية والدينية»[٢٠]. ونعتقد أن من يتحفظ على هذه السياسة من المهاجرين هم الفئة الأكثر انكفاء وانغلاقا وتقوقعا على الذات خوفا من الذوبان في الثقافة الغربية، ولكن هذه الفئة لا تشكل الغالبية من المهاجرين مما يعني أن سياسة الاندماج تحقق اغراضها في زرع الثقافة الغربية في نسبة عالية من المهاجرين ممن اضطرتهم الظروف للذهاب إلى الغرب بحثا عن ظروف حياة أفضل وهم يشكلون العمود الفقري للمهاجرين.

رابعاً: التضييق على المؤسسات الإسلامية

من المعروف أن المؤسسات الدينية الإسلامية، مثل الجمعيات الإسلامية والمدارس الدينية والمساجد..الخ. تطلع بدور هام وحيوي في حماية الدين والعقيدة والهوية الإسلامية بصفة عامة، ورغم حاجة الأقليات المسلمة المهاجرة لمثل هذه المؤسسات فإنها تواجه عقبات كبيرة في البلدان الغربية، ومن تلك العراقيل والعقبات المتطلبات القانونية التي تضعها الدول الغربية أمامها، فمعظم الدول الأوروبية تحرص على أن تمر عملية تأسيس الجمعيات والمراكز التعليمة والثقافية والدينية، بمراحل وخطوات قانونية قبل أن يكون بالإمكان إضفاء الصبغة الشرعية عليها وتسجيلها لدى الحكومة بشكل رسمي، لذا يتوجب عليها أن تقدم شرحاً حول تشكيلاتها الإدارية وقائمة المساعدات المالية الشهرية. وغالبا ما تربط البلدان الغربية بين الهجمات الإرهابية التي تتعرض لها وبين المنظمات والمؤسسات الإسلامية الموجودة على أراضيها، فتحملها بعضها المسؤولية وتعمد إلى اغلاقه، وهذا ما قامت به فرنسا بعد الهجمات التي تعرضت لها في العام ٢٠١٥م، حيث قامت بإغلاق عشرين مسجداً [٢١] وثلاث جمعيات إسلامية كبرى [٢٢]. وكذلك فعلت المانيا وايطاليا والنمسا ودول غربية أخرى مع مساجد وجمعيات ومؤسسات إسلامية.

خامساً: تأثر المهاجر بالبيئة الثقافية والاجتماعية الأجنبية

أحد التهديدات الأكثر تأثيراً على هوية المهاجر على المدى البعيد هي عدوى القيم والعادات والتقاليد التي تحيط به وتنتقل إليه بشكل تدريجي مع مرور الوقت، وهذا العامل رغم أنه ليس مخططا له و لا مقصودا من جهة بعينها، إلا أن خطورته على الهوية الإسلامية للمهاجر يصعب تفاديه، والسبب في ذلك يرجع إلى أن الفرد الذي يعيش في بيئة معينة سيتأثر حتما بعادات وتقاليد أهلها وسيكتسب بعضا من سلوكهم العام إما بطريقة واعية لا واعية، فالمهاجر تفرض عليه الظروف أن يتعاطى مع محيطه الاجتماعي لبناء علاقات يتطلبها وجوده الإنساني. وخطورة البيئة الغربية على الهوية الإسلامية للمهاجر هو أن هذه البيئة تتميز بالحرية الشخصية الواسعة وقيم الفردية والعلمانية وفصل الدين عن الدولة. ولذلك تتسم الحياة الاجتماعية والثقافية الغربية بمساحة كبيرة من الحرية في التصرف واتخاذ القرارات دون قيود، مثل اختيار المرأة لزيها والاختلاط الشديد بين الجنسين وتناول الكحول والحديث في بعض القضايا الحساسة الخادشة للحياء بالنسبة للمهاجرين ذوي الخلفية الشرقية والإسلامية.

٢٠ التيجاني بولعواني، المسلمون في الغرب بين تناقضات الواقع وتحديات المستقبل، افريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ٢٠١٠م، ص ٦٩ .

٢١ جريدة السفير اللبنانية، عدد: ٢ اغسطس ٢٠١٦، ص ٧.

٢٢ موقع CNN عربي على الرابط التالي:
http://arabic.cnn.com/world/201614/01//france-bans-muslim-associations

والأكثر خطورة على القيم الاسلامية للمهاجر هو أن الأجيال التي نشأت في بيئات غربية متحررة تتعود على الاستخفاف بالدين والحديث عنه بجرأة وأحيانا توجه إليه النقد تماما كما يتحدثون حول برنامج سياسي لأحد الأحزاب أو لأحد المرشحين في الانتخابات التي تجري بين الحين والآخر. وهناك مسألة أخرى تضيف حاجزا آخر بين أبناء المهاجرين وبين ثقافتهم الاسلامية الأصلية وهي انتشار الزواج المختلط (بين المسلم والمرأة الغربية) والذي يتم غالباً لأسباب تتعلق بالإقامة، وكثيراً ما ينتهي بالطلاق،ولكن المشكلة أن الأبناء الناتجين من هذا الزواج يتربون على ثقافتهم أمهم التي تباشر تربيتهم في أغلب الأحيان مما يولد جيلا لا يعرف شيء عن دين وثقافة الأب ومجتمعه الأصلي.

ومن هذا المنطلق تتحول البيئة الثقافية والاجتماعية المحيطة بالمهاجر إلى خطر محدق بهويته الإسلامية التي تتناقض إلى حد كبير في جوهرها مع المنظومة الثقافية والسلوكية للمجتمعات الغربية، فمع مرور الوقت تتسبب هذه البيئة في مسخ ثقافي وفكري وحتى عقائدي للأقليات المسلمة المهاجرة وتزداد الفجوة وتضعف الروابط بين الأجيال التالية للمهاجرين مع هويتهم الإسلامية.

الخاتمة:

حاولنا في هذا المقال أن نبرز حجم ونوع التحديات التي تواجهها الهوية الإسلامية للأقليات المسلمة المهاجرة في البلدان الغربية، واستنادا لما تقدم يمكن القول أن ان هذه الهوية ببعدها الديني والثقافي واللغوي تتعرض لضغوط متعددة، منها ما يرجع لموقف المجتمعات الغربية اتجاه الإسلام خاصة في أيامنا هذه والذي تجسد في سوء المعاملة والنفور من كل ما هو إسلامي، ومنها ما يعود لسياسات تنتهجها الحكومات الغربية ضد المسلمين المهاجرين، ومنها ما يعود لأسباب موضوعية فرضها الواقع والبيئة الاجتماعية على المهاجر نفسه، وفي جميع الأحوال تؤدي هذه العوامل إلى إجبار المهاجر على التخلي تدريجيا عن بعض القيم والثقافات والقناعات التي جلبها معه من مجتمعه الإسلامي الأصلي إلى مجتمعه الجديد.

وأمام هذه التحديات دار جدل، ولا زال يدور، حول كيفية التعاطي مع هذه القضية. وقد اختلفت وجهات النظر بين المهاجرين في طريقة تعامله مع المتغيرات الجديدة والتباينات الحادة بين ثقافتين متناقضتين، هناك بطبيعة الحال من حاول التقوقع والانكفاء، وهناك من اندمج وانصهر، وهناك من حاول التكيف مع هذه البيئة الاجتماعية الجديدة في محاولة منه للمواءمة بين ما تمليه عليه قناعته الدينية وثقافته الإسلامية وما يمليه عليه الواقع من أفكارومعتقدات لم يعتد عليها.

وعلى أية حال فإن كسب الرهان في هذه المسألة يحتم على الأقليات المسلمة المهاجرة إعداد خطة شاملة للتعامل مع الظروف والمتغيرات الجديدة، وأن يكونالهدف الرئيسي لهذه الخطة هو رسم منهجية علمية وواقعية تعين المهاجر على الجمع بين مصالحه الشخصية والحفاظ على ثوابته الدينية.

المراجع

أولاً: كتب وأبحاث ودوريات باللغة العربية

١- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت ٢٠٠٣م.

٢- التيجاني بولعواني، المسلمون في الغرب بين تناقضات الواقع وتحديات المستقبل"، افريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ٢٠١٠م.

٣ - «الشباب المصري والهجرة غير الشرعية»، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، قسم بحوث الجريمة، القاهرة، ٢٠١٠م.

٤ - مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، العدد الأول، ٢٠٠٥ م، المجلد ٢١.

٥ - إيمان شريف وآخرون، «السياسة الاجتماعية ومواجهة الهجرة غير الشرعية – مؤشرات عامة (قرية تطون – محافظة الفيوم نموذجًا)، ورقة بحثية قدمت للمؤتمر السنوي العاشر، المركزي القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القارة، في الفترة من ٢٦ – ٢٩ مايو ٢٠٠٨م.

٦ - صحيفة الجزيرة السعودية، عدد رقم ١٠٥٩١، ٢٧ سبتمبر ٢٠٠١ م.

٧ - جريدة السفير اللبنانية، عدد: ٢ اغسطس ٢٠١٦م.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

1- OIM: International Organization for Migration , Migration and History, Section 1.3.

2- Czaika, M. and H. de Haas , The Role of Internal and International Relative Deprivation in Global Migration University of Oxford: International Migration Institute, 2011.

3- Ronald Inglehart, Muslim Integration into Western Cultures: Between Origins and Destinations, Department of Political Science - University of Michigan ,RWP09 007 , 2009.

4- ENES BAYRAKLI and FARID HAFEZ , EUROPEAN ISLAMOPHOBIA REPORT , SETA , 2015.

5- MartinCusters, Muslims in the Netherlands, p. 91, in Abdin, S. Z. & Z. Sardar (1995) (ed.), Muslim Minorities in the West, Grel Deal: London, pp. 8696-

ثالثاً: المواقع الإلكترونية:

http://www.alwaei.com/site/index.php/569/naby/6587/

http://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews/201512/9//

http://articles.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=96469

http://www.lefigaro.fr/international/2015/0920150929-01003/29/ARTFIG00249-des-migrants-se-convertissent-au-christianisme-en-allemagne.php

http://www.philadelphia.edu.jo/philadreview/issue8/no86/.pdf

http://www.istruzionepadova.it/studenti/EdCivica/MI_Carta-Dei-Valori_Arabo.pdf

https://www.alaraby.co.uk/society/20155/10//

http://www.icpeoria.org/pages/outreach/english_section/Europe_and_Islam.pdf

http://arabic.cnn.com/world/201614/01//france-bans-muslim-associations

http://gate.ahram.org.eg/News/584456.aspx

هجرة المسلمين إلى الحبشة والعدل وحرية العقيدة

د. أحمد عبد الرحيم

تمهيد:

تعدُّ هجرة المسلمين إلى الحبشة بمثابة لجوءٍ سياسيٍّ من المسلمين إلى دولةٍ غير مسلمة، لكنَّها كانت دولةً عادلة، تَمثَّل العدل فيها في ملكها النجاشي الذي قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم: «ملكٌ لا يُظلم عنده أحد»، فقد روى البخاري: «أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ لِأَصْحَابِهِ لَمَّا رَأَى الْمُشْرِكِينَ يُؤْذُونَهُمْ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُفَّهُمْ عَنْهُمْ إِنَّ بِالْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، فَلَوْ خَرَجْتُمْ إِلَيْهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا» [1].

ولذلك كان العدل وحرية العقيدة هما المعيار الأساسي الذي ذكره النبي صلى اللع عليه وسلم؛ لاختيار الحبشة دون غيرها لهجرة أصحابة؛ فالإنسان العادل لا يعتدي على حقوق الآخرين ولا يظلمهم أيًّا كان دينهم أو جنسهم، وحتى لو كانوا أعداء له؛ وهذا مبدأ أساسي من مبادئ الشريعة الإسلامية، دعا إليه الإسلام، وحثَّ على التمسُّك به. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [2].

من هذه النقطة (العدل وحرية العقيدة) كمبدئين رئيسين في الإسلام ينطلق هذا البحث.

---

١ رواه البخاري: كتاب مناقب الصحابة، باب هجرة الحبشة، حديث (٣٦٥٩).

٢ سورة المائدة: الآية ٨.

الكلمات المفتاحية:

هجرة المسلمين إلى الحبشة، أسباب اختيار الحبشة للهجرة، موقف قريش من الهجرة إلى الحبشة- النجاشي والعدل وحرية العقيدة.

هجرة المسلمين إلى الحبشة:

لقد هاجر المسلمون في بداية الإسلام ثلاث هجرات: هجرة إلى الحبشة، وهجرة إلى الطائف التي هاجرها الرسول صلى الله عليه وسلم وحده، وهجرة إلى المدينة، ولو ذهبنا نقيِّم هذه الهجرات الثلاث بتضحياتها ومراراتها وقسوتها؛ لكانت هجرة الحبشة أشدها مرارة على أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، وكانت هجرة الطائف أقساها على رسول الله، ثم كانت الهجرة إلى المدينة أخفها مرارة عليه وعلى أصحابه [٣].

أما هجرة الحبشة فلم يهاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إليها، وإنما بقي في مكة يدعو إلى توحيد الله والإيمان، بينما هاجر الصحابة؛ نُزوعا إلى الحرية، وهربا بدينهم وأنفسهم وأهلهم من بطش قريش وأذى المشركين الذي ازدادت وطأته عليهم؛ إذ تحولت مكة من دار أمان وبيئة استقرار وواجهة طمأنينة إلى دار خوف وعدوان، وبغي واضطهاد، وأصبح المسلمون فيها لا يستطيعون العيش في مجتمعٍ رفض وجودهم، ورفض إعطاءهم الحرية التي يمارسون في ظلِّها حقَّهم في اختيار العقيدة التي يؤمنون بها، ويمارسون شعائرهم بأسلوبٍ سلميٍّ يقوم على العرض الفكري والحوار الموضوعي والجدل العقلي والبيِّنات والبراهين، مع التزام أسمى الأخلاق والخصال[٤]؛ خاصةً وإن الكثيرين من المسلمين في بداية الإسلام كانوا فقراء ضعفاء، ولا يملكون لمواجهة هذا البطش إلا الصبر، حتى يسَّر الله سبحانه وتعالى لهم سبيل الهجرة، وكانت الهجرة إلى الحبشة رسالة لأصحاب الدعوات ألاَّ يواجهوا الظلم فقط بالصبر والدعاء، وتحمُّل المشقة والعناء، بل إن هذا الدين المشرق فتح لهم كافة سبل النجاة بأنفسهم ودينهم حتى يجعل الله لهم فرجًا من هذا الضيق، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [٥]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٦]. فمع ما جاء من تثبيت الله للمؤمنين، وحثِّهم على الصبر، وأن البلاء واقعٌ لا محالة، والفتنة حادثةٌ فيهم ولا بد؛ إلاَّ أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أصحابة بالهجرة إلى الحبشة، وقد تمثَّلت هذه الهجرة في موجتين من الهجرة، حملت الأولى منهم أحد عشر رجلًا وأربع نساء، وكان على رأسهم الصحابي عثمان بن عفان، وزوجته رقية بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، أمَّا الموجة الثانية وهي الأكبر فكانوا اثنين وثمانين رجلًا معهم نساؤهم وأبناؤهم، وكان على رأسهم جعفر بن أبي طالب ابن عمي النبي صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك في السنة الخامسة من البعثة [٧].

أسباب اختيار الحبشة للهجرة:

كان اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم للحبشة كبلدٍ يهاجر إليها أصحابه دليلًا على سعة أفقه وعمق تفكيره وشمول نظرته، فلم يختر بلدًا آخرا يكون بها صلة قرابة، أو لغةٌ مشتركة، أو حتى قُرب مسافة، فلم

٣ عبد المنعم النمر، هجرات في سبيل الحرية، مجلة الأزهر، السنة (٣٦)، الجزء (١)، ص٢٢، محرم١٣٨٤هـ - مايو ١٩٦٤.

٤ أنور قاسم الخضري، قراءة في مفهوم الهجرة في الإسلام، مجلة البيان، العدد (٣٢٥)، رمضان ١٤٣٥هـ - يونيو ٢٠١٤م. http://www.albayan.co.uk/MGZArticle2.aspx?ID=3716

٥ سورة النحل: الآية ٤١.

٦ سورة النحل: الآية ١١٠.

٧ ابن كثير: البداية والنهاية، بَابُ هِجْرَةِ مَنْ هَاجَرَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ فِرَارًا بِدِينِهِمْ مِنَ الْفِتْنَةِ، ج٤، ص (١٦٥-١٦٦)، دار عالم الكتب، الرياض، (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).

يشأ أن يهاجر المسلمون لأي بلدٍ قريبة من الجزيرة العربية؛ لما كان لهذه القبائل من علاقاتٍ بقريش، فلا يُنسى أن قريشًا كانت زعيمة القبائل العربية، وقد يتبادر إلى الذهن- وهو صحيح- أن نجاه المسلمين المستضعفين بأنفسهم من مكة؛ حفاظًا على حياتهم، وهروبًا من نار اضطهاد قريش لهم، يعدُّ سببًا واضحًا للهجرة إلى الحبشة؛ لكنَّ هناك سببًا آخر هو أكثر أهميةٍ وحاجةٍ للمسلمين، وهذا السبب يتمثَّل في أن الحبشة كانت في ذلك الوقت بلد عدلٍ وحرية عقيدة، فقد مثَّلت الحبشة -بهذا الوضع الذي يأمن فيه المرء على نفسه وماله وعرضه، ويمكنه في ظلِّ نظامه السياسي اختيار العقيدة، وإظهار الدِّين وممارسة الشعائر في حدِّها الخاص للفرد والجماعة- بلداً جاذبًا للفئة المؤمنة التي لاقت الاضطهادات والمضايقات في أرضها ومجتمعها، كما مثَّلت الحبشة أيضاً بيئةً طبيعيةً لهذه الفئة المؤمنة للعيش الكريم الذي تتوافر فيه أسباب الرزق وسبل التعايش، وهذا الأمر لم يكن ليتم لولا شخصية النجاشي التي صبغت نظام حكمه الملكي بالعدل والرشد، ولم يكن اختلاف العقيدة أو الجنس ليُغيِّر من تعامله مع الآخر، ما وفَّر الأمن والاستقرار السياسي وضمان الحقوق والحريات لكل قاصدٍ للحبشة [٨]، ويؤيد ذلك الرأي أن الذين هاجروا إلى الحبشة من الصحابة كان من بينهم جعفر بن ابي طالب وهو من شرفاء قريش وأقويائها، ومنهم عثمان بن عفان، وكان من الأغنياء، كما يظهر هذا جليًّا من قوله صلى الله عليه وسلم عن الحبشة: «إنَّها بلدٌ لا يُظلمُ فيها أحد»؛ إذن نلمح في ذلك سبب الاختيار الرئيس للحبشة كمكانٍ يحمي العقيدة، ويكفل الحريات، والأمان، وليس فيه اضطهاد ولا ظلم،

قالت أم سلمة رضي الله عنها وكانت من المهاجرات إلى الحبشة: «لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيَّ، أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللَّهَ تَعَالَى لَا نُؤْذَى وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ» [٩].

موقف قريش من الهجرة إلى الحبشة:

كما قيل إن الأفاعي لا تسكن حتى تلدغ فريستها؛ فإن قريشًا ما إن علمت بهجرة الصحابة إلى الحبشة، حتى تابعوهم وأرسلوا خلفهم مَن يعيدهم؛ وذلك خوفًا من أن تثبت قدم الإسلام وينتشر في مكانٍ آخر، وساعدها في ذلك أنه كان لها نفوذٌ ليس بالهين؛ لما كان لها من علاقاتٍ تجاريةٍ واقتصاديةٍ واسعةٍ مع البلدان الأخرى، وقد ورد ذلك فيما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية من حديث أم سلمة: «قَالَتْ لَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْنَا مَكَّةُ، وَأُوذِيَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَفُتِنُوا، وَرَأَوْا مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ فِي دِينِهِمْ، وَأَنَّ الرسول لَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَمِنْ عَمِّهِ، لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ وَمِمَّا يَنَالُ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ، فَخَرَجْنَا إِلَيْهَا أَرْسَالًا حَتَّى اجْتَمَعْنَا بِهَا، فَنَزَلْنَا بِخَيْرِ دَارٍ إِلَى خَيْرِ جَارٍ آمِنِينَ عَلَى دِينِنَا، وَلَمْ نَخْشَ فِيهَا ظُلْمًا، فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّا قَدْ أَصَبْنَا دَارًا وَأَمْنًا، اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا، لِيُخْرِجُونَا مِنْ بِلَادِهِ وَلِيَرُدَّنَا عَلَيْهِمْ» [١٠].

٨ أنور قاسم الخضري، قراءة في مفهوم الهجرة في الإسلام، مجلة البيان، العدد (٣٢٥)، رمضان ١٤٣٥هـ - يونيو ٢٠١٤م.

٩ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١، ص(٤٣٠-٤٣١)، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٢بيروت، ٢٠٠١م.

١٠ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص ١٨٠.

النجاشي والعدل وحرية العقيدة:

إن وصف العدل قد يتصف به المسلم وغير المسلم، بل إنَّ غير المسلم العادل ممدوحٌ عن المسلم الظالم، والنجاشي يعدُّ المثال الأبرز للعدل والتسامح الديني، بالرغم من أنه كان نصرانيًّا، ومن استجاروا به وهاجروا إلى بلده لم يكونوا على دينه، ولا على دينٍ يعرفه، وإنما على دينٍ جديد يحمل رسالةً جديدة؛ وأبرز ما نلمسه من عدل النجاشي متجسِّدًا في هذا الحوار الذي كان بينه وبين عمرو بن العاص ممثلٍ لوفد قريش، وجعفر بن أبي طالب ممثل للمهاجرين من المسلمين: «قَدِم وفد قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد عَلَى النَّجَاشِيِّ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطَرِيقٌ إِلَّا دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ، ثُمَّ إِنَّهُمَا قَرَّبَا هَدَايَا النَّجَاشِيِّ، فَقَبِلَهَا مِنْهُمْ، ثُمَّ كَلَّمَاهُ، فَقَالَا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُ ضَوَى إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَيْكَ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ بِطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ: صَدَقُوا أَيُّهَا الْمَلِكُ. فَأَسْلِمْهُمْ إِلَيْهِمَا. فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ، ثُمَّ قَالَ: لَا هَا اللَّهِ إِذًا لَا أُسَلِّمُهُمْ إِلَيْهِمَا، وَلَا أُكَادُ قَوْمًا جَاوَرُونِي، وَنَزَلُوا بِلَادِي، وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ حَتَّى أَدْعُوَهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ فَدَعَاهُمْ، فَلَمَّا جَاءُوهُ سَأَلَهُمْ: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّا كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ. فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ، فَعَدَّدَ لَهُ أُمُورَ الْإِسْلَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ. فَقَالَ النجاشي لوفد قريش: وَاللَّهِ لَا أُسَلِّمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا»[11].

رفض النجاشي أن يسلم المهاجرين لأعدائهم؛ لأنه لم ير منهم تعديًّا ولا جورًا على أهلهم، وإنما استشعر العكس، فأوجبت عليه أخلاقه ومروءته، وقبل ذلك أوجب عليه دينه أن ينصر المظلوم ويقف بجواره، وقد صدقت فيه مقولة الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ملكٌ عادل، فبالرغم من أن المرسَل من قريشٍ كان عمرو بن العاص، وهو شخصية تمثل نموذجًا من نماذج المكر والدهاء عند العرب؛ إلَّا أن النجاشي كان كذلك شخصيةً تَمثل فيها العدل والإنصاف، فحينما قال له عمرو بن العاص إن قومه يريدون أن يرجعوا بالناس الذين هاجروا إلى الحبشة لأنهم من سفهاء القوم وسفلتهم، كان رد النجاشي: «لا، حتى أسمع كلامهم»، وهذا عين الإنصاف والعدل ؛ فليس كل قول يصدر علينا تصديقه من قائله دون بينة أو دليل، وإنما لا بد لكلِّ مُدَّعٍ لشيءٍ أن يأتي بدليل عليه وبرهان، وإن كان ما قاله عن غيره، فلهذا الغير الحق في أن يسمع له قبل الحكم عليه، وهذا، وإن صدر من النجاشي وهو نصراني، إلَّا إنه خُلقٌ في الإسلام ثابت وأمر إلهي

١١ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١، ص(٤٣٢-٤٣٥).

واجبٌ العمل به عند الحكم على الغير، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[١٢] وكذلك وقف النجاشي موقف الميزان للحق، مع أنه لم يغفل مكانة قريش ولذلك سألهم بما تعارف عندهم إذا احتمى أحدٌ بأحد ألا يكون عبدا أو عليه دين، فقال: « أعبيد هم لكم؟ ألكم عليهم دين؟» حتى إن أرجعهم لقريش يكون ذلك بسبب، لكنه كان قاطعًا في الحق حينما قالوا له: لا. فقال: «وَاللَّهِ لَا أُسَلِّمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا».

وهنا لعلنا بحاجة إلى معرفة هذه الشخصية العادلة النجاشي، الذي امتدحه الرسول صلى الله عليه وسلم دونما أن يراه، والذي لم يكن وقتها على الإسلام.

النجاشي اسمه أصحمة بن الأبحر ملك الحبشة، وقد تُوفي في حياة النبي صلى الله عليه وسلم فصلَّى عليه بالناس صلاة الغائب، ولم يَثبت أنه صلى - صلى الله عليه وسلم - على غائب سواه [١٣]. وجاء في الحديث: «لَمَّا مَاتَ النَّجَاشِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ لَا يَزَالُ يُرَى عَلَى قَبْرِهِ نُورٌ» [١٤].

فهل أسلم النجاشي؟

لم يأت بكتب السيرة تحديدًا متى أسلم النجاشي، وكيف كان إسلامه، لكن الرويات الكثيرة تؤكد إسلامه، وأن سبب عدم إعلانه لذلك كان اصطدامه بقساوسة الحبشة، وقد ورد عند البخاري أنه عند موت النجاشي نعاه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: «استغفروا لأخيكم» [١٥]. وقال: «مَاتَ الْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ»[١٦] . وكان الوحيد الذي صلى عليه الرسول صلى الله عليه وسلم صلاة الغائب.

خاتمة:

لعلَّ هناك الكثير ممَّا يستحقُّ أن نقف عنده في هجرة المسلمين إلى الحبشة؛ لكنَّ موقف عدل النجاشي هو أعمقها وأهمها؛ أولًا: لكونه ملكًا له سلطةٌ وسطوة، ولبلده مصالحُ اقتصاديةٌ مع قريش، كانت كفيلةً عند أحدٍ غيره أن يتَّخذ موقفًا غير الذي أخذه، وثانيًا: لكونه نصرانيًّا أي على دينٍ غير الذي عليه المهاجرون الذين استجاروا به، وقد كان حوله قساوسة لهم سلطة الدين عليه وعلى الناس، وقد عارضوه وكانوا ضده، لكنه كان نموذجًا مثاليًّا للعدل، الذي تفرَّعت عنه كلُّ المواقف التي عاشها المهاجرون في الحبشة من حرية العقيدة وحرية الدعوة والأمن.

فما أحوج الدنيا الآن لحاكمٍ عادلٍ مثل النجاشي يمنعه عدله عن قبول ظلمٍ وقع بأناس مستضعفين، وتمنعه مروءته وخُلقه عن رفض إجارتهم والوقوف معهم، ويمنعه دينه عن رفض السماح لهم بحرية العقيدة والعيش بأمان وسلام، وتحصِّنه قوته وسلطته للدفاع عن موقفه ومواجهة أيَّةِ ضغوطاتٍ سلطويةٍ دينية أو اقتصادية، فيميل من العدل إلى الظلم! ما أحوج مهاجري اليوم ولاجئي هذا الزمان إلى مثل ذاك الرجل، وقد صارت هجراتهم أشدَ مرارةً وألـمـًا من مرارة هجرة المسلمين الأوائل للحبشة.

١٢ سورة الحجرات: الآية ٦.
١٣ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١، ص(٤٢٩).
١٤ مسند أحمد (٢٠٣/١)، (٢٩٢/٥)، وقال الهيثمي في المجمع (٢٧/٦): رجاله رجال الصحيح.
١٥ رواه البخاري، حديث (١٣٢٧).
١٦ رواه البخاري، حديث (٣٦٦٤).

نماذج معاصرة من الهجرة:

١- الهجرة السرية: «الحَرْقَةُ» مصطلحٌ جديدٌ للموت

الدكتورة فلة بن غربية

لقد اهتم الباحثون والمفكرون بمختلف تخصصاتهم بدراسة مجتمعاتهم، حركياتها وتركيبتها البشرية والمؤسساتية، وما تنتجه في كل مرة وفي جميع مراحل تطوراتها المفصلية وغير المفصلية، التجانسية وغير التجانسية من مفاهيم... آليات... ظواهر... أفات، علاقات، سلوكيات، أفكار. كون هذه الأخيرة هي التي تحدد المميزات الخاصة لها وفي كيفية تحديد سيرورة المنظومة الاجتماعية العامة (لأنها نتاج لواقع اجتماعي) انطلاقا من الأسباب الموضوعية والذاتية لها، وانطلاقا من المرجعيات المعرفية والفكرية، وكذا من المنطلقات الامبريقية الميدانية الممارستية؛ إذ نرى أن دراسة توجهات وآراء ومعتقدات وقيم الأفراد، في نطاق البيئة الاجتماعية /الثقافية /الاتصالية التي يعيشون ويتفاعلون ويتواصلون فيها، من بين أعقد دراسات العلوم الاجتماعية ـ الإنسانية كون الأفراد في تغير مستمر، يؤثرون ويتأثرون بعضهم ببعض من جهة، وبالفضاء العمومي العام الداخلي والخارجي من جهة أخرى. كما أنهم من خلال هذا التأثير في «إبداع» مستمر للفعل والمعني وللوضعيات والأحداث، مما يؤدي بالباحث وفي كل مرة يقوم بدراستها وتحليلها والربط بين متغيراتها ومكوناتها والفاعلين فيها، ليتمكن من استخلاص النتائج ومحاولة إيجاد الحلول المناسبة لها. فالسلوكات الفردية والجماعية التي عكف الأكاديميون على دراستها عديدة ومتنوعة.

تظهر كلما تغيرت ميكانيزمات العلاقات بين الأفراد أو بين الأفراد والسلطة. وتظهر كلما تطورت أشكال ومؤسسات الفضاء العمومي الاجتماعي والثقافي سواء في بلدهم أو في البلاد الأخرى. وتظهر كلما ازدادت فاعلية واقناعية وتلاعبية وسائل الاتصال الجماهيرية سواء من خلال تطورها التكنولوجي أو من خلال مضامينها المختلفة.

هذا المطلب الذي تريد هذه الأوراق البحثية تناوله في اطار معطى نقل واقع معاش بسمات سوسيولوجية وبسيكولوجية ومعيارية معينة تطبع المجتمع الجزائري، هي ظاهرة الهجرة السرية أو غير الشرعية التي انتشرت وفي السنوات الأخيرة بكثرة بين الأوساط والفئات الشبابية الجزائرية التي أصبحت مهووسة بهذا الحلم القاتل. وذلك من أجل العيش كما يتراءى لها في الدول الغربية خاصة منها وبالتحديد (إسبانيا، إيطاليا، ألمانيا، انجلترا، وفرنسا) في كنف الرفاهية، الحرية، الكرامة، الاستقرار الأمني والمادي والاجتماعي.

إن للهجرة غير الشرعية للشباب الجزائري صفات ومسببات، تفرقها وتميزها عن أنواع الهجرات غير الشرعية الأخرى التي تعرفها الدول الغربية في الآونة الأخيرة. بدلالات ومفاهيم ومعاني وأهداف وحتى استراتيجيات منبثقة من واقعهم المعاش. فما هو واقع الهجرة السرية في الجزائر؟

قبل أن أخوض في تحليل هذا المطلب، والواقع المعاش للشباب الجزائري ومغامراتهم وتجاربهم مع الهجرة السرية، أريد أن أعلل سبب اختياري بالذات لهذا الجانب من خلال دراسة أشكال وأنواع الهجرة السرية حسب مقتضيات وأنوع هذه الظاهرة وخصوصيتها.

١-أسباب اختيار الموضوع: هنالك أسباب ذاتية وموضوعية:

أ ـ الأسباب الذاتية:

انساق تفكيري الذاتي الإنساني في تناول هذا الموضوع من الزاوية المطروحة في هذا المقال من خلال تجربتي مع جارتي «جميلة» التي اقترضت نصيبا من المال لعلاج نفسها، إلا أنها وفي الحقيقة أخذت المال كدين وأعطته لابنها البالغ من العمر ١٧ سنة من أجل أن يقطع الجهة الأخرى من الشارع، عفوا، أن يقطع البحر الأبيض المتوسط للظفر بالإلدورادو الاوروبي حسب اعتقادات الشباب الذين يقبلون على هذا الفعل بطريقة سرية.

لقد اشترت هذه الأم لابنها تذكرة سفر ولكن للعالم الأخر، بحيث لقي حتفه غرقا في البحر بالسواحل الاسبانية، علما انه لم يتم العثور على جثته إلى يومنا هذا. إنها حالة من حالات كثيرة أخرى لشباب جزائري حالم، تنام جثتهم في قاع البحر الأبيض المتوسط، حالات لشباب جزائري يغامر بحياته وبمصير أسر بأكملها سعيا وراء الحياة «الجملية».

تأثرت كثيرا لحالة هذه الأم ـ الجارة التي فقدت فلذة كبدها. وكم هن عديدات في هذا المجتمع الذي غشيته هذه الظاهرة بكل مآسيها.

ب- الأسباب الموضوعية:

لقد دق الحقوقيون والهيئات النظامية من درك وشرطة وحراس سواحل وكذا أفراد المجتمع المدني ناقوس الخطر تجاه هذه المعضلة الوطنية. هذا الهم المجتمعي الذي فتك بأبنائنا سواء بالموت أو بالوصول إلى الضفة الأخرى وكيف؟. هذه الظاهرة التي لغمت عقول الشباب، أنتجت في المجتمع الجزائري ظواهر أخرى اجتماعية خطيرة مثل العنف بجميع أشكاله، الاغتراب الاجتماعي، التفكك الأسري، التسرب المدرسي وتدني مستويات التعليم. فبات من الضروري جدا معالجتها وبطرق مختلفة، سنرى ذلك لاحقا، للحد من هذا التفاقم الرهيب.

فحسب وسائل الإعلام الجزائرية، ومنها ‹جريدة الخبر› كعينة، حيث التقيت بالصحفي «هدار محمد» الذي قدم لي بعض الأرقام استقاها من مصالح

حراس السواحل أومن الرابطة الجزائرية لحقوق الإنسان لإعداد أوراق صحفية حول هذه الظاهرة. ومنها وحسب بعض الإحصاءات التي أفادني بها، فإن الجزائر سجلت سنة ٢٠٠٩، ٢٤٠٠ حالة هجرة غير شرعية مقابل ١٥ ألف حالة سنة ٢٠١٥، ١٢ ألف منهم دخلوا عبر اليونان ومقابل ٢٧٤ ألف سنة ٢٠١٤، ١٠٠ ألف سنة ٢٠١٣، تم توقيف من قبل مصالح حراس السواحل من ٢٠٠٥ إلى ٢٠٠٧، ٢٣٤٠ «حراق» وتم انقاذ ١٠٣١ مرشح «للحرقة» من الموت المحقق، كما تم توقيف في سنة ٢٠١٥- ٩٨٢ «حراق» في كل من مدن: بني صاف، تيبازة ومن بينهم من ٣٥٩ من عنابة فقط. أما عدد المتوفين أو المفقودون سنة ٢٠٠٥فقد بلغ ٢٥ حالة، ٢٠٠٨ ـ ٨٣ حالة، ديسمبر ٢٠١٠ -٤٥ من حي واحد لمدنية عنابة الشرقية الساحلية لوحدها و٤٠ حالة من مناطق مختلفة في نفس السنة. أما بين سنة ٢٠١٤-٢٠١٦، سجلت ٤٠٧٧ حالة مفقود، نهاية سنة ٢٠١٦ (٢١ ديسمبر ٢٠١٦) ١٠ مفقودين مقابل ٩٨ استطاعوا الوصول إلى شط الأمان.

٢- تعريف الهجرة السرية:

تُعرف الهجرة غير الشرعية بأنها: «كل حركة للفرد أو الجماعات العابرة للحدود خارج ما يسمح به القانون، والتي عرفت أوج ازدهارها بعد إقرار سياسات غلق الحدود في أوروبا خلال سبعينيات القرن الماضي» [١]

ويعرفها القانون البحري الجزائري في مادته ٥٧٥ مكرر١ المؤرخ ب ٢ جانفي ٢٠٠٩ على أنها «مغادرة الإقليم الوطني بصفة غير شرعية عبر أماكن غير مراكز الحدود» [٢]

أما المهاجر غير الشرعي، فيعرفه المكتب الدولي للعمل BIT هو كل شخص يدخل أو يقيم أو يعمل خارج وطنه دون حيازة الترخيصات القانونية اللازمة، لذلك يعتبر مهاجرا غير شرعي أو سري أو بدون وثائق أو في وضعية غير قانونية».[٣]

وهي، إذن، هجرة سرية من قبل الأفراد والجماعات من أوطانهم الأصلية إلى دول الشمال وبالتحديد، الدول الأوربية وأمريكا الشمالية، باحثين سواء عن الآمن والأمان والاستقرار، أو عن العمل أو حتى تغيير نمط معيشتهم التي تمردوا عليها، وتعويضها بنمط معيشي اجتماعي ثقافي حضاري أو حتى ديني أخر. فحسب منظمة الهجرة الدولية، فان حجم الهجرة غير القانونية في دول الاتحاد الاوربي وصل سنة ٢٠٠٩ إلى نحو ١,٥ مليون شخص والذي عرف ارتفاعا منذ ظهور الأزمات الأمنية في كل من سوريا، اليمن، العراق، ليبيا وبعض الدول الإفريقية.[٤]

أما في الجزائر، فقد عرفت ظاهرة الهجرة عامة منذ القرن الـ ١٨ حسب كتاب الأستاذ عمار هلال بعنوان: «الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام (١٨٤٧-١٩١٨) الجزائر، دار الطبع هومة ٢٠٠٧، خاصة إلى بلاد الشام وما هجرة الأمير عبد القادر ومجموعة كبيرة من اتباعه وعشيرته إلا دليل على ذلك.

كما عُرفت بعد ذلك هجرة الجزائريين نحو فرنسا خاصة بعد الاستقلال واستمرت هذه الظاهرة في سنوات السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، ولكن بطرق أخرى غير قانونية خاصة بعد العشرية السوداء التي عاشتها الجزائر ظاهرة الإرهاب من (١٩٩٠-١٩٩٩) بحيث ومنذ نهاية التسعينيات من القرن الماضي «أخذت هذه الظاهرة منعطفا خطيرا كونها استفحلت في أحضان المجتمع الجزائري وبدأت

1 VAISSE Maurice / Dictionnaire des relations internationales au 20eme siècle Paris, éd. Armand Colin, 2000, p173.

٢ القانون البحري الجزائري ٢٠٠٩.

3 Bureau International du Travail/ Une approche équitable pour les travailleurs migrants dans une économie mondialisée, conférence internationale du BIT, 92 ème rapport n°6 Genève, 2004 p21.

٤ تقرير مركز الأرض لحقوق الإنسان: سلسلة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية رقم ٦٨ المؤرخ ٢٨-٠٦-٢٠٠٩.

تدمره تدريجيا لما انتجته كما ذكرنا سابقا من أفاق اجتماعية أخرى.

٣- «الحرقة»:

إن الجزائريين لايستعملون مفهوم الهجرة السرية أو غير الشرعية للتعبير عن هذه الظاهرة، بل هناك كلمة متعارف عليها بين جميع أفراد المجتمع ومستعملة للتعبير عن الهجرة السرية أصبحت مصطلحا يعكس بكل مدلولاته الظاهرتية، اللغوية الابستيمولوجية والسوسيولوجية كواقع معاش ألا وهي لفظة «الحرقة» المشتقة من فعل ‹حرق› أي «يجعل النار تؤ ثر فيه اثرها المعهود» والحرَّاقةُ جمع حراقات: «أي السفينة فيها مرامي نيران يرمي بها العدو».[٥] وهذا ما يدل على أن كلمة أحرق، يحرق الشيء حتى لا يصبح له وجود مادي. فالحرق أخر مرحلة للانتهاء تماما من أمر معين حتي لا يصبح له أي أثر، وبهذا استعمل الشباب الجزائري الذي يسمى باللهجة الجزائرية «الحَرَّاقُ» كلمة «الحَرْقَة» للتعبير عن حالته التي يريد أن يحرقها تماما ويستبدلها بحالة أخرى بوجه جديد ومتجدد ذي معنى قيمي بالنسبة إليه. فهو بهذه الآلية يقوم بحرق ماضيه وواقعه الاجتماعي الذي كان يعيشه في سياق وبيئة معيشية معينة. يحرق أوراقه التي تدل على هويته الشخصية المعنوية والوطنية، ومن ثم يحرق الحدود دون أن يأخذ بعين الاعتبار القوانين والمراسيم التنظيمية المهيكلة للتنقل والعبور عبر الدول، فهو يحرق كل القيم والقواعد القانونية الدستورية التشريعية التي تنظيم حركية ونشاط الأفراد.

٤ ـ وصف و تحليل ظاهرة «الحقة» في الجزائر:

انطلاقا من وظيفتي، كأستاذة محاضرة بقسم علوم الإعلام والاتصال في جامعة وهران، درَّستُ مادة إعداد ريبورتاج من سنة ٢٠٠٠ إلى ٢٠١٥ واستنادا للأسباب الذاتية والموضوعية التي ذكرتها آنفا، كلفت طلبتي بتناول هذه الظاهرة، وينقلون واقعها من صلب

٥ المنجد في اللغة والإعلام، بيروت، دار المشرق،١٩٧٥ ص.١٢٨.

الإحياء الشعبية والمناطق الساحلية التي تكثر فيها ومنها هذه الحرقة. فتم تقديم بعض الروبرتاجات بعناوين تدل على خطورتها مثل «الحرقة:صناعة الموت»، «الحرقة: رحلة الموت من اجل الحياة» أو « قوراب الموت»، «الهجرة السرية على كف الموت والحياة». وما شدَّ انتباهي في هذه الروبررتاجات هو الإصرار التام للقيام بهذا الفعل، إذ ومن خلال الاستجوابات «الحراقة» أو الذين «حرقوا» ولم يسعفهم الحظ حسبهم وأعيدوا الى موطنهم، وكذا الذين تم توقيفهم من قبل حراس السواحل الجزائرية، فان هؤلاء يرددون وبمرارة العبارات التالية: «الحَبس في روما ولا وجوهكم انتُومَا»، «أُعطي جسمي لحوت البحر ولا لديدان التربة «...ياكلني الحوت وما يكلنيش الدود»، «الحرقة ثم الحرقة ثم الحرقة».

إنها الأفكار والمعتقدات التي تدور في عقول شبابنا والذين تمردوا على كل ما هو معيش في مجتمعهم، متخذين من الأسباب الآتية طريقهم إلى الحرقة:

١- عدم وجود عدالة اجتماعية في تحقيق فرص العمل.
٢- الحرمان من الحقوق المدنية والاقتصادية (توزيع ثروات البلاد) والسياسية.
٣- الحالة الاجتماعية المعيشية المزرية لهم (فقر، بطالة، أزمة، سكن).
٤- التهميش والعنف المعنوي التي تمارسه بعض أجهزة السلطة على هؤلاء الشباب.

تعقيب وتحليل:

كل الشباب الجزائري الذي يُعتبر مشروع هجرة سرية، يتخذ من الأسباب الذكورة سابقا ذريعة وقرارا لكي «يحرقها» ويعوضها بحالة أخرى «أفضل «و» أحسن «. فنتساءل: هل من العقلانية الإنسانية أن يتخذ الفرد مما سبق ذكره سببا للمجازفة والمغامرة بالنفس التي حرم الله في كتابه الحكيم إيذاءها وقتلها إذ يقول سبحانه وتعالى {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ الله كَانَ بِكُمْ رَحِيماً}.[٦] ويقول أيضا: {وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[٧]

إن الشباب الجزائري يعيش اغترابا اجتماعيا، يأسا نفسيا حادا، حالة رفض تام للواقع الاجتماعي الذي يعيشه، حالة إحباط بسيكولوجي وسوسيولوجي وشعورا مفرطا بالملل، جعله لايتقبل أي اقتراحات وفرص للتعايش والتكيف والاندماج في مجتمعه. هذه الوضعية دفعته إلى تبنى مبدا العنف مع الأخر، سواء أكان ماديا أو معنويا ليتجه نحو المخدرات أو الآفات الأخرى المضرة به وبمحيطه. هذا الشاب أصبح لديه اقتناع بانه مُعَنَّفٌ اجتماعيا من طرف جميع مؤسسات المجتمع، ابتداءا من الأسرة (السلطة الابوبة) الى المدرسة (سلطة الاستاذ والانضباط) الى المؤسسات الإنتاجية (سلطة المسؤول) والى الشارع (سلطة أجهزة التنظيم و تسيير الشأن العام).

هذه الحالة البسيكولوجية اتخذت من «الحرقة» الوسيلة الراديكالية لـ»حرق» واقعها واستبداله بآخر هو في الأصل ليس بواقعها، ولكنها تريد تبنيه وانتهاجه على أساس أنه هو الأصلي لها. واقع شاهدته من خلال وسائل الاتصال الجماهيرية (من حقوق الأفراد، الحرية فرص العمل، المساواة، العدالة الاجتماعية)، أو من خلال تجارب لأشخاص يعيشون في حالة ميسورة في الدول الغربية. ولكن الشاب وبمجرد البدء بهذه المجازفة يصطدم بواقع آخر هو واقع البحر «ياكله الحوت» أي الموت. أو القبض عليه في الحدود الأوربية وجره الى مراكز الإيواء لعدة أشهر، وهي في الأساس عبارة عن سجن، ومنه يعاد ترحيله الى وطنه الأصلي، أو يستطيع التسلل الى هذه الدول الأوربية ولكن ماذا بعد ذلك؟.

لقد اصدرت السلطات الايطالية، مثلا، قانون ‹بوسي

٦ سورة النساء الآية ٢٩
٧ سورة البقرة الآية ١٩٠

فيني، عام ٢٠٠٢ تحت رقم ١٨٩ وذلك لتفعيل إجراءات الطرد والحبس. إذ نصت المادة ١٣ من هذا القانون على «حبس الأجنبي من سنة الى أربع سنوات الذي صدر في حقه أمر بالطرد ولكنه مازال متواجدا على أراضي الدولة. أما المادة ١٤ فعززت إجراءات الطرد عن طريق المرافقة الى الحدود بعد التحقيق من جنسيته و هويته، وإذ تعذر الأمر يؤخذ الى مراكز الإيواء وحجزه لمدة حددها القانون من ٣٠الى ٦٠ يوما» [٨].

انطلاقا من هذا الواقع، تبدأ رحلة الهروب من السلطات، رحلة تزوير الوثائق للحصول على عمل، أو رحلة محاولة التكيف والتأقلم مع البيئة الجديدة التي كان يحلم بها. تمر الأيام والشهور والسنين ويبقي «الحرَّاق» بدون وثائق قانونية تسمح له الحصول على أي عمل مؤمَّن. يقضي يومياته فارا من السلطات القانونية، قد يتحصل على عمل يومي بدون تصريح من صاحب العمل لإمكانية العيش الى حين... ؟

جل الشباب الحراق في بلاد الغربة كما يسمونها، هم أشخاص، يعيشون على هامش الاستقرار المادي، القانوني والمعنوي... والروحي لأنهم في حقيقة الواقع «حَرَّاقَة».

أ ـ الوصف المادي لعملية «الحرقة»:

يتصل الشباب الذي يريد أن «يَحْرِق» عن طريق الوسائط الاتصالية خاصة الفايسبوك بأفراد متخصصين في إعداد وتنظيم سفريات الحرقة، الذين يكونون شبكات تهريب سرية غير قانونية في المناطق الساحلية للجزائر، خاصة في المدن التالية: عنابة (شرق الجزائر) وهران وبالتحديد منطقة أرزيو، عين تموشنت ومدينة مغنية (غرب الجزائر)، يقوم هؤلاء الأشخاص بتحديد مجريات العملية... الوسائل المستعملة... التوقيت والتاريخ.. عدد الحراقة وثمن السفرية الذي يتراوح ما بين ١٥٠ ألف دينار الى ٢٠٠ ألف دينار جزائري للرأس الواحد حسب تعبيرهم.

تبدأ رحلة المخاطرة بامتطاء قارب ذي أربعة أو خمسة أمتار من نوع KIOWA ٩/٩ يتسع مثلا من ١٥ الى ٣٠ شخصا وبمحرك أو محركين. يطلق على وسيلة النقل هذه باللهجة الجزائرية والمتعارف عليها بين الشباب لفظة «بوطي» المشتقة من كلمة The Boat آخذين معهم أجهزة توجيه عبر الأقمار الصناعية GPS.

يتخذون من البحر والليل وحسن الأحوال الجوية رهانات لقطع مسافة ما يزيد عن ١٠ آلاف كلم بين الجزائر وايطاليا. لا يأخذون معهم إلا النزر القليل من أمتعة أو أكل مثل بعض الخبز والتمر... لا يبالون بصعوبة البحر. فحسب الروبرتاجات المذكورة سابقا، يتعاطى البعض منهم حبوب مهلوسة حتى لا يخشوا مما يحدث من حولهم. والبعض الآخر يتزنر بأسلحة بيضاء، وفي بعض الأحيان، وهذا ما حدث حسب شهود ـ حراقة كانوا مع ابن جارتي أنهم رموه من القارب (وهو لا يعرف السياحة) للحالة الهستيرية التي كانوا عليها.

ينطلق «الحراقة» حوالي منتصف الليل من شواطئ صغيرة غير محروسة تتوفرعلى أشجار وتغطيها قمم، يتفقدون وينظرون لبعضهم البعض ثم يجليسون على حافة القارب بما أنه مملوء بقارورات المازوت، يدعون ويتمنون بصوت منخفض لأن أن صوت المحرك تطغى على السمع.

هكذا أصبحت عملية الحرقة مشروعا قائما بذاته، يتم التحضير له ماديا ومعنويا من قبل بعض الشباب الجزائري كأنما يبنون مشروعا استثماريا له «مستقبل واعد».

٨ عثمان الحسن محمد نور / الهجرة غير المشروعة والجريمة/ الرياض جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، مطبوعات مركز الدراسات والبحوث القانونية ٢٠٠٨، ص ٥٠.

٥ ـ تعامل الجزائر مع قضية الهجرة السرية:

لقد وجدت السلطات الجزائرية نفسها محرجة أمام شركائها الاوربين. الذين وجهوا لها أصابع الاتهام بعدم بذل جهد لحماية حدودها البحرية. فحسب الوكالة الأوربية للتسيير والتعاون العملياتي في الحدود الخارجية Frontex، تأتي الجزائر في المرتبة التاسعة من حيث هجرة أفرادها بطريقة غير شرعية الى أوربا. إذا تم توقيف في أراضيها سنة ٢٠١٤ ثلاثة عشر ألف مهاجر جزائري غير شرعي. منهم ٧٧٨٦ تم استرجاعهم الى وطنهم [٩].

هذا ما أدي بالحكومة الجزائرية إلى انتهاج استراتيجيات مختلفة لمعالجة الظاهرة، ومن بينها أسلوب الردع بتجريم الهجرة السرية «الحرقة». في هذا الصدد نص قانون العقوبات بتاريخ ٨ مارس ٢٠٠٩ الموافق ل ١١ ربيع الأول ١٤٣٠هـ، في المادة ١٧٥ مكرر على ما يلى «يعاقب بالحبس من شهرين الى ستة أشهر وبغرامة من ٢٠ ألف دج الى ٦٠ ألف دج أو بإحدى هاتين العقوبتين كل جزائري أو أجنبي مقيم يغادر الإقليم الوطني بصفة غير شرعية أثناء اختيازه أحد مراكز الحدود البرية أو البحرية أو الجوية. وذلك بانتحالة هوية أو باستعماله وثائق مزورة أو أي وسيلة احتيالية أخرى للتملص من تقديم الوثائق الرسمية اللازمة أو من القيام بالإجراءات التي توجبها القوانين والأنظمة السارية المفعول. وتطبق نفس العقوبة على كل شخص يغادر الإقليم الوطني عبر منافذ أو أماكن غير مراكز الحدود».[١٠]

بالإضافة إلى الإجراءات القانونية، بادرت الجزائر الى نشر قوات شرطة الحدود على جميع منافذ الإقليم خاصة البحرية منها. كما أنشئت المديرية العامة

٩ حسب موقع الهافينغتون بوست بالعربي: https :nova rombler .vu ١٨h a ٢٠١٦/٠١/٢٤

١٠ جاءت هذه المادة في القسم الثامن الذي أضيف بموجب القانون ٠١/٠٩ والذي جاء بعنوان: الجرائم المرتكبة ضد القوانين والأنظمة بمغادرة التراب الوطني.

للأمن الوطني «الديوان المركزي لمكافحة الهجرة غير الشرعية».[11]

كما لا يفوتنا، في هذا المقام، أن ننوه بأن رئيس الجمهورية طلب شخصا من أعضاء الحكومة والجهات الرسمية القانونية وكذا المؤسسات الاقتصادية والدينية والثقافية ووسائل الإعلام أن يلعب الجميع دورا في توعية الشباب الجزائري تجاه مخاطر هذه الظاهرة وعواقبها. ويبرز اهتمامه بهذا الأمر من خلال مخاطبة الشباب في مناسبة دينية بقوله: «... أيها الشباب أخاطب فيكم وازعكم الديني وضميركم الخلقي وكبرياءكم الإنساني، لأقول لكم انه آن الأوان أن نطرد من أذهاننا وهم العزة خارج الوطن أو عيش الهوامش في أوطان أخرى... إن الذين يغشون ويغالطون الشباب بوعود عرقوبية كاذبة، وبجنات موعودة خلف البحار، فيحشرونهم في قوارا الموت، هؤلاء وغيرهم فاقدو الأخلاق عديمو الضمير».[12]

لقد أصبحت الهجرة السرية واقعا اجتماعيا من جهة، ومشكلات دبلوماسية من جهة أخرى، كونها ظاهرة عابرة للحدود، تستدعي تدخل جميع الشركاء المحليين والإقليميين وحتى الهيئات والمنظمات الدولية لإيجاد حل عقلاني وموضوعي في إطارا تخاذ المسؤوليات الأخلاقية الإنسانية المشركة.

فعلى الدولة الجزائرية، وبالإضافة الى القوانين الردعية التي سنتها المواجهة هذه المعضلة، لا بد عليها أن تضبط برامج تنموية اقتصادية واجتماعية وثقافية للتكفل بحاجات وانشغالات وطموحات شبابها، والقضاء على الاقصاء والتهميش الذي يشعر به الشاب الجزائري.

إن السعي وراء المجهول والبحث عن الشيء غير الموجود مع وجود الخيال المفقود يؤثر على القلب المدفون وإن اختلفت الأسباب وتعدد الأتعاب: بلادي وإن جارت علي عزيزة... وأهلي وإن ظنوا علي كرام.

11 أحمد عطية/ الهجرة غير الشرعية بين استراتيجيات المواجهة وآليات الحماية / Revues univ – ourgla. d.z le ١٧/٠١/٢٠١٦ a ١٤h

12 نشر هذا الخطاب في جريدة الشروق الأسبوعي بتاريخ ١٧ مارس ٢٠٠٨

المراجع:

القرآن الكريم

المراجع باللغة العربية:

١-أحمد عطية/ الهجرة غير الشرعية بين استراتيجيات المواجهة وآليات الحماية .Revues univ – ourgla d.z / le ١٧/٠١/٢٠١٦ a ١٤h.

٢-موقع الهافينغتون بوست بالعربي: https:nova rombler.vu ٢٤/٠١/٢٠١٦ à ١٨h

٣- عثمان الحسن محمد نور / الهجرة غير المشروعة والجريمة/ الرياض جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، مطبوعات مركز الدراسات والبحوث القانونية ٢٠٠٨.

٤- تقرير مركز الأرض لحقوق الإنسان: سلسلة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية رقم ٦٨ المؤرخ ٢٨-٠٦-٢٠٠٩.

٥- المنجد في اللغة والإعلام، بيروت، دار المشرق،١٩٧٥.

٦-جريدة الشروق الأسبوعي بتاريخ ١٧ مارس ٢٠٠٨.

باللغة الفرنسية:

1- VAISSE Maurice / Dictionnaire des relations internationales au 20eme siècle Paris, éd. Armand Colin, 2000

2- Bureau International du Travail/ Une approche équitable pour les travailleurs migrants dans une économie mondialisée, conférence internationale du BIT, 92 ème rapport n°6 Genève, 2004

٢- الهجرة القسرية والمسلمون البوشناق في السنجق

الأستاذ الدكتور أنور غيسيتش

انتقل البشر منذ بداية الحضارة الإنسانية من مكان إلى آخر لأسباب عديدة أغلبها ارتبط بتحسين ظروف الحياة بحثاً عن مكان أفضل، إلا أن البشرية عرفت أيضاً ومنذ بدايات الحضارة الإنسانية هجراتٍ اضطراريةً أو تهجيرًا قسريًّا، سبَّب تغييرات ديموغرافية واسعة في العالم وخلق مجتمعات جديدة وأعراق بشرية جديدة بسبب اختلاط الأعراق، كما خلق ثقافات جديدة بسبب تمازج وتدافع الثقافات بين بعضها في المجتمعات المختلطة، والمثال على ذلك في الوقت الحالي دول المهجر التي جمعت شعوباً من شتى أنحاء الأرض صنعت نماذج جديدة وثقافة اجتماعية جديدة كما خلقت نماذج سياسية مختلفة وأعراق بشرية بسبب الإختلاط الكبير بين أعراق متعددة.

الإنتقال من مكان إلى آخر دعي بتسميات متعددة مرتبطة بظروف الإنتقال، فالإنتقال الذي يتم بشكل إرادي لأسباب إضطرارية أو غير إضطرارية يدعى هجرة، بينما الذي يحدث بسبب كوارث طبيعية أو حروب فيسمى نزوحاً ويدعى المنتقلون نازحين، والذين ينزحون لأسباب أمنية أو أسباب تتعلق بسلامتهم فيلجأون إلى منطقة أو بلد أكثر أماناً فندعوهم لاجئين، والمفترض أن اللجوء مؤقت إلى أن تزول أسبابه، بينما الهجرة هي انتقال دائم إلى مكان آخر، أما انتقال مجموعات بشرية والسيطرة على أراض أخرى مسكونة أو غير مسكونة فيسمى استيطاناً والقادمون مستوطنون .

في التشكيلات البشرية الأولى كانت الهجرة ترتبط

بالمناخ وخصوبة الأرض وتوفر المياه وغيرها من سبل الحياة فعرف التاريخ القديم حركات بشرية استوطنت في أراض جديدة وبنت مدناً وقرى وبدأت تراكم المعرفة، وعند بناء الممالك واتساعها بدأت الصراعات والحروب بين الممالك والإمبراطوريات للسيطرة واستغلال موارد البلاد الأخرى، فبدأت تأخذ هذه الصراعات الطابع القومي والعرقي، وكانت هذه الصراعات سبباً في هجرة وانتقال كتل بشرية عديدة وتغيير ديموغرافي وسكاني في العديد من المناطق في العالم. ولا ننسى أن الصراعات قديماً والهجرات القديمة كانت تتم في عالم غير مزدحم بالسكان حينها، فكانت الأرض تتسع لحركات الهجرة والنزوح دون عوائق الحدود الجغرافية الحالية، فكانت طبيعة الأرض والممالك تتغير عبر التاريخ بسبب هذه التنقلات البشرية والإستيطان الجديد.

إلا أن العالم عرف أيضاً الصراعات الفكرية والدينية منذ عهد الممالك والأمبراطوريات الأولى في التاريخ والتي سببت أيضاً العديد من الهجرات الإرادية والهجرات القسرية وحركات النزوح الواسعة.

وضمن مسيرة هذه الحضارة البشرية إذا نظرنا إلى تاريخنا الإسلامي فسنجد أن حركة الإنتقال والهجرة كانت نشطة جداً ومنذ بداية هذا الدين الحنيف حيث عانى المسلمون الأوائل من الرفض والاضطهاد فهاجروا إلى الحبشة لاجئين عند ملكها، ثم كانت هجرة الرسول الكريم ﷺ إلى يثرب حيث أسس الدولة الإسلامية الأولى.

الصراع الفكري والديني كان السبب في حركات الهجرة هذه حيث رفض أهل قريش دعوة الرسول الكريم ﷺ وعملوا على وأد هذا الدين الجديد بشتى الطرق، إلا أن أن الدين الجديد وبالإنتقال إلى مدينة يثرب وجد فرصة أكبر بالنمو والإتساع والفرصة لتشكيل الدولة الإسلامية. رافق تشكيلَ الدولة الإسلامية حركاتُ انتقالٍ نشطةٍ وواسعة وتغيير كبير في ديموغرافية وعقائد وثقافات الشعوب التي سادت عليها هذه الدولة فتغيرت حياة القوم تغيراً جذرياً على كافة الصعد وخلقت مجتمعاً جديداً مختلفاً كلياً عن المجتمع الذي عاشه سكان المنطقة سابقاً.

وإذا نظرنا بقليل من التحليل إلى حركات الانتقال في الدولة الإسلامية وأسبابها وأنواعها، سنلاحظ أنه رافق تشكل الدولة الإسلامية كل أنواع الهجرة والنزوح واللجوء والإستيطان وغيرها من حركات الانتقال الإرادي والقسري. وما رافق من انتقال الجيوش والإستيطان في مناطق جديدة وكذلك ما رافقها من تمصير الأمصار وتأسيس مدن جديدة تحوي مجتمعات جديدة تختلط فيها القبائل والأعراق والثقافات فتتشكل ثقافة جديدة ومجتمع جديد كما في مدن العراق التي تأسست في العهد الراشدي كالبصرة والكوفة أو واسط في العهد الأموي وبغداد في العهد العباسي وكذلك القاهرة والقيروان والعديد من المدن الأخرى. هذه المدن التي أنشأت في العهود الإسلامية أصبحت مراكز علمية وثقافية وفكرية فهذا الاختلاط كان سبباً في تلاقح الأفكار والثقافات وخلق عادات وتقاليد وثقافة جديدة أكثر تلوناً.

وفي التاريخ الحديث وبعد تراجع قوة الدولة الإسلامية أو الدول الإسلامية، حيث أصبحت دولاً متفرقة ومتناحرة في أحيانٍ كثيرةٍ، عانى المسلمون من اضطهاد وقمع ما سبب حركات نزوح واسعة في العالم وغيّر من ديموغرافية وطبيعة العديد من البلدان، وما زالت مستمرة حتى وقتنا هذا.

لو عدنا إلى التاريخ فسترى أن الصراعات بين البشر لم تتوقف عبر التاريخ، وكذلك الهجرة والتهجير لم تتوقف عبر التاريخ، وإذا نظرنا إلى تاريخ العالم الإسلامي وتحديداً في العصور الحديثة، فإن العالم الإسلامي ربما عانى أكثر من غيره من الصراعات والحروب وما رافقها من فظائع ومآسي ومنها التهجير القسري إلى درجة التطهير العرقي، فالصراع الديني الذي أُفتعل

وأُججت أواره في شبه القارة الهندية أودى بحياة عدد كبير من الضحايا وأدى إلى تقسيم الهند إلى ثلاث دول هي الهند وباكستان وبنغلادش وتهجير قسري لأعداد بشرية هي الأكبر في التاريخ كتهجير قسري بناءً على الانتماء الديني والعرقي يحدث في وقت قصير.

وفي فلسطين مسرى الرسول الكريم ﷺ ، كان المشروع الأوروبي بإنشاء دولة إسرائيل وتجميع اليهود فيها سبباً في تهجير السكان العرب الأصليين من بلادهم واضطهاد من بقي منهم وشن حروب دائمة عليهم بغرض استئصالهم من هذه الأرض.

إن الصراعات والحروب وما يرافقها من مآسي وانهيارات اقتصادية هي أحد أهم أسباب الهجرة والتهجير القسري، وفي وقتنا هذا فإن ما يشهده العالم الإسلامي اليومي من صراعات وحروب وعدم استقرار كما في أفغانستان والدول العربية حالياً هي سبب رئيسي في هجرة الملايين باتجاه الغرب وفي هذه الورقة نتحدث عن الهجرة الخارجية دون ذكر الهجرات الداخلية الكبيرة التي تعانيها هذه الدول، فقد هاجر أو هُجِّر الملايين من سكان العراق وسوريا وليبيا وأفغانستان والصومال، وسبقتهم الجزائر في تسعينيات القرن الماضي، وفي أوروبا المسلمون البوشناق والمسلمون الألبان وغيرهم من مسلمي أوروبا الذين تعرضوا للتهجير القسري.

وبالعودة للتركيز على مسلمي البلقان فهذا جرح نازف آخر لا يقل عن سواه في فظاعاته ومآسيه، وهو جرح قديم يعاود النزف كل حين فما أن تنطفىء الحرب في البلقان لعقد أو عقدين من الزمن إلا وتعاود الاشتعال من جديد، وأقصد الحرب على المسلمين في البلقان التي أخذت شكل التطهير العرقي ضد المسلمين في محاولة لإزالتهم وإلغاء وجودهم في هذا الجزء الأوروبي. رافق هذه الحروب تهجير قسري لم يتوقف منذ القرن التاسع عشر أي منذ خروج العثمانين من البلقان، ورافقها حرب إعلامية وإيديولوجية حاولت القضاء على الإسلام والمسلمين في هذا الجزء من أوروبا. في الحرب الأخيرة وبسبب تطور الإعلام وانتشار الفضائيات رأى العالم جزءاً من الحرب الأخيرة في تسعينيات القرن الماضي التي استهدفت أغلبها المسلمين والأقاليم المسلمة في البلقان، إلا أن الغالبية لا تعرف أن هذه الحرب كانت حلقة من حلقات حرب استئصال مستمرة وقديمة، إلا أنها كانت أكثر وحشية وشمولية حيث اتسعت لتشمل كافة الأقاليم والمناطق المسلمة. كما خفي جانب مهم من هذه الحرب على المتابعين هو جانب الحرب الفكرية والثقافية والإعلامية. فمنذ عام ١٨٤٨م، أواخر عهد الدولة العثمانية يقول أحد مفكري الصرب بما معناه «أننا يجب أن نستأصل المسلمين وذلك بأن نقتل ثلثهم ونهجر ثلثهم والثلث الباقي نعيد صياغة إسلامهم بما يناسبنا». ولو عدنا إلى التاريخ محاولين أن نفهم سبب محاولة الإستئصال هذه، فسنصل إلى بداية وجود الإسلام في المنطقة.

إن المسلمين في البلقان يرجعون إلى عرقين أساسيين، المسلمين الألبان والمسلمين البوشناق، والأخيرين أسسوا قديماً دولة سميت «البوسنة»، وتعود أصولهم إلى الأريوسيين، وهم تيار ديني رفض الإقرار بألوهية النبي عيسى عليه السلام واعتبره نبياً من أنبياء الله، وهذا ما عرضهم تاريخياً، للضغوط ومحاولة إجبارهم تارة على قبول الأرثوذكسية وتارة الكاثوليكية. هذا كان من الأسباب المهمة في سرعة اعتناقهم الدين الإسلامي في أول احتكاك معه حال دخول العثمانيين للمنطقة وسيطرتهم عليها.

يضيف انتصار العثمانيين على الصرب خاصة عاملاً نفسياً مهماً في كراهية المسلمين الباقيين في المنطقة حيث أن نتائج معركة (قوصوة) التي جرت في كوسوفو التي انتصر بها العثمانيون انتصاراً ساحقاً ما زالت أثاره النفسية مرسومة في وجدان القوميين الصرب. حيث إن صربيا هي المحور الرئيس في الحروب

ضد المسلمين. ويبدو أن دور المسلمين البوشناق في الوظائف العليا في الدولة العثمانية ودورهم في حروب الدولة العثمانية ضد أوروبا الغربية خلال فترة تمدد الدولة العثمانية كان سبباً آخر لدى الإمبراطورية النمساوية الهنغارية وبعض الدول الأوروبية الأخرى أيضاً للإنتقام من البوشناق.

فما أن بدأ تراجع سيطرة العثمانيين في أوروبا وانحسارهم عن البلقان في القرن التاسع عشر بدأ البوشناق يعانون من الاضطهاد والتضييق، وظهرت بعد ذلك الأفكار والطروحات القومية والدينية المتطرفة وخاصة لدى الصرب تدعو إلى استئصال المسلمين من المنطقة. وبعد حروب البلقان في العام ١٩١٢م- ١٩١٣ م هاجر وهُجّر مليونان ونصف المليون من مسلمي البلقان إلى داخل أراضي الدول العثمانية حينذاك وكانت تلك أكبر هجرة للمسلمين من البلقان عبر تاريخهم، إلا أن هذا التهجير لم يتوقف، فقد مورست ضدهم كل أنواع التضييق عليهم لدفعهم للهجرة فاستمر النزف طوال القرن الماضي كما قام الصرب بمذابح وتطهير عرقي ضد المسلمين كل عقدين أو ثلاثة عقود.

كان من نتائج هذه الحرب العسكرية الأخيرة في البلقان في تسعينيات القرن الماضي قتل أعداد كبيرة من المسلمين البوشناق وتهجير أعداد كبيرة أخرى وتغيير ديموغرافي كبير في العديد من مناطق البوسنة وصربيا، فكثير من المدن التي كان يقطنها نسبة كبيرة من المسلمين، أفرغت من المسلمين خلال الحرب ولم يعد فيها مسلمين الآن. ومن النتائج السياسية استقلال جمهورية البوسنة والهرسك عن صربيا والجبل الأسود، وإن كان هذا الاستقلال منقوصاً سياسياً، وشكل الدولة رسمته القوى العظمى بطريقة لا يرقى إلى شكل الدولة الحقيقي، حيث الجمهورية مقسمة إلى فيدرالية وكونفدرالية، وبدل الرئيس هناك مجلس رئاسي من ثلاثة رؤساء، وإلى آخر هذه التقسيمات التي تجعلها دولة غير مترابطة على أرض الواقع. كما استقلت بقية جمهوريات الاتحاد اليوغسلافي جميعاً عن صربيا وكان آخرها الجبل الأسود التي أعلنت انفصالها عن صربيا في محاولة التنصل من مسؤوليات وتبعات هذه الحرب، وأخيراً إعلان إقليم كوسوفو ذي الأغلبية الألبانية المسلمة استقلاله عن صربيا. وبينما كانت الحرب مع كرواتيا صراع على السيطرة على الأرض والنفوذ كانت الحرب على المسلمين حرب إستئصالية تستهدف وجودهم في البلقان عموماً.

إقليم السنجق والذي أغلب سكانه من المسلمين البوشناق، تم تقسيمه بين جمهوريتي صربيا والجبل الأسود مؤخراً بعد انفراط عقد الإتحاد اليوغسلافي. هذا الإقليم كان هدفاً لهذه الحرب الإستئصالية ولكن عبر محاولة تهجير سكانه ودفعهم لمغادرة المكان منذ القرن التاسع عشر وخلال حروب البلقان في بداية القرن الماضي حدثت هجرة كبيرة من السنجق كان أغلبها باتجاه الأراضي التركية أعقبها هجرات متتالية أكبرها فترة الحرب العالمية الثانية [١]، وبالرغم من أنه لا توجد إحصائية دقيقة لعدد المسلمين البوشناق الذين يعيشون في المهجر إلا أنه من المؤكد أن المسلمين البوشناق من إقليم السنجق الذين يعيشون في المهجر أكثر من عدد سكان السنجق حالياً بكثير.

هذه الحرب ضد بوشناق السنجق لم تنتهِ فصولها إلى الآن وما زالت مستمرة ولو بشكل أضعف، محاولة إلغاء الهوية الدينية والثقافية للمسلمين البوشناق في السنجق ومحاولة تصويرهم على أنهم بقايا العثمانيين من أجل تأجيج الكراهية القومية والدينية ضدهم.

بالرغم من توقف العنف المباشر ضد مسلمي السنجق إلا أن الحرب الإقتصادية والثقافية لم تتوقف ولم تتغير، فما زال السنجق خارج منظومة الدولة للتطوير أو الاستثمار أو حتى تجهيز البنى التحتية والخدمات الأساسية في كافة مناطق الإقليم، وبذلك

١ انظر البوشناق في صربيا والبوشناق في الجبل الأسود.

ارتفعت نسبة البطالة إلى ٥٥٪ من نسبة اليد العاملة في السنجق كما يفتقر الإقليم إلى الخدمات الأساسية، فما زالت أغلب الخدمات رديئة دون استثمار حقيقي لتطوير شبكة الطرق العامة أو تجهيز مطار مدني أو التطوير العمراني والخدمي في مدن السنجق. والميزانية التي تخصصها حكومة صربيا، كمثال لمدينة نوفي بازار عاصمة إقليم السنجق بالكاد تكفي مرتبات العاملين في القطاع العام التابع للدولة دون تخصيص مصاريف حقيقية لتحسين شروط الحياة وتحسين الخدمات وتعبيد الطرق وغيرها من المصاريف الضرورية. وتتجاهل الحكومة الصربية دوماً أن تشجع أي استثمار متوسط أو كبير في إقليم السنجق قد يساهم في تطوير الاقتصاد ويوجد فرص للعمل.

يرافق هذا الحصار الاقتصادي حصار ثقافي وإعلامي، حيث استطاعت المشيخة الإسلامية التي تمثل المجتمع الإسلامي في إقليم السنجق رغم شح الموارد أن تؤسس مؤسسات تعليمية وثقافية ابتداءً من رياض الأطفال والتعليم الشرعي للإناث والذكور وكلية الدراسات الإسلامية والجامعة العالمية ومدارس تحفيظ القرآن الكريم وغيرها من المؤسسات الثقافية والخيرية. إلا أن الحكومة لم تقدم يد العون بل عملت على تعطيل أو تأخير بعض هذه المؤسسات وتراجعت عن إعادة الأوقاف الإسلامية كي لا تستفيد منها المشيخة في تطوير مؤسساتها وحاولت إعاقة تحسين الأوقاف الحالية وحاولت أن تضع العقبات في بعض المشاريع التي تقوم بها المشيخة الإسلامية.

هذه الممارسات وغيرها من الممارسات السياسية تهدف إلى إبقاء مسلمي السنجق في حالة فقر وتخلف وضيق مادي تدفعهم للهجرة ومغادرة البلاد، أو مسح شخصيتهم وهويتهم الإسلامية أو على الأقل أن تبقي من بقي منهم بدون قوة إقتصادية أو مؤسسات قادرة على التأثير، وتحويلهم إلى أقلية صغيرة مهملة في البلاد.

أما المشهد السياسي في صربيا فإن خسائر الحرب والتبعات الاقتصادية ولّدت تيارات مختلفة على الساحة السياسية، فبينما كان التيار القومي المتطرف هو السائد أثناء الحرب على البوسنة ويرافقه سيطرة كاملة على الإعلام الذي كان يشوه هذه الحقائق، ويظهر الضحية بأنه المعتدي، هذه السيطرة الإعلامية انكسرت وبدأت ترتفع بعض الأصوات التي تظهر جزءاً من الحقيقة التي غابت عن أغلب الشعب، وظهر بعد الحرب تيار ديمقراطي يحاول أن يتصالح مع نفسه وتاريخه من خلال الاعتراف بالحقائق الديموغرافية وتبدى في أحزاب ما زالت صغيرة ذات دور محدود في المشهد السياسي، كما ظهر تيار برغماتي يتعامل مع الواقع ودافعه الأساسي العامل الإقتصادي ومحاولة الاستفادة من أوروبا، أما التيار الأوسع في الشارع السياسي فما زال يفكر بنفس تلك النظرة القومية المتعصبة وإن اختلفت لدى جزء كبير منه تلك اللغة المتشنجة التي سادت فترة الحرب وبدأ يستخدم تعابير مختلفة تناسب المرحلة ولكنها ما زالت تبطن في طياتها ذات النظرة العنصرية. أما الجزء المتطرف من القوميين والذي ما زال يحظى بشعبية واسعة في الشارع الصربي، فما زال يتجاهل الحقائق ويرفض الحقوق السياسية والثقافية للآخرين.

ولإكمال صورة المشهد لا بد من النظر إلى دور الدول المؤثرة في هذا المشهد وهي أوروبا وروسيا وتركيا التي تصاعد دورها في السنوات الأخيرة، فالمصالح الإقتصادية دفعت السياسين للتوجه إلى أوروبا محاولين تحقيق بعض المطالب الأوروبية في محاولة للاندماج مع أوروبا والخروج من الحالة المتردية اقتصادياً وصناعياً وخصوصاً أن روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي ومحاولة إعادة بناء قوتها في العقد الأخير لن تستطيع أن تخرج صربيا من ضعفها الاقتصادي، وجل ما تقدمه هو بعض الدعم السياسي، أما أوروبا التي ترغب أن تضمن الأمن في جنوبها والذي هو أحد المعابر إلى

الشرق الأوسط كمصدر الطاقة، كما ترغب بأن تضم دولة أخرى تدور في فلك الدول الأوروبية الكبرى، فهي تمارس ورقة المساعدات الاقتصادية والترغيب في دخول الإتحاد الأوروبي بفرض شروطها على السياسة الصربية. أما الدور التركي الذي برز بشكل واضح مع تنامي دور تركيا في المنطقة فقد بدأ يؤثر ولو بشكل محدود حتى الآن على الحالة السياسية معتمداً على القوة الإقتصادية وتأثير القوة الناعمة لتركيا.

بعد هذه النظرة الموجزة للمشهد العام في صربيا لأنها مصدر الحروب في السابق ومصدر الأيديولوجية القومية العنصرية التي كانت تطمح لبناء صربيا الكبرى فإن هذه الإيديولوجية وبالرغم من كل المتغيرات والتأثيرات والحالة الاقتصادية بقيت هي المهيمنة على فكر الشارع الصربي تغذيها طبقة من المفكرين السياسين من مدرسي الجامعات بالإضافة للكنيسة التي لعبت وما زالت تلعب دوراً في هذا التوجه.

إن المسلمين البوشناق الذين هاجروا واستوطنوا في البلاد الإسلامية الأخرى اندمجوا في مجتمعاتهم وكانوا عناصر ناجحة في المجتمع وبرزت منهم أسماء عديدة عبر التاريخ منهم أحمد باشا حاكم مدينة عكا الذي أوقف تقدم نابليون في فلسطين وأفشل مخططه ومن المعاصرين تانسوت تشيلر رئيسة وزراء تركيا السابقة وعبد الرحمن بوشناق عضو مجمع اللغة العربية في المملكة الأردنية الهاشمية وغيرهم من السياسين والأعلام، وهناك جاليات بوشناقية في بلاد الشام وشمال إفريقيا والمدينة المنورة وغيرها من البلاد العربية كما توجد جاليات في أوروبا الغربية وبلاد المهجر وهؤلاء أغلبهم هاجر حديثاً أثناء وبعد الحرب الأخيرة، إلا أن أكبر جالية بوشناقية تعيش في تركيا وأغلبهم يعيش في مدينة اسطنبول.

هذه الهجرات لم تلغ الإنتماء القومي والعاطفي والإنتماء للإسلام لأغلب المهاجرين البوشناق ففي دول أوروبا الغربية استطاعت الجاليات البوشناقية تأسيس تجمعات وبنت مساجد في العديد من مدن أوروبا الغربية، وفي الغالب حافظت على هويتها وخصوصيتها وبقيت تتواصل مع مؤسسات البلد الأم. وفي تركيا بالرغم من أن قسما كبيرا من هذه الهجرات مضى عليها أجيال عدة إلا أن بعضهم ما زال يتواصل مع أقاربه البوشناق في السنجق، أما في الدول العربية فقد كان البوشناق أكثر انصهاراً بمجتمعاتهم الجديدة فأغلبهم تعرّب وبقيت علاقاتهم ببلادهم الأصلية محدودة، وذلك لخاصية الدول العربية وخاصية علاقتهم بالإسلام.

بالرغم من المآسي والمرارة التي تصبغ الهجرة أو التهجير القسري والصعوبات والعقبات التي ترافق هذا الانتقال إلا أن المجتمعات التي تشكلت من مهاجرين كالولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا وكندا وغيرها من دول المهجر أو الدول التي استقبلت أعداداً كبيرة من المهاجرين أنتجت أنواعاً جديدة من المجتمعات المنفتحة وأنماطاً جديدة من السلوكيات والعادات. هذه المجتمعات التي تكونت من مجموعة من المهاجرين من أصقاع الأرض استطاعت التقدم على أصعدة عدة بسبب الخبرات التي تجمعت فيها. فالزائر لمدن الولايات المتحدة الكبرى على سبيل المثال سيدرك مباشرة أنها تجمعٌ لخليط واسع من الأعراق والأثنيات، وسيدرك حجم التفهم ومفهوم التعددية في هذه المجتمعات، وسيلاحظ أيضاً حجم التقدم المجتمعي والسلوكي العام في هذه المدن. هذا ينطبق أيضاً على دول ككندا وأستراليا والعديد من المدن التي تشكلت من مهاجرين من أعراق مختلفة. وفي دول الخليج العربي هناك العديد من المدن كدبي وأبو ظبي والدوحة وغيرها أصبحت مدناً عالمية لاستقدامها الخبرات من جميع أطراف الأرض، فأصبحت مكاناً تجتمع فيه أعراق وثقافات عديدة وتشكل فيها نموذجاً مدنياً جديداً يختلف عن المجتمع القديم في

هذه البلاد، وأصبحت مدناً عالمية مشهورة.

بالرغم من أن قسم كبير من المهاجرين في هذه التجمعات البشرية الكبيرة في دول المهجر والدول الغربية، حافظ على هويته واحتفظ بعاداته وتقاليده الأصلية كما في بلده الأم التي قدم منها والتي قد يحافظ عليها لأجيال عدة، إلا أن قسماً آخر فقد خصوصيته في محاولة الاندماج مع البيئة الجديدة وفقد هويته التي تميزه.

الخاتمة:

بالنسبة لنا نحن المسلمين علينا أن نستفيد من هذه التجارب الإنسانية، فعلينا أن نرسخ مفاهيم تقبّل الآخر وتقبّل التنوع العرقي والإختلاف الديني والفكري كما أمرنا ديننا الحنيف، والتعايش مع المجتمعات الإنسانية بشكل أفضل، كما ورد في حديث الرسول الكريم ﷺ : «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى»[٢] ، وكما قال تعالى في كتابه العزيز:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [٣]، ولكن علينا في نفس الوقت الحفاظ على خصوصيتنا الدينية والأخلاقية وقيمنا التي نعتز ونفتخر بها، قال تعالى:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [٤].

ولكي نحد من ظاهرة الهجرة الاضطرارية علينا أن نعمل ما بوسعنا بأن نحسن سبل المعيشة في بلادنا وفي مجتمعاتنا بتحسين الظروف الإقتصادية وخلق فرص العمل وتحسين مستوى الخدمات والتعليم، وجعل مدننا مكاناً يسهل ويطيب العيش فيه. وفي نفس الوقت علينا أن نتواصل مع الجاليات التي هاجرت واستقرت في دول المهجر ودول الغرب عموماً وإبقائها على اتصال بتاريخها وثقافتها وهويتها وتعميق إحساسها بهويتها التي ترتبط بالمفاهيم الأخلاقية والدينية والإنسانية، مع احترام قيم وعادات وقوانين المجتمعات التي يعيشون بها.

بالنسبة لنا المسلمين البوشناق في السنجق لا يتم هذا الأمر إلا بالتعاون بين أفراد المجتمع المسلم وبالتعاون مع الدول والمجتمعات والمؤسسات الإسلامية في الدول الإسلامية الأخرى، كي لا نكون في جزيرة معزولة تقاوم العواصف منفردة، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٥] .

٢ أخرجه أحمد والبيهقي وأبو نعيم والطبراني

٣ الحجرات ١٣

٤ آل عمران ١١٠.

٥ المائدة ٢.

السـيرة الذاتيـة للكتـاب

أيمن رياض المفلح: الأمين العام للهيئة الخيرية الأردنية الهاشمية، الرئيس التنفيذي السابق لجمعية إدامة، المستشار الخاص لصاحب السمى الملكي الأمير فيصل بن الحسين ٢٠٠٧م، مسؤول الإدارة والمشتريات في لجنة القوات المسلحة الأردنية، الجيش العربي ٢٠٠٧م، نائب مدير دائرة الأحوال المدنية والجوازات ٢٠٠٥م، مدير الشؤون المحلية والبرلمانية ، الديوان الملكي الهاشمي ٢٠٠٤م، حاصل على وسام الاستقلال من الدرجة الثالثة، ووسام الخدمة العسكرية الطويلة.

محمد حبش: أكاديمي وبرلماني سوري، يعمل حالياً أستاذ الدراسات الإسلامية في كلية القانون جامعة أبو ظبي، يحمل الدكتوراة في علوم القرآن الكريم من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية في الخرطوم، عمل مديراً لمركز الدراسات الإسلامية بدمشق، كما عمل مستشاراً لمركز الدوحة الدولي لحوار الأديان، ساهم في البحث العلمي وأصدر ٥٥ كتاباً مطبوعاً طبع بعضها عشرات المرات. يتبنى خطاباً إسلامياً تنويرياً، يميل إلى الوفاق بين القيم الإسلامية والحضارة الحديثة، ويتبنى مبدأ إخاء الأديان وكرامة الإنسان، وكتب في هذا السبيل سلسلة من الأبحاث: المشترك أكثر مما تعتقد، سيرة رسول الله، جيران على كوكب واحد، الإسلام والدبلوماسية، الدبلوماسية بدلاً من الحرب، النبي الديمقراطي.ترجم كتابه سيرة رسول الله إلى الرومانية واعتمدته جامعة كرايوفا العريقة في مناهجها، كما كرمه المنتدى العالمي للوسطية بجائزة أفضل كاتب في التجديد الإسلامي لعام ٢٠١٦م.

صلاح الدين العامري: باحث وكاتب تونسي حاصل على الدكتوراه في اللغة والآداب والحضارة العربيّة، جامعة منوبة. يشغل أستاذا مساعدا بالمعهد العالي للحضارة الإسلاميّة بتونس. له مجموعة من الأعمال المنشورة من بينها: كتاب صناعة الذاكرة في التراث الشيعي الاثني عشري: زيارة المراقد أنموذجا الذي صدر عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود ٢٠١٦. وكتاب التشيع في البلاد التونسيّة: بحث في النشأة والتحولات وتصدره وحدة البحث «في قراءة الخطاب الديني» بجامعة العلوم الإنسانية والاجتماعية ٩ أفريل سنة ٢٠١٧. وله مجموعة من المقالات المنشورة باللغتين العربية والفرنسية في مجلات محلية ودولية.

محمد السماك: مواليد بيروت، لبنان، حامل شهادة الدكتوراه من الجامعه الاميركية-اللبنانية في بيروت، أمين عام اللجنة الوطنيه الاسلاميه –المسيحيه للحوار في لبنان، امين عام القمه الروحيه الاسلاميه في لبنان، عضو مجلس رؤساء منظمة الدين من اجل السلام-نيويورك، عضو مجلس ادارة مركز الملك عبدالله بن عبد العزيز للحوار-فيينا-
حائز على اوسمة تقدير من ايطاليا-الاردن-الفاتيكان، مؤلف ٢٨ كتابا.

مختار محمد مختار أحمد خواجة: إعلامي مهتم بالخطاب الديني بكالوريوس إعلام من جامعة قطر عام ٢٠٠٦م، وماجستير في مقارنة الأديان عام ٢٠١٥م،عن رسالته في الخلاص في الديانات الثلاث، له عدة مقالات منشورة في مجال الأخلاق والخطاب الديني والقرآن الكريم إضافة لقصص قصيرة يهتم إجمالا بمواضيع القيم والأخلاق في الأديان وكيفية إيصال الأخلاق في الإسلام للشباب بصورة عامة.

جميلة تِلوت: المغرب، باحثة بمركز مغارب للدراسات في الاجتماع الإنساني، عضو مركز المقاصد للدراسات والبحوث كاتبة في الفكر الإسلامي، محاضرة في عدد من الندوات والمؤتمرات الوطنية والدولية.
من مؤلفاتها: الأسرة في التصور القرآني، مرتبة العفو، فقه التنزيل، الضروريات بين الزيادة والحصر ومتطلبات العصر، مقاصد الأسرة في القرآن من الإنسان إلى العمران، إشكالية النسخ في قراءة الوحي. بالإضافة إلى عدد من المقالات والدراسات العلمية والمشاركات في الكتب الجماعية.

علي بن مبارك: أستاذ الحضارة بالمعهد العالي للغات بنابل جامعة قرطاج بتونس، باحث مختص في الأديان المقارنة، له عدّة كتب ومقالات محكّمة في الحوار الديني والدراسات الإسلامية المعاصرة، عضو في عدةّ منظمات وهيئات علمية ، صدر له أخيرا (٢٠١٧م) عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود كتاب «الحوار التقريبي بين المذاهب الإسلامية: التجارب والإشكاليات والآفاق.

محمد محمود كوار: باحث موريتاني مختصفي مجال العلوم الإنسانية والإجتماعية، والتاريخ الديني، وله اهتمامات كبيرة بشأن الأديان السماوية الإبراهيمية، والأديان الأخرى، وغيرها من المعتقدات الأخرى، وكذلك الاهتمام بقضايا العنف والتطرف والإرهاب وعلاقتها بالأديان والمعتقدات الأخرى من جهة، ودور الهجرة في بناء تاريخ الحضارة الإنسانية، بالإضافة إلى اهتماماته الأخرى بمجالات تخصص القانون وحقوق الإنسان.

أحمد عبد الرحيم: باحث بمركز الدوحة الدولي لحوار الأديان، عمل باحثا أول بتحقيق المخطوطات، والتدقيق اللغوي للبحوث التراثية بمكتبة الإسكندرية، دكتوراه في الآداب (العربية والفارسية) كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، عضو الجمعية الفلسفية المصرية.

له العديد من الكتب المنشورة تأليفا وتحريرًا:

- الآثار العربية: منتخبات من أبحاث المؤرخ الدكتور جواد علي التاريخية، مجلدان، تحرير.

- الأمْنُ الرُّوحيُّ والفِكْريُّ في ضَوْءِ التَّعَاليمِ الدِّينِيَّة: أوراق مؤتمر الدوحة الدولي الثاني عشر لحوار الأديان، تحرير.

- في معرفة النفس ترجمة مقدمة كتاب كيمياء السعادة للإمام أبي حامد الغزالي عن الفارسية)

فلة بن غربية: دكتوراه العلوم في الإعلام والاتصال، أستاذة محاضرة بقسم علوم الإعلام والاتصال، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران ١، أحمد بن بلة، وهران، الجزائر.

المجالات العلمية المشتغل فيها: الاتصال الجماهيري والفضاء العمومي.

أهم المنشورات:

١. الحوار السياسي في الفضاء العمومي السياسي بين المعنى والممارسة: كتاب جماعي حول فعاليات المؤتمر الدولي الرابع حول: الحوار ودوره في التنمية والسلم، مخبر حوار الحضارات.

٢. تعليمية الدرس وأبعاد المفهوم في علوم الإعلام والاتصال: مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، مجلة دورية محكمة، تصدرها جامعة وهران ١ أحمد بن بلة، العدد ٦ جانفي ٢٠١٦.

أنور غيتستش: دكتور في العلوم الإسلامية في مجال الفقه الإسلامي والموارد البشرية والمادية في الإسلام، يحمل الجنسية الصربية، وهو من مواليد ١٩٧٦ قضاء تسينينيسا في إقليم السنجق في صربيا. يعمل حالياً عميد كلية الدراسات الإسلامية في صربيا، وأستاذاً محاضراً في مادة الفقه الإسلامي في الكلية، بالإضافة إلى أنشطة أخرى، فهو رئيس مجلس إدارة مؤسسة «الكلمة» للطباعة والنشر، وعضو في المجلس العلمي في الجامعة العالمية في صربيا، ورئيس مجلس مؤسسة «خيرات» الخيرية التابعة للمشيخة الإسلامية في صربيا، ونائب رئيس حزبBDZ البوشناقي في صربيا، يتقن بالإضافة إلى اللغة البوسنية اللغة العربية ويلم باللغة الإنجليزية.